الجمهورية الجـــــزائرية الديمـــــقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامـــعة الأمير عـــبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قـــسم التاريخ

المغرب الأوسط الإسلامي في الكتابات التاريخية الفرنسية (1830 - 1930)

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي
تخصص حضارة المغرب الأوسط في العصر الإسلامي

إعداد الطالب: كريم بوترعة
إشراف أ.د. علاوة عمارة

العضو	الصفة	الجامعة الأصلية
أ. د. أحمد صاري	رئيسا	جامعة الأمير عبد القادر
أ.د. عـــلاوة عمارة	مشرفا ومقررا	جامعة الأمير عبد القادر
أ. د. احميدة عميراوي	عضوا	جامعة الأمير عبد القادر
د. رشيد باقة	عضوا	جامعة الحاج لخضر – باتنة

السنة الجامعية 1430ـ – 1431 هـ
2010-2009

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

إنه لمن الأهمية بمكان أن أوجه شكري و تقديري العميقين، لأستاذي المشرف، الأستاذ الدكتور: علاوة عمارة، على توجيهاته الرشيدة و نصائحه المفيدة التي كانت لي نورا أهتدي به أثناء جمع و تحرير هذا البحث الذي يرجع إليه الفضل في إخراجه إلى حيز الوجود، فله مني جميل العرفان.

و كذلك أتوجه بكل تحياتي و تقديري لأعضاء اللجنة الموقرة على ما بذلت من جهد في قراءة هذا البحث، و في توجيهه الملاحظات و الإرشادات العلمية النيرة.

كما لا يفوتني أيضا أن أقدم هذا العمل المتواضع إلى أبي و أمي، و كل الأقرباء والأصدقاء الذين قدموا لي يد المساعدة من قريب أو بعيد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقـــدمـة

بعد الاتصال الثقافي بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي في الفترات الأخيرة من العصر الوسيط[1]، انتقل الاهتمام بالثقافات الشرقية من الهواية الفردية إلى المؤسسات البحثية الرسمية، خصوصا مع تأسيس المدارس المتخصصة في اللغات الشرقية وأكاديميات البحث[2] كما هو حال collège de France سنة 1529م لتدريس اللغة العربية أو الأكاديمية الفرنسية (Académie française) التي وضع أسسها الكاردينال ريشوليو (Le Cardinal Richelieu). ثم تأتي فترة لويس رابع عشر (Louis XIV) أو ما يصطلح عليه عصر التنوير أين بدأت أولى الإشارات أو الاهتمامات بالعالم الإسلامي عن طريق بعض المحاولات الأدبية لفهم أسباب اضمحلال وتراجع العالم الإسلامي. ومن خلال الرسالة التي بعث بها الطبيب الفرنسي فرانسوا برنيي (François Bernier) إلى الوزير الأول كولبار (Colbert) والتي أشار من خلالها إلى انحطاط العالم الإسلامي في آسيا لأسباب اقتصادية، تمثلت في احتكار البلاط للأراضي الزراعية كما لا ننسى محاولة كل من المفكرين مونتسكيو وفولتير، اللذان أشارا إلى العالم الإسلامي وأسباب سقوطه[3]. ومع نهاية القرن 18م شهدت فرنسا تأسيس المدرسة الوطنية للغات الحية (Ecole nationale des langues orientales vivantes)، عام 1795 واستعمال مصطلح الاستشراق ضمن المجلة الموسوعية الفرنسية (Magazine encyclopédique) سنة 1799م[4].

وبحلول القرن 19م اعترفت الأكاديمية الفرنسية بمصطلح الاستشراق سنة 1835م[5] وأصبح بذلك من أهم المؤسسات العلمية. وخلال هذا القرن أصبحت فرنسا من أهـــم القوى السياسية والاقتصادية في أوروبا وأصبحت تتطلع إلى مرحلة التوسع خارج القارة العجوز، وكان لها ذلك في الربع الثاني من القرن 19م، بعد أن نجحت في احتلال الجزائر سنة 1830م، وبدأت في استخدام الاستشراق كأداة لإنجاح مشروعها.

لقد أدى هذا الانتقال المتزامن مع تبلور صورة الآخر في الكتابات الغربية إلى وضع الأسس الأولى لما يعرف بالاستشراق الكلاسيكي الذي ارتبط أساسا بالتوسع الاستعماري الحديث، خصوصا مع بروز

1- فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الإسلامي القرون الأولى ، القاهرة، الأهلية، 1998 ، ص137.

2- علاوة عمارة ،دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي ، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية،2008 ، ص 45.

3- المرجع نفسه، ص 8.

4- المرجع نفسه، ص 8.

5- المرجع نفسه، ص 8.

قوانين المتعلقة بتنظيم مختلف مجالات الحياة في الجزائر، حيث أصبح البحث في ماضي المنطقة من أهم أولويات المؤسسات البحثية المساعدة ثقافيا للمشروع الاستعماري. لقد أدرج الإنتاج الضخم التي تركته في نسق فكري يعرف عند معظم الأكاديميين بالمدرسة التاريخية الفرنسية التي استهوت وألهمت عدد من الدارسين، وذلك من خلال دورها البارز في كتابة تاريخ الجزائر عبر مختلف مراحله، حيث ساهمت بقسط وفير في الإنتاج المعرفي من خلال الكتب والمقالات التي نشرت خلال فترة الاحتلال. ولهذا فإن معظم الدارسين أقروا بأن المدرسة التاريخية الفرنسية كانت أداة ووسيلة للحكومة الفرنسية في تحقيق مشروعها الاستعماري الذي كان يبرر وجوده بفكرة نشر الحضارة، وهذا ما لمسته في جل الدراسات الفرنسية التي كانت تروج في أغلب مواضيعها إلى أن فرنسا جاءت للجزائر بهدف تحضيرها[2].

البداية الأولى كانت من الإدارة العسكرية الفرنسية التي حاولت منذ الاحتلال معرفة حياة الجزائريين[3] من خلال إنشاء لجان الاستكشافات العلمية والمكاتب العربية، التي بفضلها استطاعت جمع المعلومات عن طريق التقارير والمنوغرافيات والمذكرات والملاحظات التي كانت تتسم بالسطحية والبساطة في معالجة تاريخ المنطقة. ثم بدأت في تسليط الضوء أكثر على الفترة الرومانية من خلال العمل الأثري الذي بفضله استطاعت إعادة صورة جغرافية المنطقة في الفترة الرومـــانية[4] وتوضيح صورة الطرق التجارية والعسكرية في القديم بفضل الألواح المكتوبة التي كانت منتشرة بكثرة في الجزائر[5]، الأمر الذي جعل الفترة الرومانية من أولويات البحث التاريخي، بهدف توضيح علاقة الرومان بالبربر من خلال تسليط الضـــوء على دورهم ومساهمتهم ضمن فلك الحضارة الرومانية، التي زالت وتـــلاشت بفعل الفتح الإســـلامي في القرن 7م والهجرة الهلالية في القرن 5هـــ/11م ما ترتب عنهما من اغتصاب لحقوق البربر المزعومة.

بالإضافة إلى التركيز والبحث عن أصول البربر ولغاتهم بعد أن أصبحت من أولويات مدرسة اللغات التي تبنت هذا البحث بهدف تسليط الضوء على تاريخ البربر بفضل مجموعة من المستشرقين أمثال روني باسي (René Basset)، وإيميل ماسكراي (Emile Masqueray)، الذي بفضله تمكن الاستشراق الفرنسي من معرفة التكوين الاجتماعي للبربر بعد أن أقام وتعرف عليهم في كل من الأوراس و القبائل ووادي ميزاب[6]. وحتى من خلال الشواهد الأثرية "القبور الجنائزية للدولمان والروايات القديمة" عملت

1- تعتبر المدرسة التاريخية الفرنسية من أهم المدارس الإستشراقية، فقد لعبت دورا هاما في صقل وإتمام أعمال المستشرقين الأوروبيين. فتحية النيراوي ، الاستشراق، الدار السعودية للنشر والتوزيع، 2005. ص61..

2- Lavion, *L'Algérie musulmane dans le passé, le présent et l'avenir*, Paris, Challamel, 1914, p. 18.

3 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، المجلد الثالث، الجزء السادس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2005، ص، 11.

4 Edmond Doutté, « L'œuvre scientifique de l'école des lettres d'Alger », *Revue Africaine*, 49 (1905), p. 440.

5 Capitaine Jugue, « L'œuvre des sociétés savantes algériennes et tunisiennes », *Revue Africaine*, 49 (1905), p. 367-368.

6 Augustin Bernard, « Emile Masqueray », *Revue Africaine*, 38 (1894), p. 357.

المدرسة التاريخية الفرنسية على إبراز أن الجنس الذي عمّر المنطقة في الماضي نزح من أوروبا، وما الشواهد الأثرية إلا دليل على ذلك بهدف إنجاح مشروعها الاستعماري. كما حاولت المدرسة التاريخية الفرنسية تسليط الضوء أكثر على الإسلام في الجزائر بفضل دراسات مستشرقيها في أواخر القرن 19م بمعالجة الفقه الإسلامي " المالكي والإباضي" والطرق الصوفية والممارسات الدينية والشعائر المتميزة بتعارضها مع الإسلام، كما ركزت على "إسلام البربر" الذي كان في أغلب كتابات الدارسين الفرنسيين سطحي، حجتهم في ذلك أنهم لا يزالون يطبقون "القانون أو العرف" في حل مشاكلهم.

إن غزارة الإنتاج التاريخي الفرنسي حول بلاد المغرب قد دفع ببعض الدارسين لتسليط الضوء على واقع الكتابة التاريخية الفرنسية، والأدوات التي بفضلها تمّت كتابة تاريخ الجزائر عبر حقبه التاريخية، وأهمها كانت لناصر الدين سعيدوني في مقال نشره تحت عنوان "الدراسات التاريخية في الجزائر بين الأمس واليوم"، حتى وإن كان يعالج فترة متأخرة (الفترة العثمانية) إلا أنه أشار إلى واقع المدرسة التاريخية الفرنسية وإنتاجها المعرفي، خلال فترة الاحتلال الذي كان موجّها من طرف الحكومة الفرنسية[1]، ثم دراسة أبو القاسم سعد الله في كتابه "تاريخ الجزائر الثقافي"، حيث أعطى بعض العينات لأهم الحقول المعرفية التي ركّزت عليها الدولة الفرنسية والاستشراق أثناء فترة الاحتلال، كالدين الإسلامي ومؤسساته والجانب الإثنوغرافي، هذا بالإضافة إلى كتاب محمد الشريف ساحلي "Décoloniser l'histoire" الذي جاء بعد الاستقلال، محاولا فيه إبراز الكيفية التي عالجت بها المدرسة التاريخية الفرنسية تاريخ الجزائر، بعد أن وجّهت وركّزت على المجد الروماني لإهمال الفترات الأخرى، مع إعطاء الشرعية لاحتلالها الجزائر، بدافع أنها تحمل شعار الحضارة[2]. وفي هذا السياق جاءت دراسات علاوة عمارة الذي حاول من خلالها إبراز الكيفية التي عالجت بها المدرسة التاريخية الفرنسية الحضارة الإسلامية التي كانت في أغلب كتاباتهم السبب في تراجع منطقة المغرب بفعل حدثين أساسيين هما الفتح الإسلامي والهجرة الهلالية[3].

كما ساهمت الباحثة الجزائرية نبيلة أولبصير التي تشتغل كأستاذة محاضرة بجامعة بواتييه (Université de Poitiers) بفرنسا في دراسة الاهتمام الفرنسي بالتراث الأثري الجزائري وتوظيفه لخدمة الإيديولوجيا الاستعمارية. وقد قامت بنشر عدد من الدراسات تركزت بالأساس حول الاستكشاف الأثري الفرنسي للمعالم التاريخية الجزائرية، من خلال تتبع تقارير البعثات المرسلة لهذا الغرض[4].

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني، "الدراسات التاريخية في الجزائر بين الأمس واليوم"، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، بيروت، دار الغرب الإسلامي،2000م، ص 11.

[2] Mohamed chérif Sahli, *Décoloniser l'histoire. Introduction à l'histoire du Maghreb,* Paris, Maspero, 1965.

[3] علاوة عمارة، "الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي" مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، 4 (2004)، ص 31-75.

[4] Nabila Oulebsir, « La découverte des monuments de l'Algérie. Les missions d'Amable Ravoisié et d'Edmond Duthoit, 1840-1880 », *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*, 73-74 (1996), p. 57-76 ; id., « Discours patrimonial et création architecturale », Khadda (Naget) et Siblot (Paul) (éd.), *Alger, une ville et ses discours*, actes du colloque de Montpellier, 6-8 avril 1996, Montpellier, Université Paul Valéry-Montpellier III, 1996, p. 131-154 ;

فباستثناء بعض الدراسات العامة التي ركزت على الكتابة التاريخية الاستعمارية المغطية للفترتين الرومانية والحديثة، لم تحظ الفترة الإسلامية الوسيطة بالمعالجة الشاملة، إذا ما استثنينا كتابات علاوة عمارة أو تحليلات عبد الله العروي. ومن هذا المنطلق جاءت دراستي التي حاولت من خلالها تسليط الضوء على واقع الكتابة التاريخية "الإنتاج المعرفي" للمدرسة الفرنسية خلال القرن 19م والربع الأول من القرن 20م، وكيف سعت فرنسا بعد إخضاع الجزائر عسكريا وسياسيا، إلى إخضاعها حضاريا وثقافيا، خاصة وأنها كانت ترى في نفسها متفوقة حضاريا وعلى درجة عالية من التطور الاجتماعي والسياسي، وكيف بدأت في توجيه الدراسات من أجل معرفة هذه المنطقة.

إن الدارس للكتابة التاريخية الفرنسية في الجزائر المستعمرة يتساءل عن الصورة التي أعطيت للعصر الوسيط الإسلامي في مقابل "العصور الوسطى" الأوروبية المنعوتة بالظلام في كتابات ما بعد الثورة الفرنسية. هل أعطيت نفس المكانة للمغرب الأوسط الإسلامي كالتي أعطيت للحقبة الرومانية كما تدل على ذلك كتابات جيل ستيفان غزال (Stéphane Gsell) والحفريات الكثيفة لعدد من المواقع الأثرية التي تحمل بصمات الفترة؟ أم أن الفترة الإسلامية في الجزائر لم تحظ بالاهتمام الكافي لعدم تأثيرها في الدورة الحضارية الإنسانية في حوض البحر المتوسط؟ هل أصّل الخطاب التاريخي الفرنسي للسياسة الاستعمارية الرامية إلى إحداث فجوة بين المناطق المعربة والمناطق المحتفظة بثقافاتها البربرية؟ أم أن الأمر يتعلق بمخالفة الآمر السياسي استجابة لمتطلبات البحث العلمي الأكاديمي والبحث عن الحقيقة دون تشويش أو تغيير؟

لمعالجة الإشكالية المطروحة، قمت بتتبع عدد لا بأس به من الإنتاج التاريخي والفكري للمؤلفين والعسكريين الفرنسيين الذين اهتموا بالكتابة التاريخية سنوات بعد احتلال القسم الشمالي للجزائر، وبدأ بذلك توجه تاريخي جديد يظهر في الأفق من خلال المؤلفات والمقالات التي أصبحت تكتب عن تاريخ الجزائر في مختلف مراحله على يد مجموعة كبيرة من الكتاب والمترجمين، تعددت قيمة كتاباتهم. وكان الإنتاج غزير ومتنوع خلال القرنين 19م و20م لأن الجزائر أصبحت من أولويات وخصوصيات العلوم الفرنسية[1]. إن دراسة هذا الإنتاج مكن الباحثين من تمييز على الأقل اتجاهين أو جيلين رئيسيين ساهما في الكتابة والدراسة، شكلا مصدرا مهما لدراستي المتواضعة.

فالجيل الأول مثله الرحالة والكتاب والمترجمين لدى المؤسسة العسكرية، وكانت مساهمتهم عبارة عن مذكرات شخصية وروايات شفوية لبعض الرحالة الذين تنقلوا عبر مناطق الجزائر وكذلك الجنود خلال

---

id., « La définition du paysage architectural dans les expéditions scientifiques de Morée et d'Algérie », Bourguet (Marie-Noëlle), Nordman (Daniel), Panayotopoulos (Vassilis), Sinarellis (Maroula) (éd.), *Enquêtes en Méditerranée. Les expéditions françaises d'Égypte, de Morée et d'Algérie,* Actes de colloque, Athènes-Nauplie, 8-10 juin 1995, Athènes, Institut de Recherches Néohelléniques/F.N.R.S., 1999, p. 293-314 ; id., « Rome ou la Méditerranée ? Les relevés d'architecture d'Amable Ravoisié en Algérie, 1840-1842 », Bourguet (Marie-Noëlle), Lepetit (Bernard), Nordman (Daniel) et Sinarellis (Maroula) (éd.), *L'Invention scientifique de la Méditerranée. Égypte, Morée, Algérie.* Paris, Éd. de l'EHESS, 1998, p. 239-271.

حملاتهم العسكرية والتي اعتمدت على عنصر الملاحظة وتسجيل روايات سكان المناطق وتقارير رسمية لبعثات علمية رسمية وجهتها الحكومة الفرنسية لدراسة بعض المناطق من الجزائر كالبعثة العلمية التي أوفدتها إلى منطقة القبائل خلال سنوات 1840-1841و1842م التي ركزت عملها على طرق التجارة وجغـــــرافية الجزائر والبنية الاجتماعية التي سجلها القادة العسكريون والمدنيون[1]، وتميزت بالطابع الكلاسيكي الذي يعتمد على عنصر الرواية الشفوية والملاحظة الميدانية، ومع نهاية القرن 19م بدأت تظهر في الأفق دراسات أكثر جدية وتعمق، لاعتمادها على المصادر التاريخية العربية والمغربية، بالإضافة إلى ظهور علوم مساعدة، كعـــلم اللسانيات (Linguistique) وفقه اللغة (Philologie) وعلم الآثار(Archéologie)[2]، وكذلك المجلات الاستعمارية التي تهتم بالتاريخ كالمجلة الإفريقية (*Revue africaine*) التي كانت تصدرها الجمعية التاريخية الجزائرية، و"مجموع الجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة (*Recueil et notices de la société archéologique de Constantine*)، ولكن أهم عامل ساعد على توجيه الكتابة هي الترجمة التي قام بها عدد من المستشرقين الأوائل أمثال دو ساسي (Silvestre de Sacy 1758-1838) وكاترمير Quatremère (1782-1852) الذين مهدوا الطريق لمجموعة من المترجمين العسكريين كـــ بربريجر Berbrugger وبرينيي (Brensier) شربونو (Cherbonneau) وخاصة البارون دوسلان[3] (Le Baron Mac Guckin de Slane 1801-1878) ، الذي ترجم القسم الثالث من كتاب" العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" لـــعبد الرحمٰن ابن خلدون، الذي أصبح أهم مصدر لكتابة تاريخ الجزائر خلال القرنين 19م و20م، حيث ساهم كثيرا في توجيه المدرسة التاريخية الفرنسية، بعد أن تم توظيفه لتبرير وإعطاء تفسيرات جديدة تخص الفترة الإسلامية وعلى وجه الخصوص الهجرة الهلالية إلى بلاد المغرب[4]. هذه بعض العوامل التي ساعدت نوعا ما على تجدد الكتابة الفرنسية من خلال مساهمة بعض المؤرخين خلال هذه الفترة أمثال أرنست مارسيي (Ernest Mercier) الذي أصدر بعض الدراسات التي استفدت منها بشكل مباشر في معالجة الموضوع منها: "تاريخ استقرار العرب بإفريقيا الساحلية" الصادر عام 1875 و"تاريخ افريقيا الساحلية منذ الأزمنة الجد بعيدة إلى غاية الفتح الفرنسي". كما ظهر في نفس الفترة كتاب شامل آخر لهنري فورنال (Henri Fournel) تحت عنوان "دراسة حول فتح العرب لإفريقيا".

لقد ساهمت المؤسسة العسكرية من خلال الكتاب والمترجمين والأطباء والصيادلة الهواة على وجه الخصوص في دراسة تاريخ الجزائر[5]،عن طريق الحفريات التي شملت شمال الجزائر خلال النصف الثاني من القرن 19م، والمقالات والدراسات التي تنشر في المجلات التاريخية كالمجلة الإفريقية، بالإضافة إلى جمع الكثير

---

1 - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص 11.

2- فتحية النبراوي، المرجع السابق، ص104

3 - المرجع نفسه، ص105ـــ107.

4 - Sahli, *op. cit.*, p. 76.

5 - Narciss Faucon, *Livre d'or de l'Algérie*, Paris, Challamel, t. 1, p.18.

من المخطوطات والمصادر التي كانت النواة الأولى لمكتبة مدينة الجزائر. وحاولت قد الإمكان الاستفادة من هذه المادة الغنية في دراسة موضوعي. وما يلاحظ على هذا الجيل أنه وضع اللبنة الأولى للمدرسة التاريخية الفرنسية عن طريق مساهماته المتمثلة في الترجمة والدراسات وأعمال الأثريين الذين ركزوا على الماضي الروماني للمنطقة وجعلوا الفترة الإسلامية هامشية، إضافة إلى إبراز دور فـــــرنسا الحضاري فهم يفتخرون "بفرنسا على أنها حاملة مشعل الحضارة، ووريثة روما على الأراضي الإفريقية"[1]. وتركت أسماء كل من أرنو (A. Arnaud)، وفيرو (Ch. Féraud) ورين (L. Rinn) وبربريجر (A. Berbrugger)، وكات (E. Cat)، ودوما (Daumas) ، وكارات (Carette) ، بصماتها في الدراسات التاريخية. ومـــــع مطلع القرن 20م ظهر جيل ثان أكثر قدرة على التعامل مع النصوص التاريخية، أغلبهم أساتذة جامعيون وباحثون مختصون[2]، عملوا على توسيع مجالات بحثهم التاريخي عن طريق معالجتهم لمواضيع جديدة تخص الفترة الإسلامية كالدراسات التي شملت الفن والعمارة والاقتصاد والدين الإسلامي، بالتركيز على الطابع البربري للمنطقة من خلال مساهمة هذا العنصر إبان الفترة الوسيطة وخاصة العصر الحمادي، وجاء هذا التوجه الجديد من خلال مساهمة بعض الأثريين كالجنرال دوبليي (Le Général de Beylié) الذي أصدر كتابا عنوانه "قلعة بني حماد عاصمة بربرية لإفريقيا الشمالية خلال القرن 11م" سنة 1909م، بالإضافة إلى دراسات كل من جورج مارسي (Georges Marçais) و إميل فليكس غـــــوتيه (Emile-Félix Gauthier) التي من خلالها ساهموا في إعطاء صورة عامة عن تاريخ بلاد المغرب خلال الفترة الإسلامية [3]. وقد قمت بتوظيف القسم الكبير من هذا الإنتاج في معالجة موضوع المذكرة.

إلى جانب الدراسات والكتابات بمختلف أنواعها، قمت بتحليل بعض المقالات المنشورة في المجلات الاستعمارية المشتهرة بتوجهها إلى الدراسات التاريخية، ومن ذلك "المجلـــة الإفريقيـــة" (*Revue Africaine*) الصادرة عن الجمعية التاريخية الجزائرية، وعملت كذلك على تتبع الدراسات التي نشرت بـــــ "مجمـــوع الجمعية الأثرية لعمالة قسنطينة".

إن دراستي لهذا الموضوع لم تكن بالهينة، نظرا لعدم تمكني من الوصول إلى كل هذا الإنتاج التاريخي المتنوع، وافتقاد المكتبات الوطنية لجله. فكان الحصول على نسخ رقمية لعدد معتبر من النصوص خير معين لي في تطوير عملي، خصوصا وأن "المكتبة الرقمية" التي أنشأتها المكتبة الوطنية الفرنسية قد ضاعفت من مضمونها، وكانت الجزائر وبلاد المغرب بصفة عامة حاضرة في هذا المجال. كما أشير إلى مختلف مشاكل قراءة المادة وتصنيفها على فترات تاريخية، وهي عملية شاقة، بحثا عن الحضور الإسلامي الوسيط في إنتاج تاريخي معاصر، تعددت أغراضه وتشعبت اهتماماته.

---

1 - Sahli, *op. cit.*, p. 138.

2 - ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص، 10.

3 - علاوة عمارة، المرجع السابق، ص، 11.

الفصل الأوّل

المغرب الأوسط في الكتابات الفرنسية الأولى بين الوصف والأيديولوجيا

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- حضور المغرب الأوسط في الكتابات الأولى

إن الفشل العسكري المبكر للغرب في إخضاع الشرق في نهاية العصر الوسيط، جعله يلجأ إلى وسيلة أخرى لمعرفة الطرف الآخر ومن ثم إخضاعه، فكان الاستشراق الفرنسي سباقا في كتاباته لمعرفة قوة الدولة الإسلامية منذ وقت مبكر[1]. فالمحاولات الأولى جاءت في شكل روايات أدبية، تناولت تاريخ الدولة الإسلامية بشكل عام، لأن الذين اهتموا بالتأليف خلال هذه المرحلة كانوا من رجال الدين ومفكرين وأدباء، وكان الدافع الديني يغذي تلك الكتابات وهذا ما لمسته في كتاب القس بيير دان (Pierre Dan)[2] *Histoire de la Barbarie et de ses corsaires* الذي عالج فترة متأخرة من تاريخ الجزائر، وقد ألف كتابه للبلاط الملكي من أجل تحريك أصحاب الرأي السياسي لتخليص المسيحيين من "عدوان" المسلمين المتمثل في القرصنة على حد زعمه، الذي من خلاله تطرق إلى تاريخ المغرب بشكل عام وصور أرضه "الملعونة" على أنها مسرحا لحروب التحرير[3] ، وأن تاريخه عبارة عن حلقات متسلسلة من الحروب، أما الفترة القديمة فقد حاول إبراز دور روما التي جاءت من أجل نشر القيم الحضارية الرومانية، وتعاليم المسيحية[4]، ولكنها اختفت وزالت بسبب "الاحتلال" وغزو العرب والمسلمين، الذين جاءوا ونشروا تعاليم دين خاطئ يقوم على العنف والاستشهاد[5].

وما يمكن قوله هو أن هذه المحاولات الأولى كانت بعيدة كل البعد عن الكتابة التاريخية، لأنها لم تتعرف بعد عن المصادر التاريخية العربية التي أرخت للدولة الإسلامية في الفترة الوسيطة، التي تعتبر في نظر العديد ممن جاءوا فيما بعد على أنها الفترة الأكثر صعوبة "وظلاما" في تاريخ بلاد المغرب خاصة[6] وهذه ميزة كتابات الغربيين والفرنسيين خصوصا في البدايات الأولى. وما يمكن رصده من هذه المحاولات أنني قد قسمتها إلى قسمين .

أ- في أصول الكتابة التاريخية الفرنسية حول المغرب

حاولت في هذا العنصر التطرق إلى بعض النماذج، التي عالجت تاريخ الدولة الإسلامية عامة وتاريخ بلاد المغرب خاصة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على أساس أنها ، أولت اهتماما كبيرا بإفريقيا عامة وبلاد المغرب خاصة، إضافة أنها استعملت بعض المصادر العربية وهذا ما نلاحظه عند دوقراس (De Grace) مؤلف كتاب *Introduction à l'histoire moderne*[7] الذي اعتمد على كتاب أبي الفداء

---

1 - فاروق عمر فوزي، المرجع السابق، ص137-161

2- Pierre Dan, *Histoire de la Barbarie et de ses corsaires,* Paris, 1646, p. 509

3- *Ibid.*, p. 2.

4- *Ibid.*, p. 2-3.

5- *Ibid.*, p. 6.

6- Emile-Felix Gautier, *Le passé de l'Afrique du Nord les siècles obscurs,* Paris, Payot, 1942, p.440.

7- De Grâce, *Introduction à l'histoire moderne générale et politique de l'univers,* Paris, 1753 t. 8.

والنويري، والذي من خلالهما صور الفتح الإسلامي لبلاد المغرب بالنهب والتخريب للمنطقة الرومانية[1]، والهدف من التوسع نحو الغرب كان لأخذ الغنائم والسبي، وليس بدافع نشر الدين[2] كما صور شخصية عقبة بن نافع في شخصية المتوحش البربري ناشرا للتعاليم المحمدية بالقوة والترهيب، والذي قام بتقتيل كل المسيحيين في طريق توجهه نحو الغرب[3] وما إسلام البربر إلا خوفا من القتل[4].

في نفس الفترة نجد المفكر والمؤرخ فولتير(Voltaire)، يكتب عن تاريخ العرب والأتراك في كتابه *Essai sur les mœurs* ، والذي تطرق فيه لتاريخ الدولة الإسلامية[5]، وتطورها من خلال الفتوحات[6]، والتي كانت في نظره أسرع حتى من توسعات الاسكندر المقدوني[7]، باعتماد القائمين عليها على ا لقوة والترهيب[8]، وأن العالم لم يشهد خطرا كخطر الإسلام بسبب تعصب الجنود المسلمين للقتال.

كما تناول انحطاط وتراجع الحضارة الإسلامية والتي ارجع أسبابها إلى الصراع على الحكم الذي كانت له انعكاسات سلبية على الجانب الاقتصادي والعلمي[9]. أما بلاد المغرب فقد تطرق إلى فتراتها القديمة، ومدى تطور مدنه في ظل الحضارة الرومانية خاصة منطقة نوميديا التي كانت تنافس المدن القديمة، ولكن ازدهارها تلاشى وتراجع بدخول الإسلام، وخاصة في الفترة التركية [10] التي كانت رمز القرصنة والتخلف.

وفي أواخر القرن 18م ألف" شنييه- Chenier " كتاب بعنوان: *Recherche historique sur les Maures et histoire de l'empire du Maroc* الذي تطرق فيه إلى تاريخ بلاد المغرب، حيث كتب عن التركيبة الاجتماعية لبلاد المغرب في الفترة الوسيطة، على أنها خليط من البربر [11] والعرب الفاتحين[12] المغتصبين للأراضي على حساب البربر الذين نزحوا إلى الجبال والصحراء، وما عملية الانصهار بينهم إلا نتيجة التشابه الجسمي والاجتماعي ،كما صور البربر على أنهم شعوب بدائية و لم تكن لهم طموحات قومية أو سياسية، لعدم تبنيهم فكر أمة[13] ؟ فهو بذلك ينفي وجود أي كيان سياسي لهم في الماضي.

1- Ibid., p. 82.
2- Ibid., p. 82.
3- Ibid., p. 85.
4- Ibid., p. 83.

5 - عمارة علاوة، دراسات ، ص 8.

6-François Marie Voltaire, *Œuvre de Voltaire. Essai sur les mœurs*, Paris, Lefebvre, t. 15, p. 318.
7- *Ibid.*, p. 327.
8- *Ibid.*, p. 322
9 - *Ibid.*, p. 437.
10- *Ibid.*, p. 510.
11 - Chenier, *Recherche historique sur les Maures et histoire de l'empire du Maroc*, Paris, 1787, t.1, p.251
12 - *Ibid.*, p. 250.
13- *Ibid.*, p. 1.

أما عملية الفتح أو "الغزو" الإسلامي على حد تعبيره فقد كانت اغتصاب ونهب للمنطقة وأن الحملات العسكرية للمسلمين نجحت لأن المقاومة لم تكن جادة من طرف البيزنطيين، بسبب الثورات والحروب ضد البربر الذين رفضوا السياسة البيزنطية[1]. وكذلك بسبب التحالف العربي البربري ضد الروم، لأن العرب في نظر السكان الأصليين قد جاءوا ليخلصوهم من الاستعباد والقهر الذي عاشوه لفترات طويلة بداية من الرومان وإلى البيزنطيين، فالمسلمون في نظر البربر هم المدافعين عن الحرية الإنسانية[2]. من هذا الباب اعتنق البربر الديانة الإسلامية، لأنها بسيطة وتضمن كرامة الإنسان من خلال القرآن الذي كان تشريعا دينيا ودنيويا [3].

هذا بالإضافة إلى ما قام به بعض الرحالة والجغرافيين من نشر بعض الأعمال التي تناولت بلاد المغرب، والتي اهتمت بجغرافية المنطقة وبماضيها خاصة الفترات القديمة وتحديدا الفترة الرومانية، ومن بين هؤلاء نجد بيسونال (Peysonnel)الذي زار المنطقة بين 1725/1724 ودي فنتان (Desfontaine) بين 1786/1783[4]، حيث زار كل من تونس والجزائر، وما أعمالهم إلا امتدادا لما قام به بعض الرحالة والجغرافيين الأوروبيين أمثال (Shaw)و(Bruce) وهما عالمان بريطانيان.

هذه بعض من النماذج التي حاولت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كتابة تاريخ بلاد المغرب، حتى وإن اختلفت توجهاتهم بين رجل دين ومفكر ورحالة-جغرافي، إلا أنها كانت تحتوي على مادة تاريخية ساعدت فيما بعد على تطور الكتابة التاريخية الأوروبية لبلاد المغرب.

وما يأخذ عن هذه المحاولات أنها كانت بعيدة عن المنهج العلمي، فقد جاءت في شكل روائي قصصي دعائي لتبرير التفوق الأوروبي على شعوب "بدائية" أو "همجية". فهذه المحاولات دلالة على مدى اهتمام الغرب بالحضارة الإسلامية، والدليل على ذلك حملة نابليون على مصر سنة 1798م التي كانت في ظاهرها سياسية عسكرية تعكس طموحات فرنسا خارج القارة، وفي داخلها كانت تتشكل من علماء حيث أوفدت مع الحملة لجنة العلوم والفنون، التي عملت على البحث والتنقيب عن ماضي مصر ودراسة تاريخه وجغرافيته وعاداته وتقاليده، وهذه صورة واضحة على مدى استعمال الدول الاستعمارية الغربية لأدوات العلم من أجل تحقيق طموحاتها، وسوف نرى مع موجة الاستعمار كيف أصبح الاستشراق أداة ناجحة لتحقيق الأهداف الاستعمارية.

1- Ibid., p. *248.*
2- Ibid., p. *264.*
3- Ibid., p. *170-183.*
4 - Peysonnel et Desfontaines, *Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger* , publié par Dureau de la Malle, Paris, 1838.

ب- تعدد أغراض الكتابة في مؤلفات ما قبل الاحتلال

حمل مطلع القرن التاسع عشر همّ واسع للدول الاستعمارية للتهافت على السيطرة على الأراضي خارج أوربا بسبب الازدهار الاقتصادي الذي جاء بعد الثورة الصناعية، نتج عنه بداية ظهور كتابات تعبر عن مدى تطلعات فرنسا خارج القارة الأوروبية في ظل التنافس الاقتصادي، حيث أصبحت تعتمد على بعض المصادر اللاتينية القديمة، وبعض كتب الجغرافيين، وهذا ما نلمسه عند كونيي (Cuny) الذي أصدر كتاب" *Tableau historique* " الذي كان بمثابة المرشد لفرنسا داخل قارة إفريقيا خاصة جزئها الشمالي في ظل التنافس الأوروبي على المستعمرات، إذ استغل كونيي المصادر اللاتينية لكل من هيرودوت وبتوليمي وبروكوب، وحتى كتاب حسن الوزان (ليون الإفريقي). كما أعتمد على شهادات وروايات الرحالة والجغرافيين الأوروبيين والفرنسيين أمثال Shaw وBruce وPeysonnel وDesfontaine ، وقام بغربلة الكتب ومقارنتها فيما بينها خاصة كتب الرحالة والجغرافيين، ومن ثمة أعطى صورة واضحة لحال إفريقيا وخاصة "بلاد البربر"، لخدمة طموحات فرنسا في القارة السوداء، وكان لبلاد المغرب نصيب في دراسته حيث تطرق إلى أصولها السكانية في الفترة الوسيطة والمتكونة من العرب الفاتحين والبربر[1]، وأقلية مسيحية[2]مستقرة في منطقة الأوراس عند الفتح الإسلامي وهم من بقايا الوندال الذين غزوا إفريقيا الشمالية وهذا حسب ما قاله بروكوب المؤرخ البيزنطي (ق6م) الذي أشار إلى وجود جنس أبيض يقطن بمنطقة الأوراس[3]، وهذا ما يؤكده الرحالة البريطان شو (Shaw) الذي زار هذه المنطقة خلال القرن 18م والذي أشار إلى وجود هذا الجنس الأبيض ذو الملامح الأوروبية. ولكن كونيي (Cuny) ذهب إلى أبعد الحدود عندما عالج الحياة الفردية والاجتماعية للبربر الذي نعتهم بأوصاف سلبية و لم تتغير طريقة عيشهم، وأن العلاقات الاجتماعية غير موجودة تقريبا بينهم، فهم بدائيون والسبب يرجع إلى الدين الإسلامي الذي اعتنقوه وهو رمز الجمود والجهل[4]، لأنه يقوم على السيف والقوة على حد زعمه.

وهنا يمكن الإشارة إلى نقطتين وهما أن كونيي قد تأثر كثيرا بالمصادر القديمة التي أعطت صورة سلبية عن البربر على أنهم وحوش ليست لهم طموحات سياسية وأن معيشتهم بدائية كما استنتجه من المصادر القديمة. والنقطة الثانية، أن واقع المنطقة من تخلف وتراجع حضاري سببه الدين الإسلامي الذي لا يبحث عن التغيير أو البحث عن أسباب المعرفة[5] ، فهو دين دموي يقوم على القوة، وطموحاته

---

1 - Cuny , *Tableau historique des découvertes et établissement des Européens dans le Nord et l'ouest de l'Afrique jusqu'au commencement du 19e siècle*, t 1, Paris, Fain, 1803-1804, p. 480.
2 - *Ibid.*, p. 66.
3- *Ibid.*, p. 65.
4 - *Ibid.*, p. 48.
5- *Ibid.*, p. 48.

انحصرت في السبي والنهب والغنيمة ومن هنا كان إسلام البربر شكليا وسطحيا هروبا من دفع الجزيـــة أو الموت [1].وبسبب الدين الإسلامي تراجعت المنطقة حضاريا بعد أن كانت مزدهرة في الماضي.

لكن من أبرز الكتابات التي تناولت العالم الإسلامي كتاب" *Histoire de la décadence et de la chute de l'empire romain*" لـــ إدوارد جيبون (Edward Gibon) الصادر سنة 1828م والذي يعتبر مـــن أهم ما كتب عن تاريخ علاقة العالم الغربي بالعالم الإسلامي بوجه عام والمغرب الإسلامي بصفة خاصة قبيل الاحتلال. حيث عالج وأرجع سقوط الإمبراطورية الرومانية إلى تنامي قوة الحضارة الإسلامية، وكون هذا الكتاب قد عالج الفترة التاريخية الوسيطة فقد تطرق إلى بلاد المغرب بشكل عام في نقاط متعددة أهمها أنه تطرق إلى أصول السكان التي تتركب من عنصرين أساسيين هما العـــرب الفاتحين والبربر، الذين أصـــبحوا يشكلون أمة واحدة بفضل الانصهار[2] وقد أرجع سبب هذا التفاعل بين العرب والبربر إلى أسباب متعددة أهمها التشابه والتقارب الفزيولوجي للبنية الجسمانية، والروابط الاجتماعية التي تتمثل في النظـــام القبلـــي، وطبيعة البيئة والمناخ خاصة المناطق للصحراء[3] . ولكن العامل المهم حسب رأي الكاتب فهو يرجع إلى بناء قاعدة القيروان التي ساعدت في استقرار عدد كبير من الجنود الفاتحين، ما أدى إلى انتقال الأسر المشرقية نحو بلاد المغرب، والمقدر بـــ 500 ألف عائلة[4]عربية في القرن الأول الهجري.-أما الفتح الإسلامي للمنطقة فقد تم عبر مراحل بداية مع عبد الله بن أبي السرح وصولا إلى شخصية موسى بن نصير الذي اخضع المنطقـــة، بعد أن استمال إليه البربر، فأصبحوا قبائل متحالفة، وقد وصفهم بالانتهازيين، لأنهم وجدوا في الحـــروب تحت ولاء المسلمين الفرصة لاكتساب الثروة من خلال الغنائم[5] . وهذه إشارة إلى أن التحالف كان لـــه بعد مادي أكثر منه اجتماعي. ما جعل الكاتب يركز على نقطتين: الأولى التي اعتبرها نقلة نوعية من حيث دراسة الفتح الإسلامي، حيث أشار إلى أن الفتح لبلاد المغرب وإسبانيا من الناحية الغربية كـــان بهـــدف حصار العاصمة القسطنطينية من الجهة الغربية[6]، أما النقطة الأخرى فهو لم يتطرق إلى المقاومة البيزنطيـــة بالرغم من أنه عالج انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية. أما اعتناق البربر للإسلام من منظور الكاتـــب فقد كان سطحيا و لم يرق إلى المستوى الروحي، بسبب أن البربر اعتنقوه بداعي القرابة الاجتماعيـــة مـــع العرب المسلمين من حيث التشابه الجسمي والقبلي[7].أما انحطاط المنطقة فقد ربطه إلى تـــراكم عوامـــل تاريخية بداية من ثورات الدوناتيين في القرن 4م، مرورا بالفترة الوندالية، التي حملها مسؤولية الأكبر، ثم تأتي فترة الفتوحات الإسلامية وما ترتب عنها من تدمير المنطقة على يد الكاهنة التي أمرت بتخريب المنطقة، ظنا

---

1 - Ibid., p. *51.*
2- Edward.Gibbon , *Histoire de la décadence et de la chute de l'empire romain* , Paris, 1828 , t. 2, p. 560.
3 -Ibid, p. 295
4- Ibid, p. 296.
5- Ibid, p. 287.
6 - Ibid, p. 317.
7 - Ibid., p. *296.*

منها بأن العرب جاءوا للاستيلاء على خيرات المنطقة، ولكنها بهذا العمل قد عملت على تخريبها والقضاء على ازدهارها ، ما أدى إلى انهزامها بعد تراجع القبائل البربرية المتطوعة في جيشها.

2- العسكريون وتطور الكتابة في المرحلة الأولى لاحتلال الجزائر

في الحقيقة أن الاستشراق الفرنسي كان قد شهد في الربع الأول من القرن 19م تطورا كبيرا من خلال إنشاء المجلة الأسيوية سنة 1822م التي تعد الانطلاقة الكبرى للاستشراق[1]، من خلال اهتمام هذه المجلة بالحضارة الإسلامية، حيث ركزت اهتمامها على الأدب والتاريخ والجغرافيا واللغة العربية.

ومباشرة بعد احتلال الجزائر شرعت مجموعة من الفرنسيين الهواة في كتابة تاريخ الجزائر عبر مراحله التاريخية، وفي الواقع أن فرنسا كانت تجهل تقريبا المنطقة، ولكن سرعان ما اهتمت بماضيها. معتمدة على ما كتب من قبل وبدأت توجه وتركز اهتمامها بالماضي الروماني من خلال تقارير وكتابات الجغرافيين والرحالة الذين زاروا المنطقة خلال القرن الثامن عشر أمثال Shaw وBruce وPeysonnel وDesfontaine . وبما أن فرنسا قد شهدت تحولات سياسية واقتصادية هامة، فقد جاء الاستشراق ليعبر عن مدى تفوق الحضارة الغربية وفق النظرة المتميزة بالنزعة المستعلية نتيجة الازدهار الاقتصادي[2]. إن عملية الاحتلال فتحت فضاء ومجال جديد" للحضارة" الفرنسية من أجل أن تتوسع العلوم خاصة بعد إنشاء اللجان العلمية (Les comités scientifiques)[3].

من هذا المنطلق بدأت المحاولات الأولى لكتابة تاريخ المغرب الأوسط من خلال تاريخ بلاد المغرب عامة، لأنه من الصعب دراسة تاريخ الجزائر الوسيط منفصلا، لأن الأحداث مترابطة جغرافيا وتاريخيا مع بعضها[4]. كانت هذه الكتابات الأولى في شكل مذكرات شخصية وتقارير رسمية وروايات شفوية سجلها القادة العسكريون والحكام، قصد التعرف على واقع الجزائر من خلال المشاهدة والملاحظة أثناء الحملات العسكرية[5]، إلا أنها لم تخل من القيمة التاريخية.

من خلال هذه المحاولات الأولى للكتابة الفرنسية لتاريخ الجزائر الوسيط، يمكن رصد كتابات متفاوتة من حيث الطرح والمعالجة لأهم المراحل التاريخية، وهي بدورها تنقسم إلى ثلاثة اتجاهات.

---

1 - أحمد سمايلوفيتش ، فلسفة الاستشراق، القاهرة، دار الفكر العربي، 1998ص 81.

2 - علاوة عمارة، دراسات، ص 35.

3- S. Furnari, *Voyage médical dans l'Afrique septentrionale de l'ophtalmologie, Paris, 1845, p. 1-17*

4- Rozet Carette, *.Algérie*, Paris, 1846. p. 368.

5 - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، ص 10

أ–المعرفة التاريخية الوصفية في كتابات الرحالة

وهي الأكثر تأليفا لدى الفرنسيين مباشرة بعد الاحتلال، وقد جاءت هذه الكتابات موجزة لتاريخ المغرب الأوسط عبر مراحله التاريخية مركزة على الماضي الروماني والمسيحي للمنطقة ، وهي كتابات وصفية وطرحها عام على العموم، وهذا ما نلمسه من خلال بعض المؤلفات مثل كتاب *Voyage à Alger, Description de cette ville et de ses environs* [1] لمؤلف مجهول الذي كتب عن تاريخ الجزائر عبر العصور مركزا على الماضي المسيحي والروماني للمنطقة وعن الفتوحات الإسلامية التي كانت السبب في اندثار الديانة المسيحية كما أشار إلى الأصول السكانية لبلاد المغرب حيث ركز على البربر السكان الأصليين وأوطانهم في المناطق الجبلية الوعرة[2] وهم يختلفون عن الأجناس الأخرى في عاداتهم القبلية ودينهم الذي وصفه بالبساطة [3]، أما المور (Les Maures) فقد أشار إلى هجراتهم من بلاد الأندلس نحو بلاد المغرب قبل تراجع الحضارة الإسلامية في الأندلس، ، حيث قاموا بالنهب والاستيلاء على خيرات وأراضي البربر الذين نزحوا إلى الجبال[4]، كما وصف سكان الجزائر بالغير متحضرين [5].

تواصل هذا النوع من الكتابة من خلال مؤلفات كل من لويس بولار (Louis Beaulard)[6] وجون بول (J. A. Bolle)[7] اللذان قاما بزيارة الجزائر سنوات قليلة بعد الاحتلال، إلا أن كتاباتهما كانت وصفية وعامة، حيث تناولا تاريخ الجزائر بشكل موجز، بالتطرق إلى الديانة السائدة وهي الإسلام، كما حاولا التعريف بالبنية الاجتماعية للمنطقة على أنها خليط بين البربر والعرب. فهذه الكتابات ركزت تقريبا على الفترة المتأخرة لتاريخ الجزائر في العهد العثماني، أما الفترة الوسيطة فقد جاءت في شكل إشارات عامة تحدثت عن الفتح الإسلامي للمنطقة في القرن السابع الميلادي، وكيفية انتشار هذا الدين عن طريق القوة، وهذا ما ميز المحاولات الأولى التي اعتمدت على الروايات الشفوية للأهالي.

وأهم ما يمكن استخلاصه من هذا النوع من الكتابات أنها كانت تمثل في الواقع تاريخ موجز ومختصر للجزائر، ولكن بالتركيز على الماضي الروماني، وهذا ما نلمسه عند دوفانتن دورسبك Desfontain de Resbecq الذي حاول التعريف بالحضارات التي تعاقبت على المنطقة مركزا على الحضارة الرومانية التي يعتبرها من أخصب الفترات التاريخية[8]. فمن هنا بدأ الاهتمام بالفترة الرومانية[9]، وما تحمله من ازدهار

1- *Voyage à Alger, description de cette ville et de ses environs,* Paris, 1830, p.12.
2- *Ibid.,* p. *95.*
3- *Ibid.,* p. *75* .
4 - *Ibid.,* p. *80.*
5- *Ibid.,* p. 73-115.
6 Louis Beaulard, *Un voyage en Afrique, ou description d'Alger,* Paris, 1837, p. 61.
7- J.A. Bolle, *Souvenir de l'Algérie ou relation d'un voyage en Afrique pendant 1838,* Paris, 1839, p. 110.

8- Fontain de Resbecq, *Alger et les cotes d'Afrique,* Paris 1837, p. 75-76.
9- *Ibid.,* p. *77.*

اقتصادي شمل المدن النوميدية حيث أن عددها وصل إلى 400 مدينة أو ضيعة رومانية[1] في القرن الرابع الميلادي، فهذا الاستقرار والازدهار واكبه تطور ديني، من خلال انتشار الديانة المسيحية بفضل الأساقفة الذين وصل عددهم إلى 300 أسقف، وبذلك أصبح المجتمع المسيحي في نمو متزايد ومستمر[2].

أما الفترة الوندالية فهي تمثل بداية تراجع وانحطاط المنطقة، عن طريق التخريب للمدن وبربرية التقتيل[3]، أما الحدث الهام الذي حول وجه المنطقة خلال القرن السابع الميلادي هو دخول "جحافل الإسلام المتعصب"، التي حطت رحالها بالمنطقة دون أية مقاومة جادة تذكر، ما أدى بنزوح عدد كبير من المسيحيين والفرار نحو صقلية وإيطاليا، أما البربر فقد هربوا وفروا نحو المناطق الجبلية الصعبة، ومع مرور الوقت اعتنقوا الدين الإسلامي وانصهروا مع "الغزاة الجدد"[4].

صورة بربرية المنطقة بدأت تتشكل في الكتابات التاريخية الفرنسية، بالتركيز على الدين الإسلامي الذي كان يصور على أنه العائق الوحيد الذي يقف في وجه تطور الحضارة[5]، هذه النظرة المعادية للدين الإسلامي جاءت لتفسير واقع المنطقة منذ دخول واستقرار العرب المسلمين لأنهم في نظر هؤلاء ليست لديهم طموحات حضارية ومشاريع سياسية، كباقي شعوب الحضارات التي تعاقبت على المنطقة، بل طموحاتهم انحصرت في التوسع العسكري والاستيلاء على الغنائم والنهب والسرقة[6].

أما البنية أو الأصول السكانية للمغرب الأوسط في الفترة الوسيطة فهي تتكون في أغلب محاولات هؤلاء الهواة من البربر السكان الأصليين والعرب الفاتحين الذين جاؤوا من جزيرة العرب[7]، وبفعل المصاهرة والدين فقد أصبحوا يشكلون مجتمع واحد ينقسم إلى قبائل تحت راية الشيوخ[8]، أما العادات والتقاليد فقد بقيت بدائية متوحشة ذات طابع بربري[9] وأن الإنسان البربري لم يتغير [10].

خلال هذه الفترة بدأ التركيز على ظاهرة اجتماعية سمحت للمدرسة التاريخية الفرنسية وسلطة الاحتلال الاهتمام بما تمثلت في دور ومكانة المرأة عند القبائل البربرية والعرب، حيث بدأت تتضح ملامح التفرقة العنصرية من خلال دراسة دورها الإيجابي عند البربر داخل المجتمع ومدى تمتعها بحرية كبيرة، عكس المرأة العربية التي لا تتمتع بحرية كافية[11].

هذه الكتابات كانت تروج لتطور وازدهار المنطقة في ظل الوجود الروماني عكس الفترة الإسلامية التي تمتاز بالعنف والتراجع، كل هذا من أجل تبرير توجهات الكتابات التاريخية الفرنسية، التي سوف تغطي وتهتم

1- Ibid, p. 76.
2- Ibid., p. *87.*
3- Ibid., p. *92-93.*
4-Ibid, p. 95.
5 - Michel Dopigez, *Souvenir de l'Algérie*, Douai, 1840, p, 305.
6- S. Furnari, *Voyage médical dans l'Afrique septentrionale*, Paris, 1845, p. 1-17.
7- Dopigez, op. cit., p .248.
8- Ibid, p. 249.
9-Furnari, *op. cit.*, p. 5.
10-Ibid, p. 246.
11 - Ibid., p. 11. Dopigez, *op. cit.*, p. 304.

بالفترة الرومانية وما مدى نجاح هذه الحضارة في تحضير إنسان المغرب الأوسط، لدور فعال من خلال استقراره وانشغاله بميدان الزراعة والصناعة.

هذا ما نلمسه كذلك في كتاب كيتان (Quétin) الصادر سنة 1848م *Guide de voyage en Algérie* الذي ركز في كتابه على الماضي الروماني للمنطقة ومدى ازدهارها حيث كانت سيرتا على مستوى عالي من التحضر والتمدن، وبها كثافة سكانية كبيرة[1]، وهذا ما ينطبق على منطقة نوميديا التي شهدت تطورا عمرانيا كبيرا حيث انتشرت المدن والقرى والضياع حتى وصل عددها حوالي400 قرية وضيعة[2]. لكن اندثار وزوال هذا التطور العمراني أرجعه إلى الغزو الوندالي ثم "الغزو العربي" خلال القرن السابع الميلادي بفضل قوة الجيوش الإسلامية، التي هدمت وقضت على جميع الحواضر الرومانية[3].

وما يمكن الوقوف عنده من خلال هذا الكتاب أنه تطرق إلى مدى التباعد الاجتماعي بين البربر والعرب حيث أشار إلى أن البربر المستقرين يعملون في الحقول الزراعية ولهم صناعات مختلفة، وهذه إشارة إلى مدى تأثير الحضارة الرومانية في العنصر البربري في الماضي[4]، أما العرب فهم يعتمدون على الرعي والتنقل واللصوصية. ثم تطرق إلى مصير فرنسا بالجزائر فهو مرهون بمدى تطبيق سياسة إيجابية مع البربر عن طريق استمالتهم اجتماعيا وتطبيق سياسة السماحة واللين معهم وهذا يكون بالمحافظة على عاداتهم وتقاليدهم، ومحاولة فهم هؤلاء البربر[5]،من أجل مصلحة فرنسا في المنطقة.

الحاصل أن كتابات هؤلاء الرحالة الفرنسيين جاءت تقريبا لإعطاء صورة عامة وموجزة لتاريخ الجزائر عبر العصور، بالتركيز على الفترة الرومانية التي كانت في نظرهم من أهم المحطات التاريخية كونها أعطت دفع إيجابي لمسيرة المنطقة من خلال ازدهار وتطور العمران وانتشار المزارع وهذا دليل على استقرارها في العهد الروماني. هذا بالإضافة إلى ظهور بعض الإشارات الاجتماعية التي تخص المرأة ومكانتها داخل المجتمع الجزائري، بقصد التفرقة بين البربر والعرب من حيث نمط المعيشة، لتسهيل سلطة الاحتلال من تسيير شؤون الأهالي، إلا أن هذه المحاولات الأولى في الواقع كانت تحمل بعض الإشارات التاريخية لكنها لم تكن متخصصة ودقيقة.

ب- تقارير البعثات العلمية

إن الاحتلال الفرنسي للجزائر لم يكن الهدف من وراءه إلا العنف، بل كان فضاء ومجالا جديدا لفرض التبعية على سكان الجزائر بالتنقيب و البحث في التاريخ عن مبررات يبرر بها تواجده بعد غزوه للبلاد، حيث أن هذه العملية قد فتحت نافذة جديدة للحضارة الغربية وفتح آفاق لنشر الثقافة الفرنسية[6].

1-Emile Quétin, *Guide de voyage en Algérie*, Paris, 1848, p. 98.
2- *Ibid.*, p. 99.
3- *Ibid.*, p.. 99.
4- *Ibid.*, p 112.
5- *Ibid.*, p. 113.
6- S. Furnari, *op. cit*, p. 3-5.

و بناء على هـــذا جاء البحث العلمي في الجزائر مباشرة بعد الاحتلال عن طريق تنصيب اللجان العلميـــة (Les comités scientifiques)[1]، فقد قامت السلطات الفرنسية بالجزائر بإعطاء الأوامر لهذه الفرق بالبحث والتنقيب على جميع المستويات، فقد كانت تتكون من مجموعات كـــبيرة مـــن الأثـــريين والمـــؤرخين، والجغرافيين، واللغويين، والأنثروبولوجيين وحتى علماء الجيولوجيا والنبات، فالهدف كان جمع كم هائل من المعلومات عن الجزائر، التي تخص جزء من ماضي المغرب الأوسط[2]. فقد أشار بوري دوســـان فنـــسان (Bory de Saint-Vincent) في ملاحظته حول اللجنة العلمية سنة 1838م أنه يجب إرسال علماء متخصصين ذوي مهارات كبيرة في استعمال اللغة العربية لأنها أداة مهمة للبحث عن تاريخ بلاد البربر[3]، لأنه حسب رأيه الذين كتبوا واهتموا بتاريخ الجزائر يجهلون اللغة العربية وليسوا على علم كاف لكي يعطـــوا صـــورة واضحة للماضي، لأنهم كتبوا بطريقة عامة في شكل روايات وقصص[4].

كما شجعت الإدارة الفرنسية ذوي الميول التاريخية والأثريين للاهتمام بالماضي من خلال البحـــث عن المخلفات والآثار الرومانية وغيرها[5]، من أجل توضيح صورة الجزائر عبر الحقب التاريخية، كما أشار إلى أهمية دراسة المناخ والسطح ومدى تأثيرهما في تطور الإنتاج، وكيفية تأثيرهما على الإنسان[6]، وهـــل هناك ارتباط بين الاستعمار المتعاقب على هذه المنطقة مع طبيعة الأرض. لكن أهم الملاحظات التي قـــدمها وأشار إليها هي ضرورة إرسال فرق متخصصة في علم اللغة (la philologie) ضمن البعثات العلمية مـــن أجل البحث والتنقيب عن الكتب والمخطوطات وحتى العناوين من أجل وضع خطوط رئيسية أو رســـم ماضي الجزائر العريق[7].

أما كرات ووارنيي (Carette-Warnier) فقد قاما بنشر تقرير للبعثة العلمية وكان يخص وصـــف وتقسيم الجزائر *Description et division de l'Algérie* في الفترة المتأخرة (العثمانية) في محاولة منهم لفهـــم المنطقة، فالدراسة جاءت عامة مست المناطق الجغرافية والطبيعية والسياسية والإدارية للجزائر من خـــلال المقاطعات الثلاثة[8]

هذا ما اعتمدت عليه فرنسا في الجزائر، حيث جعلت من قسنطينة، والجزائر ووهران عواصـــم لمقاطعاتهـــا الإدارية فيما بعد. ثم ركزوا دراستهم الخاصة على القبائل من حيث مساهمتها في التسيير الإداري والسياسي للجزائر، حيث قسمت القبائل البربرية والعربية في الجزائر إلى ثلاثة مجموعات: قبائل إماراتيـــة، فدراليـــة،

1- *Ibid.*, p. 4.
2-Bory de Saint-Vincent, *Note sur la commission exploratrice et scientifique de l'Algérie*, Paris, Conssom, 1838, p. 1.
3- *Ibid.*, p.5.
4- *Ibid.*, p., p. 5.
5- *Ibid.*, p. 10.
6- *Ibid.*, p. 10.
7- *Ibid.*, p. 11.
8- Carette- Warnier, *Description et division de l'Algérie*, Alger, Hachette, 1847, p. 12.

إدارية[1] . كما توجد قبائل تنتمي إلى أسر سلطوية ذات امتيازات، ومن خلالها تتحد وتلتف من حولها القبائل الأخرى، سبب ثقلها وتأثيرها الديني والاقتصادي.[2] كما أشار وارنيي وكرات إلى وجود قبائل اتحادية حسب تعبيره، أي أنها قبائل متحدة في أسرة واحدة وموحدة وقد تعطي شكل أمة صغيرة وتتمتع ببعض المزايا السياسية كالتسيير لبعض المناطق، خاصة في مناطق القبائل الصغرى والكبرى.[3] أما القبائل الدينية المرتبطة بالزوايا، فقد أشار إلى وجودها وتمركزها خاصة في المنطقة الغربية[4] وما لها من نفوذ على القبائل، من خلال الشخصيات الدينية والزوايا، أما المنطقة الشرقية فلا توجد بها القبائل الدينية بل تنتشر فيها القبائل المرموقة (Les familles nobles).

فهذه المحاولة أو الدراسة جاءت من أجل تحديد وفهم صيرورة النظام القبلي الذي كانت عليه الجزائر، حيث أنها منطقة تفتقر حسب رأيه لعنصر الأمة، بل في شكل قالب قبلي محض ولا بد من معرفة تكوين هذه القبائل ومدى تأثيرها داخل هذا المجتمع ومن ثمة محاولة فهم تركيبة المجتمع لتسهل السيطرة على الوضع في الجزائر، وكيفية تسيير شؤون البلاد والعباد.

في سنة 1849 صدرت دراسة تخص منطقة القبائل لـــ كرات (Carette) الذي يعد من أهم الأعضاء في البعثات العلمية التي أرسلتها فرنسا إلى مختلف المناطق، حيث أشار إلى أن الهدف من هذه الدراسة قد تمحور في ثلاثة اتجاهات رئيسية وهي معرفة السطح ثم مظاهر العمل والمبادلات التجارية ثم الأوضاع السياسية لمنطقة القبائل والعلاقات الاجتماعية فيما بينها[5]. ويعتبر هذا العمل من أهم الأعمال التي ساعدت فيما بعد الكتابة التاريخية الفرنسية، لأنه قام بعملية مسح للمنطقة حيث أشار إلى اللغة البربرية القديمة التي اندثرت، ثم تطرق إلى تكوين القبيلة وكيفية تعيين قائدها عن طريق الانتخاب الذي لا يقصي أحدا من السكان[6]، ثم التنظيم القبلي الفريد من نوعه حسب رأيه، الذي يتسم بالديمقراطية، وأن المجتمع البربري مقسم إلى ثلاثة مستويات، أرستقراطي وديني وديمقراطي[7]. وهذا ما يدل على مدى تحضر هذا الشعب عن باقي الأجناس الأخرى كالعرب.

كما شملت دراسته الدافع الاقتصادي، حيث أشار إلى أنه يتوجب على فرنسا أن تبسط نفوذها على المنطقة الصحراوية لأنها ذات طابع تجاري[8] محض وهذا من خلال التبادلات التجارية مع المناطق الجنوبية المجاورة عن طريق القبائل البربرية والعربية التي تقطن الصحراء. ومن مصلحة فرنسا في الجزائر يتوجب عليها الاهتمام بمنطقة القبائل، لانتشار الحرف الصناعية بها[9]، ولطبيعة البربري الاجتماعية، لأن حسب رأي

1- *Ibid.*, p.17.
2- *Ibid.*, p. 18.
3- *Ibid.*, p. 19.
4- *Ibid.*, p. 35.
5- E. Carette, *Exploration scientifique de l'Algérie. Etudes sur la Kabylie proprement dite*, Paris, 1849, p. 6.
6- *Ibid.*, p. 15.
7- *Ibid.*, p. p. 14.
8 -*Ibid.*, p. *11*
9- *Ibid.*, p.*12*.

كرات البربر يختلفون عن العرب في عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية والسياسية، وهذا من خلال التنظيم القبلي الذي يعتمد على مظهر الانتخاب، هذا الأخير منعدم وغير معروف لدى العرب، بالإضافة إلى ما تحمله هذه المنطقة من ثروات وورشات للصناعة فهذا دليل على أنه عنصر فعال اجتماعيا[1] .

3- التاريخ كأداة لفهم التركيبة الاجتماعية في مؤلفات أواخر النصف الأول من القرن 19م

لقد حاولت المدرسة التاريخية الفرنسة في النصف الأول من القرن التاسع عشر وضع أسس لكتابة تاريخ الجزائر أو المغرب الأوسط عبر حقبه التاريخية، إلا أنها في الحقيقة لم تكن دراسات جادة متخصصة، بل جاءت في الغالب دراسات عامة، وهذا راجع ربما إلى شخصية الكتاب الأوائل، الذين كانوا ينتمون إلى المؤسسة العسكرية، الذين حاولوا كتابة تاريخ الجزائر دون المعرفة أو البحث عن مصادر التاريخ الخاصة بالفترة الإسلامية، فالبدايات الأولى كانت محاولة منهم لمعرفة ماضي الجزائر من خلال الكتب الجغرافية الأوروبية أو المصادر القديمة الإغريقية والرومانية ، بالإضافة إلى الروايات الشفوية للجزائريين، بحكم الاحتكاك العسكري أو عن طريق المكاتب العربية. فالمساهمة الأولى للطبقة العسكرية كان بتحفيز من وزارة الحربية الفرنسية في الجزائر من أجل معرفة الماضي الإسلامي للمنطقة، الذي كان مجهولا بالنسبة لفرنسا.

من هنا بدأت الكتابة التي امتازت بالميول للماضي الروماني وتمجيده وبالأحكام السلبية على انتشار وتوغل الدين الإسلامي في الجزائر. وهذا ما يمكن ملاحظته في "الحوليات الجزائرية" *Les annales algériennes* للضابط الفرنسي بليسيي (Pellissier) وقائد أحد المكاتب العربية، الذي نشر جزأه الأول من الحوليات سنة 1836 والذي تطرق من خلاله إلى الأصول السكانية للمنطقة على أنها مزيج بين السكان البربر الأصليين، والعرب[2] الذين توافدوا على المنطقة منذ القرن السابع الميلادي بعد الفتح[3]، أما المناطق التي يستقر فيها البربر فكانت المناطق الجبلية الوعرة بسبب الفتح الذي كان في صالح العرب النازحين من الشرق على حساب البربر بالاستيلاء على المناطق الخصبة بالقوة ما جعل البربر يفرون نحو الجبال، وفي نظره أن العرب قد اغتصبوا الأراضي[4] . وبمرور السنين تمت عملية المصاهرة بين العرب والبربر بسبب استقرار الفاتحين بهذه المنطقة بعد أن أصبحوا عنصرا بشريا فعالا داخل المنطقة. أما الفتح الإسلامي للمنطقة، فإن بليسيي (Pellissier) لم يقدم إلا إشارات عامة من خلال التطرق إلى أنه كان بين المد والجزر بسبب سوء الأوضاع السياسية في المشرق كالخلاف بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وثورات الخوارج[5]، ثم تطرق مباشرة إلى حملة موسى بن نصير الذي أرجع له الفضل في قهر البربر واستقرار الأوضاع في

---

1 - Ibid., p. *16.*
2-E. Pellissier, *Les annales algériennes,* Marseille, 1836, t 1, p. 291.
3- Ibid., p. *294.*
4 - Ibid., p. *294-295.*
5 - Ibid., p. *268.*

المنطقة عن طريق سياسة اللين ومحاولة استمالة البربر على أنهم أخوة مع العرب[1]، وبفضل هذه السياسة استطاع موسى كسب البربر. أما إسلام البربر فقد أرجعه بليسيي إلى سببين رئيسين الأول تمثل في انتشار المذهب الأريوسي الذي يتقاطع ويتقارب في نظر المسيحيين مع الدين الإسلامي في (وحدانية الله) وأن عيسى بن مريم عليه السلام له طبيعة بشرية[2]، والسبب الثاني الخوف من الغزاة ما أدى بالبربر إلى اعتناق الدين الإسلامي سطحيا وظاهريا لكي يكونوا بعيدين عن أنظار الفاتحين حتى لا يتم قتلهم أو دفع الجزية.

لكن بعد بليسيي ظهرت مجموعة من الفرنسيين أرادت أن توضح معالم المنطقة التاريخية بتسليط الضوء أكثر على الفترة الإسلامية، دون إهمال الفترة الرومانية، فقد أشار كريستيان Christian في كتابه إفريقيا الفرنسية *L'Afrique française* إلى انتشار المدن الرومانية في منطقة بلاد المغرب[3]، وما مدى ازدهارها بفضل خصوبة الأراضي البربرية[4].

أما الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي فقد شبهه بالسيل الجارف الذي قام بكنس وتنظيف المنطقة [5]، الذي بدأ من مصر ثم توجه نحو الغرب عن طريق حملة عبد الله بن أبي سرح الذي وصل بجيوشه حتى حدود نوميديا القديمة[6]. ثم تطرق إلى حملات عقبة بن نافع مركزا على الحملة الثانية التي وصل فيها حتى البحر المحيط، مرورا بأراضي المغرب الأوسط وهولا يملك سوى أربعين ألف جندي[7]، هذه الحروب والحملات لدليل على المقاومة واستمراريتها التي كلفت الجيوش العربية كثيرا، ولم يتمكن العرب الفاتحين من الاستقرار إلا بعد بناء قاعدة القيروان التي أعطت دفعا جديدا وإيجابيا للجيوش العربية الفاتحة [8]، التي استحوذت على خيرات وثمار الحضارة الرومانية في المنطقة [9]، بالقضاء على ثورات البربر[10]، والديانة المسيحية[11]، وبهذه دخلت المنطقة في الثورات والفوضى بين القبائل البربرية والولاة وحتى بين الدويلات المتناحرة فيما بينها، وهذه هي ميزة المنطقة خلال الفترة الوسيطة التي تزيد عن عشرة قرون. [12]. أما إسلام البربر فقد كان شكليا وسطحيا ولم يكونوا مسلمين عن قناعة[13]، ولكن ما يأخذ عن بليسيي ذلك التناقض الذي وقع فيه من خلال تقديم المقاومة البربرية ، في حين أنه لمح أن العرب قد جاؤوا إلى المنطقة بطلب من البربر الذين كانوا يعانون من سياسة البيزنطيين القاسية التي جعلت منهم عبيدا في الحقول، وأثقلت كاهلهم بالضرائب.

1- Ibid., p. *269.*
2 -Pellissier Christian ,*L'Afrique française, l'empire du Maroc et les déserts du Sahara* , 1846, p.53.
3- Ibid., p. *56.*
4 -Ibid., p.*56.*
5- Ibid., p.*56.*
6- Ibid., p. *56*
7 -Ibid., p. *56*
8 - Ibid., p.*56.*
9 - Ibid., p. *57.*
10 - Ibid., p. *56.*
11 - Ibid., p. *56.*
12- Ibid., p. *58 – 59*
13- Ibid., p. *63.*

ثم يأتي باسكال ديبار (Pascal Dupart) الذي أشار في مقدمة كتابه إلى النقص الكبير في الدراسات التي تخص المنطقة لاسيما أنها كانت الأقل زيارة من طرف الرحالة، وأن الفضل في بداية توضيح صورة المنطقة يرجع إلى الكتب الجغرافية العربية ،كالمصادر الجغرافية الوصفية للإدريسي وأبو الفداء التي مكنت أوروبا وفرنسا على وجه التحديد من التعرف على ماضي المنطقة، ولولاها لتأخرت الدراسات[1]، وحتى ديبار حاول كتابة تاريخ الجزائر الوسيط ولكن بطريقة موجزة. فالفترة الوسطية تبدأ عن طريق الفتح الإسلامي للمنطقة في القرن السابع الميلادي بالرغم من معارضة وخوف الخلفاء[2]ولكن الأوامر أعطيت من أجل التحرك غرب مصر، فالحملات الأولى بداية من عبد الله بن سعد كانت من أجل تعويد العرب والمسلمين على الحرب والغزو[3]بهدف ترهيب وتخويف البيزنطيين والاستيلاء على ممتلكاتهم عن طريق النهب والتخريب لشرق إفريقيا الساحلية، لأن المجموعات البيزنطية قد تدافع من جهة البحر، ثم ركز ديبار على حملة عقبة والذي يعتبره من أبرز وأهم قادة الجيوش الإسلامية التي توجهت نحو بلاد المغرب خاصة بعد بناء قاعدة القيروان[4] التي ساعدت في انتشار الإسلام[5]بسبب قرب الجيوش الإسلامية من البربر بعدما كانت تتراجع نحو مصر، وكذلك نجاحه في الوصول إلى البحر المحيط بعد أن خاض معارك ضارية نتج عنها استقرار الوضع للعرب. وحتى بعد مجيء موسى بن نصير أصبحت الجيوش الإسلامية تسيطر على المناطق الساحلية وحتى الداخلية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وهذا ما يفسر بقاء المسلمين، وتلاشي واضمحلال الحضارات الأخرى (الرومان والبيزنطيين) لأنهم في نظره تمركزوا في المناطق الساحلية في أقصى الشرق فقط[6]. وبفعل عنف وقوة الفتح طرد البربر نحو الجبال وبذلك تقاسموا المنطقة مع الفاتحين عن طريق الحكم خلال الفترة الوسيطة من خلال الدول البربرية التي ظهرت كالدولة الحمادية والزيانية وهذا ما لم تقم به الحضارات الأخرى كالرومان والبيزنطيين، حيث استولوا على المنطقة لأنفسهم واستعبدوا البربر[7].

أما مع روزي–كرات Rozet-Carette بدأت تظهر كتابات تهتم بالفترة الوسيطة بالرغم من الصعوبات التي تواجه دراسة تاريخ الجزائر في الفترة الإسلامية بعيدا عن شمال إفريقيا، لأن الأحداث التاريخية مترابطة مع بعضها البعض[8] وهذا ما نلمسه في كتابهم *L'Algérie* حيث حاولا رسم خيوط الفتح الإسلامي للمنطقة وفق المنظور الفرنسي بالإضافة إلى معالجة الهجرة الهلالية وانحطاط المنطقة ولو بالشيء القليل، فالفتح

1- Pascal Dupart, *Essais historiques sur les races anciennes et modernes de l'Afrique septentrionale : leurs origines*, Paris, 1845, p. 5-6.
2- *Ibid.*, p. 201.
3- *Ibid.*, p. 201.
4- *Ibid.*, p. 201.
5- *Ibid.*, p. 204.
6- *Ibid.*, p. 204.
7- *Ibid.*, p. 295.
8-Rozet –Carette, *L'Algérie*, 1846, p. 368.

الإسلامي للمنطقة من منظور كرات وروزي يرجع إلى ضعف وتناثر العنصر البربري، الذي حسب رأيه لم يكن لهم إحساس وطني وقومي، ما ساعد العرب على غزو المنطقة[1].

بالإضافة إلى أوضاع منطقة البربر التي كانت تتميز بالفوضى واللا استقرار بسبب السياسة البيزنطية الغير عادلة اجتماعيا وإداريا واقتصاديا، ما أدى إلى اندلاع الثورات في مختلف أرجاء مقاطعة إفريقية البيزنطية، ترتب عنه استنزاف قوى الجيش البيزنطي الذي لم يستطع الصمود[2]، ومقاومة الجيوش الإسلامية الفاتحة. وأمام طموحات العرب المسلمين السياسية التوسعية، والمتشبعة بالفكر الديني، والهادفة للاستيلاء على الغنائم والنهب، فلا يمكن لهذه المنطقة أن تصمد أو تقاوم[3]، ويشير إلى أن بدايات الفتح كانت مع مجيء وفد من البربر إلى مصر ولقائهم مع عمرو بن العاص، حيث أمدوه بمعلومات هامة حول أوضاع المنطقة، تخص القبائل وتقسيمهم والصراعات القبلية فيما بينهم بالإضافة إلى أوضاع البيزنطيين. [4].

ومن خلال دراستهم لعملية الفتح يمكن استنتاج نقطتين أساسيتين، الأولى تتمثل في المحاولات الأولى التي كانت عن طريق عبد الله بن سعد ومعاوية بن حديج اللتين ركزتا جهودهما على "النهب والاستيلاء على الغنائم"[5]، بالإضافة إلى محاولة تخويف وإرباك الجيوش البيزنطية، فلم تكن نوايا العرب الفاتحين الاستقرار بالرغم من اتساع الرقعة الجغرافية التي سيطروا عليها خلال حملة معاوية بن حديج الذي وصل حتى منطقة سوسة[6]. أما النقطة الثانية والتي تعتبر نقطة تحول في سير الفتح الإسلامي للمنطقة البربرية، تمثلت في سياسة الاستقرار التي انتهجها عقبة بن نافع عن طريق بناء قاعدة القيروان، من أجل مراقبة البربر الذين كانوا يرتدون[7]، بالإضافة إلى جعلها قاعدة للجيوش الفاتحة من أجل الإعداد واستراحتهم، ومنها تنطلق نحو المناطق المجاورة والتوغل نحو الغرب[8].

أما مقاومة المنطقة للفتح الإسلامي فلم يتطرق إليها بالتفصيل، ما عدا بعض الإشارات، وربما يرجع السبب إلى أنه لم تكن هناك مقاومة جادة ومنظمة ضد الجيوش الإسلامية، بالإضافة إلى التنافر الذي كان بين البربر والبيزنطيين بسبب سياستهم "التعسفية" [9]، ولكنه اكتفى بذكر ثورة كسيلة ضد عقبة بالقرب من تمودة، الذي أرجع الفضل في نجاحها للعامل البيزنطي الذي كان يسير منطقة الساحل، والذي تحالف مع البربر عن طريق تقديم الإمدادات العسكرية لكسيلة، مما أدى إلى مصرع قائد الجيوش الإسلامية عقبة[1].

1- *Ibid.*, p. 369.
2- *Ibid.*, p. 370.
3- *Ibid.*, p. 370.
4- *Ibid.*, p. 371
5- *Ibid.*, p. 371-372
6 - *Ibid.*, p. 372-373.
7- *Ibid.*, p. 373.
8 - *Ibid.*, p. 374-375.
9- *Ibid.*, p. 369

عقبة[1]. ثم تأتي مقاومة الكاهنة التي جاءت بعد مقتل القائد البربري كسيلة والتي استطاعت أن توحد وتستميل البربر إلى جانبها للوقوف في وجه الجيوش الإسلامية. وبالفعل استطاعت أن تهزم حسان وتجبره على التراجع نحو الشرق، بعد معركة طاحنة، نتج عنها قتل وأسر عدد من القادة والجنود الفاتحين. لكن حسان وبعد أن وصلته الإمدادات العسكرية تحرك نحو الكاهنة للقضاء عليها، وهنا نقطة التحول بالنسبة للمنطقة، حيث أمرت القائدة البربرية أتباعها بقطع الأشجار وتهديم القرى وحرق الأراضي، ظنا منها بأن الجيوش العربية قد تتراجع، بحجة أنها كانت تغزو المنطقة من أجل نهب خيراتها، ولكنها بهذا الفعل قد قضت على روح "المقاومة الوطنية" لدى الجيش البربري، الذي بدأ ينسحب مما أدى إلى انهزام جيش الكاهنة وقتلها [2].

وما يمكن استخلاصه من دراسة Rozet , Carette للفتح الإسلامي، أنه تميز بالمد والجزر، والسبب يرجع إلى الأوضاع السياسية في الشرق الإسلامي، بسبب الحروب الأهلية ونشأة الجماعات السياسية ذات المشاريع المختلفة، ثم أن العرب الفاتحين كان هدفهم الأول الغنيمة ونهب خيرات المنطقة وليس بداعي نشر الدين، والاستقرار بالمنطقة، بالرغم من استيلائهم على منطقة شاسعة، إلا أنهم لم يستقروا و لم يقوموا بتنظيمها إداريا وتسيرها[3] . أما انحطاط المنطقة فقد أرجعا الأسباب كما أشرنا إلى الجيوش العربية الزاحفة من الشرق نحو الغرب قصد النهب والقتل، ما ترتب عنه تخريب المنطقة من طرف الكاهنة التي كانت تظن بفعلتها هذه قد تجعل العرب يتراجعون كونهم كانوا يغزون المنطقة بدافع الغنيمة.[4]

ثم تأتي الهجرة الهلالية خلال القرن الرابع للهجرة لإكمال عملية "التحطيم والتخريب" عن طريق قبائل بنو هلال وبنو سليم، التي نزحت وهاجرت من صعيد مصر نحو بلاد المغرب من أجل السرقة والنهب، بالإضافة إلى إحداث متغيرات اجتماعية بالمنطقة، عن طريق غرس عنصر بشري جديد يتميز بالتحرك والتنقل واللا استقرار، مما انجر عنه لجوء البربر إلى المناطق الجبلية وانتشار عنصر جديد[5]، وتغيير البنية الاجتماعية للمنطقة.

في ظل هذه التحولات فقد كان مصير المنطقة خلال الفترة الوسيطة الثورات والفوضى، خاصة بعد نجاح المذهب الخارجي في الوصول إلى المنطقة وانتشار أفكاره ومبادئه السياسية والاجتماعية التي كانت تتقاطع وتتشابه مع الثورة الدوناتية، ومن هنا تبنى البربر هذا الفكر للوقوف ضد السلطة المركزية في شكل ثورات من أجل تحقيق هدفهم السياسي والمتمثل في الاستقلال[6]، وكان لهم ذلك فيما بعد عن طريق الدول البربرية في المرحلة الإسلامية.

1- *Ibid.*, p. 375-376
2- *Ibid.*, p. 376.
3 - *Ibid.*, p. 374-375.
4 - *Ibid.*, p. 372-376.
5 - *Ibid.*, p. 393
6 -*Ibid.*, p. 380.

ومع نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي(19م)، ودائما مع الطبقة العسكرية التي لقيت التشجيع والتحفيز من السلطة الاستعمارية في الجزائر، بدأت تتضح ملامح كتابات جديدة تخص الجانب الاجتماعي لتلك الفترة، إلا أنها كانت لها أبعاد وتأثير على الكتابات التاريخية فيما بعد وأهم من مثل هذا الاتجاه القائد العسكري دوما (Daumas) الذي استطاع أن ينشر عدد من المؤلفات التي تخص الجزائر وتركيبتها البشرية والاجتماعية والدينية والاقتصادية، من خلال كتاب صحراء الجزائر *Le Sahara algérien* الصادر عام 1845م والقبائل الكبرى *La Grande Kabylie* الصادر سنة 1847م، فقد حاول دوما من خلال هذه الإصدارات إعطاء صورة لواقع الجزائر، بهدف وضع السلطة الفرنسية في الجزائر على الطريق الصحيح، بأنه يلزم على فرنسا أن تفرق بين البربر والعرب[1]، وهذا ما نلمسه في كتابه *La Grande Kabylie* أين أراد أن يعطي دراسة تاريخية لهذه المنطقة، حيث ركز فيها على الروابط الاجتماعية والدينية لمنطقة القبائل بفضل تطرقه إلى ماضي المنطقة عبر مختلف الحقب التاريخية، بالتركيز على الفترة الإسلامية، التي وصفها بالعنف، بداية من القرن السابع الميلادي، حيث شهد المغرب الأوسط هجمة عربية عنيفة وكبيرة بقيادة عقبة بن نافع، دهمت في طريقها كل المناطق السهلية والهضاب وحتى المناطق الجبلية[2] ، ثم تطرق "دوما" إلى شخصية موسى بن نصير الذي وصل إلى منطقة بجاية سنة 708م وقام بتقتيل البربر وأجبرهم على اعتناق الدين الإسلامي[3].

فقد صور دوما تاريخ منطقة القبائل خلال الفترة الوسيطة على أنه الأسوأ والأكثر تهميشا لفترة تزيد عن ستة قرون، وبحلول القرن 10م استطاع البربر أن يؤسسوا دويلات لتحقيق طموحاتهم الاستقلالية[4] . وعندما تطرق للإسلام في هذه المنطقة فقد تناول دوما الكيفية التي اعتنق بها البربر هذا الدين الجديد، مشيرا إلى العنف والقوة التي جعلتهم يعتنقون هذا الدين خوفا من القتل أو هروبا من دفع الجزية، ما جعل إسلامهم سطحيا كلبس البرنوس، ولكن تحت هذا اللباس الخارجي يوجد لباس بربري خالص، وهذه إشارة بأن البربر روحيا لم يعتنقوه ودليله أن البربر لا يعتمدون على القرآن الذي يعد بمثابة مصدر شريعة العرب المسلمين، بل يعتمدون على القانون والعرف البربري لحل مشاكلهم[5].

ومن هنا جاء تركيز دوما على منطقة القبائل، التي كانت ترفض الغازي وخاصة العرب المسلمين، وهذا ما نلحظه عندما يشير إلى أن هناك جدارا يفصل بين العرب والبربر[6]، ولكنهم يلتقون في نقطة الكراهية، حيث أن كل طرف يكره الآخر، فهم جنسان مختلفان من حيث البنية الجسمية وحتى من الناحية

1 - M Daumas, *La Grande Kabylie. Etudes historiques*, Alger, Hachette, 1847, p. 75.
2 - *Ibid.* p. 12.
3 *Ibid.* p. 13 -14.
4- *Ibid.* p. 77.
5- *Ibid.* p. 76 .
6- *Ibid.* p. 75.

الاجتماعية، فالبربر شعب متكتل، ويجب العمل إلى درجة التقديس.[1] من هنا يمكن القول بأن دوما حاول إعطاء طابع قومي وطني لمنطقة القبائل من خلال رفضها المستعمر العربي الذي استولى على المنطقة بعد القرن السابع الميلادي على حد زعمه. أشار دوما أنه تبعا لهذه المعطيات يتوجب على فرنسا أن تعيد النظر في سياستها في الجزائر، بالتركيز على العنصر البربري من أجل مصلحتها عوضا من العنصر العربي.

أما إصداره الثاني *Le Sahara algérien. Etudes Géographiques, statistiques et historiques* الصادر سنة 1845م، فهو عبارة عن كتاب يعتمد أساسا على الروايات الشفوية للجزائريين، حيث قام باستجواب حوالي ألف شخص من أجل معرفة أوضاع المنطقة المتاخمة لحدود الإدارة الفرنسية عن طريق التعرف على تجارة المنطقة[2] والقبائل العربية والبربرية التي تقطنها. فمن خلال دراسته الميدانية للمنطقة بأمر من السلطة الفرنسية في الجزائر، قام بالتعرف على المناطق الصحراوية المحاذية للمؤسسات الفرنسية في الشمال عن طريق تتبع وتحديد مراكز القبائل، واستيطانهم بالرجوع إلى الفتح الإسلامي والهجرة الهلالية[3] التي أرجعها من الأسباب الرئيسة في نزوح البربر نحو الصحراء، ثم كيفية الاندماج بينهم[4].

كما ركز على المذهب الإباضي في منطقة وادي ميزاب وأسباب نشأته في الشرق، ثم تطرق إلى اختلاف الميزابيين عن الأجناس الأخرى من حيث بنية الجسم ولون البشرة والشعر [5] ومدى انتشار الحقد بينهم وبين العرب الذي أرجعه إلى الصراع في المشرق على الخلافة والذي لا يزال قائما حتى هذه الفترة المتأخرة، ودليله أنهم قاموا بطرد نحو أربعين عائلة عربية[6] من منطقة وادي ميزاب بسبب الاختلاف المذهبي. ثم أشار دوما إلى أن من أولويات وطموحات فرنسا في المنطقة يلزم عليها أن تهتم بالبربر لما يحملونه من مزايا اجتماعية واقتصادية وحتى الدينية من أجل بقاء فرنسا في الجزائر[7].

1- *Ibid.*, p. 77.
2-Daumas , *Le Sahara algérien, études géographiques, statistiques et historiques sur les régions au sud des établissements français* , Paris,1845, p. 10.
3- *Ibid.*, p. 7.
4- *Ibid.*, p. 8.
5 - *Ibid.*, p.52-57.
6- *Ibid.*, p. 57.
7 - *Ibid.*, p. 58.

الفصل الثاني

المصادر العربية و توجيه الكتابة التاريخية الفرنسية (1850-1900)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 – ترجمة النصوص العربية المخطوطة

بدأت فرنسا بعد الاحتلال مباشرة في توفير كل السبل والوسائل من أجل تحقيق مشروعها الاستعماري وهذا من خلال دراسة هذه المنطقة الجغرافية، من خلال حصر الإمكانات البشرية والعلمية، لجمع أكبر ما يمكن من المعلومات عن الجزائر من المذكرات والتقارير والبعثات العلمية، وحتى من خلال الحملات العسكرية[1] مركزة على التركيبة البشرية للجزائر والماضي التاريخي للمنطقة وكذلك دراسات تخص الدين واللغة، وقد تم فعلا إنجاز عدد كبير من هذه الدراسات وطبعها، ولكن ما يمكن الوقوف عنده أنها قد وجهت الدراسات للفترة الرومانية[2]، فقد كانت هذه المرحلة محل اهتمام جل المهتمين بسبب توفر المواقع الأثرية الرومانية، وسهولة قراءة الألواح، والمصادر اللاتينية التي تسهل على جمع وإعادة تركيب الماضي التاريخي والجغرافي لهذه الفترة. أما الفترة الإسلامية الوسيطة فقد أهملت وتناست بسبب صعوبة الوصول إلى المصادر العربية التي أرخت لهذه الفترة، وحتى بدافع الإغفال وجعلها فترة مهملة إراديا من طرف السلطات الفرنسية.

ولكن خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدأت الدراسات التاريخية الفرنسية في توجه جديد، بعد تسليط الضوء أكثر على الفترة الإسلامية من خلال الدراسات التي لاقت التشجيع والتحفيز المادي والمعنوي من طرف الحكومة الفرنسية في الجزائر، حيث شجعت المستكشفين والأكاديميين والعمال، الإداريين، والعسكريين، والأطباء وحتى المستوطنين [3]، من أجل إعطاء دفع جديد للدراسات التاريخية وحثهم على التنقيب والبحث عن المصادر التي تخص الفترة الوسيطة. لكن قبل هذا لا بد من الإشارة إلى العوامل التي ساعدت هذا التوجه الجديد وأهمها: دور الاستشراق والمستشرقين الفرنسيين وعلى وجه الخصوص البارون سلفستر دي ساسي (Silvestere Antoine Isaac de Sacy 1758- 1838)، الذي كان يعد عميد الاستشراق الأوربي في زمنه، لما كان يحمله من علم ودراية واسعة باللغات الشرقية والعربية، وكذلك تأسيسه معهد اللغات الشرقية سنة 1795، بالإضافة إلى إنشاء الجمعيات العلمية مثل الجمعية الأسيوية (La société asiatique) التي تأسست سنة 1822 ، والتي كانت تشجع وتهتم بالحضارة الشرقية وتعمل على البحث وإخراج الكتب والمخطوطات، فهذه عوامل ساعدت في وضع أرضية من أجل إعداد جيل من المستشرقين يهتمون بتاريخ الشرق وحضارته.

وبالفعل لقد أعطى دو ساسي دفع لهذه الدراسات من خلال تحضير الأرضية لأمثال المستشرق الإيطالي مشال أماري (Amari) والفرنسي دوبرسوفال Depercevel من أجل البحث وإخراج تاريخ العرب

---

1 – ناصر الدين سعيدوني . ورقات . ص 10

2- René Basset, *Documents géographiques sur l'Afrique septentrionale*, Paris, Ernest Leroux, p. 01.

3-Cité par Gabriel Esquer, « La Société historique algérienne (1856-1956) », *Revue africaine*, 100 (1956), p.198.

في المشرق وصقلية وإسبانيا ، وخلال هذه الفترة ظهرت مجموعة من المترجمين العسكريين للجيش الفرنسي ساعدت في إثراء وتوجيه الكتابات التاريخية الفرنسية، بتشجيع من السلطات الفرنسية من أجل البحث ونشر المصادر العربية الإسلامية التي أرخت للفترة الوسيطة المغربية.

فقد نجح الجيل الأول للاحتلال في لفت الانتباه إلى بعض المصادر العربية التي لها وزن كبير من حيث القيمة التاريخية، لما تحتويه من معلومات هامة ودقيقة، ومن بين الذين أشاروا إلى هذا نجد شولز (Schulz) سنة 1825 حيث نشر مقال حول أهمية تاريخ البربر لابن خلدون في الجريدة الأسيوية [1]،ومن هنا بدأت رحلة العلماء والمهتمين بالبحث عن المصادر[2] التاريخية والجغرافية التي تؤرخ لهذه المنطقة تحت إشراف وإدارة السلطات الفرنسية، خاصة في النصف الثاني من القرن 19م حيث أوفدت مجموعة كبيرة ممن لهم قدرات كبيرة ودراية واسعة في اللغة العربية في كل الاتجاهات، خاصة وأن فرنسا إلى غاية هذه الفترة لا تزال بعيدة كل البعد عن واقع تاريخ هذه المنطقة الحضاري وحتى الديني، لاسيما بعد أن تمكنت من الوصول إلى مناطق أبعد من خلال البعثات العلمية التي جعلت فرنسا تتفطن إلى ضرورة العثور على المخطوطات العربية، وخير دليل على ذلك إميل ماسكراي (Emile Masqueray) الذي توجه نحو منطقة وادي ميزاب و روني باسي (René Basset) نحو منطقة ورقلة ووادي ريغ وفانيان (Fagnan) نحو وهران لجمع وجرد المخطوطات والإطلاع عليها[3].

ومن خلال هذا الجهد استطاع الفرنسيون الحصول على عدد كبير من المخطوطات والكتب التي لها صلة بتاريخ بلاد البربر، وبدأ نشرها، ومن بينها ما طبعه البارون دو سلان (Le Baron de Slane) سنة 1835 لجزء من كتاب "وفيات الأعيان" لابن خلكان، ثم رحلة التيجاني (1306-1309) الذي نشره روسو(M. Rousseau) في الجريدة الأسيوية 1853، وكتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" للمقري الذي ترجمه قيومنقوس (Gayomgos) وغيرها من الكتب.

ومن أهم الكتب التي ساعدت فعلا في توجيه وإثراء الكتابات التاريخية الفرنسية كتاب " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" لابن خلدون، الذي وصف بالكتاب المهم لدراسة الفترة الوسيطة المغربية[4] لما يحتويه من معلومات ووفرة المادة التاريخية[5]، التي ساعدت في تسليط الضوء على تاريخ المغرب الوسيط بعد أن كان مجهولا. ومن الأوائل

1- Mac Guckin De Slane Williams, *Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale*, Alger, 1852, vol. I, p. LXIV

2- *Ibid.*, p. LXIV.

3 - *Bulletin de correspondance africaine*, 1885, p. 15, 165,530.

4- Emile Félix Gautier, *op. cit.*, p. 81.

5- Baron de Slane, *op. cit.* p. LXIII

الذين قاموا بنشره نجد نوال دوفارجي (Noel Desvergers) سنة 1841 ولكنه كان جزء خاص بتاريخ الدولة الأغلبية وصقلية[1].

ثم يأتي دور الشخصية البارزة في الاستشراق الفرنسي الكلاسيكي البارون دو سلان الإيرلندي المولد le Baron Mac Guckin de Slane Williams (1801-1878) الذي كان المترجم الرئيسي لجيش الاحتلال، ومن أبرز المجيدين للغة العربية في أوروبا[2] ، ومن أهم المؤسسين للمؤسسة التاريخية الجزائرية[3]، فقد نشر سنة 1847م كتاب العبر لابن خلدون باللغة العربية، بأمر من وزارة الحربية الفرنسية بعد أن أعتني به وصححه.

لكن الفترة التي غيرت مجريات الكتابة الفرنسية تبدأ في النصف الثاني من القرن 19م مع البارون دو سلان الذي قام بعمل عظيم تمثل في ترجمة القسم الثالث من كتاب ابن خلدون إلى الفرنسية بأمر من وزارة الحربية، في الوقت الذي كان جل المؤرخين لا يجيدون اللغة العربية. وما يمكن قوله أن البارون دو سلان قام بتصحيح وتوضيح بعض الفقرات[4] التي كانت غامضة مع مراعاة المعنى الذي جاء في النص، وإضافة بعض المقتطفات والزيادات في شكل ملاحظات وتعاليق[5] من أجل توضيح النص للباحثين والقراء.

وبهذا العمل تمكنت المدرسة التاريخية الفرنسية للمرة الأولى من معرفة تاريخ المغرب عن قرب وخاصة الفترة الوسيطة التي كانت الحلقة المفقودة، بالرغم من أنهم حاولوا كتاباتها من خلال النصوص الإغريقية البيزنطية ،أومن خلال علاقة جمهوريات جنوب أوروبا (التجارية) مع سواحل المغرب خلال الفترة الوسيطة، بواسطة أرشيف العلاقات التجارية والمعاهدات أو الحملات العسكرية. والأهم هو أن دو سلان قد قدم لأوروبا عموما وفرنسا على وجه الخصوص كتاب يشمل الفترة البيزنطية المتأخرة في بلاد المغرب، والتي تميزت بالعنف والفوضى وحتى الثورات[6] الاجتماعية، بسبب السياسة البيزنطية غير العادلة التي تقوم على التمييز العرقي والجنسي وفرض الضرائب[7]الباهظة على البربر، والتي أعتبرها دو سلان امتدادا لحركة الدوناتيين في القرن الرابع الميلادي. [8]

ثم تطرق إلى الفتح الإسلامي للمنطقة الذي تم عبر مراحل، ولكن أرجع أسباب نجاح هذا الفتح لسببين رئيسين : الأول: تمثل في ضعف الإدارة البيزنطية بسبب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية[9]، والثاني تحالف البربر مع العرب على أساس أنهم كانوا يرون فيهم وسيلة الخلاص من العبودية والمعاناة[10]. ثم تطرق إلى نقطة مهمة تمثلت في ثورة البربر على المسلمين الفاتحين في عهد عقبة بن نافع

1- *Histoire de l'Afrique sous la dynastie des Aghlabides*, 1841.
2- Narcis, *op. cit.*, p. 68
3- *Ibid.*, p.69.
4- De Slane, p.I
5- *Ibid.*, p. I.
6- *Ibid.*, p. XIX
7- *Ibid.*, p. XIX
8- *Ibid.*, p. XIX
9- *Ibid.*, p. XIX
10- *Ibid.*, p. XX.

والتي أرجعها أساسا إلى إرهاقهم بالفرائض أو الشعائر الدينية (كثرة الصلوات) والضرائب التي فرضت عليهم، فتحالفوا مرة أخرى مع الروم ضد العرب وتمكنوا من هزمتهم، واستطاعوا أن يكونوا أسيادا بإقامة مملكة بربرية حرة تحت راية كسيلة[1] . ثم تطرق إلى دخول الفكر الخارجي إلى المغرب وبداية انتشاره، بسبب سياسة الولاة التي كانت تعكس "جشع وطمع" الحكام، فاستغلوا هذه الأفكار السياسية ليثوروا ضد الولاة والسلطة الأموية[2]، كما تطرق إلى باقي أحداث ما بعد عصر الولاة من قيام الدول البربرية ، ثم الهجرة الهلالية وما بعدها.

وما يمكن قوله هو أن دو سلان قد عرّف أوروبا وفرنسا بأهمية كتاب ابن خلدون، وهذا خلال القرن 19م، ولولاه لما تمكنت المدرسة الفرنسية والغربية من كتابة تاريخ المنطقة الذي كان مجهولا لديها. كذلك نعلم أن فرنسا تعرفت على ابن خلدون وهي في ذروة قمة الاستعمار، وبهذا فقد استطاعت أن تستفيد منه عن طريق توظيف فقرات من كتابه ، خاصة مرحلة الفتح والهجرة الهلالية لخدمة مشروعها، في إعطاء صورة للعرب على أنهم شعب غير متحضر وليست لديه قوانين تضبطه وتساعده على التحضر فهو عنصر مخرب أكثر منه مساعد على البناء، كل هذا لينالّوا من عقول البربر قصد التفرقة بينهم وبين العرب الذين "كانوا مغتصبين للأرض"، وخير دليل على ذلك هو أن وزارة الحربية هي من أمرت وأشرفت بطبع هذا الكتاب، كما لا يمكن أن ننسى ما قام به دو سلان في هذه الفترة، حيث عثر على القسم المغربي من كتاب جغرافية البكري الموسومة بـ "المسالك والممالك" ، وعمل على طبعه ونشره سنة 1857م، وهو مصدر لا غنى عنه لما يحمله من معلومات جغرافية هامة لأهم مناطق المغرب. ولهذا كان كتاب البكري مصدر مهم لدراسة المغرب، بدليل أنه كان مصدرا رئيسيا لجل الذين كتبوا عن تاريخ المغرب في الفترة الوسيطة وعلى سبيل المثال: هنري فورنال (Henri Fournel) ، وأرنست مرسييه (Ernest Mercier) ، اللذان يعتبران من المختصين الفرنسيين بتاريخ المغرب الوسيط خلال القرن 19م.

ما يمكن قوله حول اهتمامات المدرسة التاريخية الفرنسية خلال النصف الثاني من القرن 19م أنها بدأت تبحث وتنشر وتعتمد على المصادر النثرية الأدبية والوصفية، من أجل رسم المعالم أو الخطوط الرئيسية لمنطقة المغرب في الفترة الإسلامية. وهذا ما نلمسه فيما بعد عن طريق أرنست مرسيي في عدد من الدراسات التي مست المغرب الإسلامي باعتماده كليا على كتاب ابن خلدون وحتى البكري. والسبب الذي جعل المدرسة الفرنسية تهتم بالفترة الإسلامية ربما يرجع أساسا لجهل تاريخ هذه الفترة، وكذلك جهلها بالدين الإسلامي والمذاهب الإسلامية التي دخلت المنطقة وكيفية انتشارها في فترة قصيرة. وكما أن فرنسا قد وصلت في احتلالها إلى أبعد المناطق الجنوبية، وقد بدأت تتعرف على أقليات دينية تختلف لغويا ودينيا كالمذهب الإباضي في الجنوب الذي كان بالنسبة للسلطة الفرنسية مجهولا. لهذا سعت للبحث

1- *Ibid.*, p. XX
2- *Ibid.*, p. XX.

والتنقيب عن المصادر العربية التي أرخت لفترة الفتح وما بعد الفتح، حتى تتمكن من معرفة الفترة والكيفية التي دخل بها هذا المذهب وحتى الإسلام نفسه.

2- الدراسات العامة والمنوغرافية الاجتماعية

لقد حاولت المدرسة الفرنسية في النصف الثاني من القرن 19م رسم الخيوط الرئيسية لأهم محطات تاريخ بلاد المغرب الأوسط من خلال دمجه ضمن صيرورة أو حركية الحضارة الرومانية وجعل الفتح الإسلامي الحدث الذي أخرجه من هذه الحركية[1]، وتزامن هذا التوجه الجديد مع ظهور الكتب العربية والمغربية وهي المصادر التقليدية "الأدبية النثرية والوصفية "التي أعتمد عليها جل المؤرخين الفرنسيين المتخصصين[2]، التي كانت تعتبر الكتب الأهم في تاريخ بلاد المغرب، والفضل يرجع إلى مجموعة من المترجمين الذين حاولوا العثور على كتب عربية تسلط الضوء أكثر على الفترة الوسيطة وشجعتهم السلطة الفرنسية بكل الوسائل لإنجاح الدراسات التاريخية في الجزائر، وكان على رأسها المنشورات العلمية التاريخية التي بدأت في الظهور كالمجلة الإفريقية التي تصدرها الجمعية التاريخية الجزائرية والجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة، وكذالك بتشجيع الدراسات العربية حيث عملت فرنسا على تكوين عدد كبير من المترجمين من خلال المدارس المختصة في اللغة العربية، خاصة وأنها كانت تملك خيرة العارفين باللغة العربية أمثال البارون دو سلان وكاترمر Quatermère وغيرهما، لكن كل هذه العوامل لم تمنع من استمرار الكتابات العامة التي كانت تعكس صورة المؤرخ الهاوي من خلال الدراسات التاريخية العامة، التي بقيت تهتم بتاريخ المنطقة وفق منظور استعماري، بتمجيد الماضي الروماني وجعل الفترة الإسلامية الأكثر تخلفا. وهذا ما يمكن أن نلاحظه من خلال الدراسات التي نشرت خلال النصف الثاني من القرن 19م ومن أهمها كتاب *Précis de l'histoire et du commerce de l'Afrique septentrionale, depuis les temps anciens jusqu'au temps modernes* الصادر سنة 1852.

تناول فيه الكاتب موري (Maury) اقتصاد بلاد المغرب إلا أنه تطرق إلى الفترة الوسيطة وكيفية دخول العرب لهذه المنطقة التي كانت تنعم في الفترة الرومانية بالازدهار [3]. فقد وصف "الغزو العربي" في القرن السابع الميلادي بالهجوم الكاسح الذي أجتاح المنطقة الممتدة من طرابلس حتى المحيط مستوليا على أهم المدن كقرطاج، وبرقة وحتى منطقة نوميديا فقد خربت وسقطت في أيدي المسلمين وبذالك قضي على الديانة المسيحية[4].

1- علاوة عمارة، دراسات، ص 48

2- علاوة عمارة، نفس المرجع، ص 35-36

3-M. Maury, *Précis de l'histoire et du commerce de l'Afrique septentrionale depuis les temps anciens jusqu'aux temps modernes*, Paris, 1852, p. 13.

4 - *Ibid.*, p. 22.

أما فيما يخص الإسلام فقد فرض بحد السيف مما جعل الأهالي البربر يعتنقوه تحت نير العبودية الإسلامية بعد أن انحنت الديانة المسيحية والوثنية[1]، و لم يتعلموا العربية إلا من أجل القرآن أوللسفر من أجل التجارة.

أما الفترة التي تلت الفتح إلى غاية القرن الخامس عشر فقد تميزت بالفوضى من خلال التراعات بين البربر والولاة وحتى بين الدول البربرية التي ظهرت على الساحة المغربية والتي كانت تهدف إلى بسط نفوذها على كامل المنطقة[2]، فالفترة الإسلامية كانت مرحلة تخريب، فكل الأنظمة التي توالت على المنطقة كانت تعكس صورة التطرف من خلال الحكام وحتى وإن كانت لهم طموحات من أجل النمو والازدهار، إلا أنها لم تدم، ما جعل المنطقة تتراجع حضريا، بسبب الصراع والحروب الذي جعل منها منطقة يسودها التخلف والخراب لمدة تزيد عن اثنا عشرة قرنا، [3] مما جعلها "حزينة" بالرغم من بروز بعض الإمارات من تحت هذا الركام إلا أنها في الغالب تظهر لتندثر أو لتزول[4] .

في خضم هذا الوضع كانت العلاقات التجارية بين السواحل المغربية عموما وتجار جنوب أوروبا تحديدا الإيطاليين كما كانت عليه خلال الفترة القرطاجية فقد كانت مدينة بجاية خلال القرن 12م مدينة تجارية كبيرة جدا من خلال المبادلات التجارية، خاصة بعد أن أصبح تجار بيزة يترددون عليها [5] بحكم أنها كانت محطة تجارية هامة لكونها ذات ارتباط تجاري وثيق مع المنطقة الجنوبية الصحراوية، وهذه المعلومات أخذها من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق لـ الشريف الإدريسي. كما تطرق موري إلى الانتعاش العلمي الذي كانت عليه المنطقة المغربية كونها كانت منطقة عبور وربط بين بغداد وقرطبة، وبذلك تأثرت وأخذت العلوم من الشرق والغرب بعد أن كانت بعيدة بسبب تردي الأوضاع السياسية والاجتماعية [6] ، كما أشار إلى الفضل الكبير للجغرافيين العرب الذين بفضلهم استطاع الغرب أن يتعرف على منطقة المغرب وعلى مدنها وإماراتها التي كانت تزخر بثروات هامة بفضل النشاط التجاري، بعد أن كانت من المناطق الصعبة والمحظورة[7]

أما فيما يخص التركيبة البشرية فهي تقريبا ملاحظات عامة يشير من خلالها إلى العنصر العربي والبربري لأن موري اعتمد على دراسة Daumas كمرجع مهم في دراسته لعاداتهم وتقاليدهم .

وفي نفس السنة أصدر ديرو دولمال (Duraeu de la Malle) كتابته *L'Algérie: histoire des guerres des Romains, des Byzantins et des Vandales* الذي أعتبره كتاب مهم بالنسبة للمؤسسة

1- *Ibid.*, p. 23
2- *Ibid.*, p. 135
3- *Ibid.*, p. 91.
4- *Ibid.*, p. 95.
5- *Ibid.*, p. 90
6- *Ibid.*, p. 90
7- *Ibid.*, p. 90.

العسكرية الفرنسية، لأنه قام بعملية الإسقاط والمقاربة من خلال تطرقه إلى كيفية وصول روما إلى شمال إفريقيا، وما هي العقبات التي حاولت إجهاض هذا "العمل التحضيري"، خصوصا الثورات، إلا أن عزيمة روما كانت أقوى واستطاعت أن تبسط نفوذها وبذلك تمكنت من دمج العنصر البربري في فلكها من خلال انصهار الشعب اللاتيني والبربري، وهذا من أجل بناء صرح دائم ومشع، هذه أفكار قد تكون فعالة للإدارة الفرنسية من أجل أخذ العبرة، وأن لا تفشل في تحقيق هدفها المنشود وهو دمج هذه المنطقة في فلك الحضارة الغربية[1].

كما أصدرت بولين دونوار فونتان (Pauline de Noir Fontaine) كتاب بعنوان *L'Algérie: un regard écrit* والذي تطرقت فيه لتاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال رواية أدبية حاولت فيها أن تسقط بعض الملامح التاريخية الحديثة، فتطرقت إلى التركيبة البشرية للجزائر المتكونة من عرب وبربر ولكنهم لم يتحدوا فيما بينهم من الناحية الاجتماعية، والسبب الذي جعلهم يتنافرون ربما الفرق من خلال العادات والتقاليد وتكوين القبيلة[2] ، حيث أشارت إلى أن البربر ينحدرون من الوندال ذوي الأصول الأوروبية لأنه في زعمها من بقايا الوندال، والسبب أرجعته إلى الملامح الفسيولوجية (لون البشرة، لون الشعر، لون العينين) لأنهم يتشابهون مع الجنس الأوروبي[3]. فالبربر نظامهم القبلي ديمقراطي، إلا أنهم جنس متحفظ ويحب العزلة، بدليل أنهم قاوموا الحضارات التي تعاقبت على أرضهم و لم تنجح أي منها في التأثير عليهم منذ القرطاجيين[4].

ولكن ما يأخذ عن بولين أنها اعتمدت على الروايات الشفوية المنقولة عن الجزائريين بحكم إقامتها في وهران، ومن خلال هذا الاحتكاك اليومي معهم استطاعت أن تبني هذه المعطيات التي لم تكن واقعية ولا تاريخية، لأن البربر قد احتكوا وانصهروا في الحضارات المتعاقبة كالرومانية والإسلامية.

فالتفوق الحضاري لفرنسا خلال القرن 19م كما أشرنا له من قبل بقي يطغى على الكتابات التاريخية وبتشجيع من السلطة الفرنسة بقي عدد منها يكتب من أجل إبراز هذا التفوق والتطور اللا محدود للحضارة الأوروبية المسيحية الإنسانية[5]، ولا يكون هذا التفوق الحضاري إلا عن طريق الغزو العقلي بتصدير الأفكار الفلسفية والسياسية، والفكرية وغيرها، أو عن طريق قوة السلاح[6]، فهذه الإشارة كانت في الغالب عبارة عن مبررات لعملية الاحتلال، لأن شارل داميا (Charles Damiens) برر غزو الجزائر على أنه بداية تصدير وغرس الحضارة المسيحية الإنسانية على أرض إفريقيا الساحلية. كما بقيت الكتابات

1- Dureau De La Malle, *L'Algérie, Histoire des guerres des Romains, des Byzantins et des Vandales*, Paris, 1852, p. XI.
2- Pauline de Noir Fontaine, *L'Algérie, un regard écrit*, Le Havre, 1856, p. 42.
3- *Ibid.*, p. 42.
4- *Ibid.*, p. 42.
5- Charles Damiens, *L'Algérie ou la civilisation conquérante*, Paris, 1855, p. 1.
6- *Ibid.*, p. 1.

والإشارات للفتح الإسلامي للمـــناطق الواسعة أنها كانت نهب وتخريب[1]، أين ما وجد العرب من المحيط حتى ما وراء الجزيرة العربية أرض تم تطهيرها وتحويلها إلى صحراء.[2]

دائما في نفس الفترة صدر كـــتاب لـــ أرسان برتوي (Arsène Berteuil) بعنوان الجزائر الفرنسية *Algérie française* تطرق من خلال الجـــزء الأول إلى أرض الجزائر التي بقيت كما كانت في الفترة الرومانية، و لم تفقد اخضرارها وخصوبتها الزراعية تقريبا فهي فريدة من حيث النوعية خاصة زراعة القمح والشعير[3]، وحتى الفواكه متنوعة وكثـــيرة[4] . وهنا يقوم بربط واقع الجزائر في القرن 19 وما أخذه أو اطلع عليه من خلال المصادر اللاتينية القديمة. أما دخول العرب الفاتحين فقد كان في القرن 7م[5] ، بعـــــد أن ســـيطروا واســـتولوا على مناطق عديدة، وخاصة المناطق الداخلية بين البحر والصحراء، لتقارب وتشابه المناخ مـــع موطن الفاتحين. ولكن المنطقة بعد استقرار العرب أصبحت غير مستقرة [6]بسبب الثورات الـــتي شـــهدتها الخلافة الأموية، فقد انشق المغرب عن سلطته ، بعد أن تأسست دول بربرية مستقلة ، ومع مرور الـــزمن تقلصت وتلاشت نهائيا السيطرة العربية على "بلاد البربر".

أما فيما يخص التركيبة السكانية للمنطقة في الفترة الوسيطة، فقد كانت متكونة من عناصر أساسية ممثلة في العرب الفاتحين الذين استقروا واستولوا على الهضاب الداخلية بعيدا عن البحر[7]، قصد الحفاظ على شخصيتهم، وخاصة وأن المنطقة تتشابه مناخيا مع بيئتهم المشرقية. ثم يأتي البربر السكان الأصليين وهـــم ينحدرون من النوميديين القدامى[8]،وهم في الأصل خليط من الأجناس التي تعاقبت على المنطقة وهذا مـــا يدل على بقاء بربر ينتمون للأصل الأوروبي ذو البشرة البيضاء والشعر الأصفر. يقطنون في الغالب المناطق الجبلية ويعملون في الزراعة كسكان بجاية. وتاريخيا تلك المناطق الجبلية كانت ملجأ للبربر عبر العصور ضد الغزوات، مما جعلهم يحافظون على أصولهم [9]، لكن الكاتب دعى إلى ضرورة دراسة هؤلاء البربر علـــى أساس فعاليتهم وتميزهم. وفيما يخص الديانة الإسلامية فيشير بروتوي إلى أن إسلام البربر سطحي لأنهم لا يطبقون الشريعة الإسلامية، بل يعتمدون على عرفهم لحل مشاكلهم[10].

وحاول بروتوي لفت انتباه الدارسين للدراسة والتخصص أكثر في الفترة الوسيطة ،التي تعد مرحلة استقرار العرب، [11]وكذلك دعى إلى دراسة سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أجل فهم الـــدين

1- Abbé Leon Godard, *Soirées algériennes* ,Tours, MDcccLVII, p.10.
2- *Ibid.*, p.11
3- Arsène Breteuil, *L'Algérie française, histoire, mœurs, coutumes, agriculture*, Paris, Dentu, 1856, t. 1, p.18.
4- *Ibid.*, p. 19.
5- *Ibid.*, p. 33.
6- *Ibid.*, p. 23.
7 - *Ibid.*, p. 24.
8- *Ibid.*, p. 33.
9 - *Ibid.*, p. 34.
10 - Ibid., p. *34.*
11- *Ibid.*, p. 36-37.

الإسلامي الذي يرتبط كثيرا بسيرته ، لإنجاح مشروع فرنسا الاستعماري[1]. أما في الجزء الثاني فقد أشار إلى تراجع حضارة المنطقة بعد الغزو الوندالي في القرن 5م، حيث دمروا وحطموا كل المدن التي كانت مزدهرة في عهد الرومان.ويرى بأن قسنطينة في القرن 12م ومن خلال الإدريسي كانت آهلة بالسكان وذات تجارة كبيرة، كما صور جيجل على أنها قاومت المد العربي للحفاظ على استقلالها.

وفي سنة 1858 أصدر ماك كارثي (Mc Carthy) قاموس يخص الجزائر في الماضي والحاضر وهذا العمل في حقيقة الأمر عبارة عن عمل إحصائي للجزائر قام به لفترة تزيد عن ست سنوات ، حيث كانت السلطة الفرنسية وراء هذا العمل لأنها شجعته وأشرفت عليه[2].فقد تطرق الكاتب إلى الفتح الإسلامي الذي أرجع سببه إلى انحطاط وتراجع الحضارة الرومانية[3]، وقد وصف فترة دخول العرب بالتقطع بسبب المقاومة العنيفة للبربر والبيزنطيين، خاصة في عهد عقبة بن نافع الذي وصل حتى أقصى الغرب[4].أما إسلام البربر فقد وصفه الكاتب بالاعتناق القسري [5] . وكونه عبارة عن قاموس، فقد حاول تسليط الضوء أكثر على مناطق أخرى كناحية وادي ميزاب، التي تقطن به أقلية تختلف مذهبيا عن باقي المناطق [6].

وفي سنة 1859 صدر كتابا سلط الضوء على مدينة تلمسان من تأليف الراهب برجاس (Abbé Bargès) والذي تطرق في مقدمته إلى ما تملكه هذه المدينة من تراث تاريخي وشواهد أثرية مهمة ، تعكس مدى ثراء المغرب الأوسط تاريخيا، قد تساعد في إعادة كتابة تاريخه [7]. وزيارته لتلمسان كانت بدافع الدراسة والتعرف على عادات وتقاليد المدينة، والبحث عن المخطوطات، لاسيما وأن الدراسات التي سبقته كانت سطحية عندما تناولت تاريخ الجزائر[8].ثم حاول رسم معالم المدينة التاريخية بالاعتماد على المصادر اللاتينية القديمة، وكتاب البكري "المسالك والممالك" لإبراز ماضي المنطقة بداية من الفترة الرومانية [9]، والفترة الوسيطة التي كانت بها كنيسة وجالية مسيحية خلال القرنين 4 و5 الهجريين[10]. كما شهدت المدينة انتعاش الزراعة والصناعة خلال الفترة المرابطية والموحدية[11]. أما في الفترة الفترة الزيانية فقد أصبحت تلمسان من أهم الحواضر المغربية، بفضل ازدهار تجارتها الرائجة مع تجار جنوه وجنوب الصحراء[12]،بعد أن أصبحت محطة رئيسية للقوافل التجارية.

---

1 - *Ibid.*, p. 74.
2 - M. Mc Carthy, *Dictionnaire géographique et politique de l'Algérie*, Alger, 1858, p.01.
3 - *Ibid.*, p. 124.
4- *Ibid.*, p. 124.
5 - *Ibid.*, p. 137.
6 - *Ibid.*, p. 141.
7 - Abbé Bargès, *Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom*, Paris, 1859, p.01.
8 - *Ibid.*, p. 91.
9 - *Ibid.*, p. 21
10 - *Ibid.*, p. 122.
11 - *Ibid.*, p. 182.
12 - *Ibid.*, p. 209.

من جهته، أصدر جيل جيرار (Jules Gérard) كتابا يحمل عنوان إفريقيا الشمالية *L'Afrique du Nord* سنة 1860 وحاول من خلاله إعطاء لمحة عن ماضي المنطقة من خلال الحضارات المتعاقبة، وخاصة هجرة الإغريق واللاتين الذين جاءوا واستقروا في بلاد المغرب بأعداد كبيرة، بعد أن منحت لهم أراضي خصبة في المدن والقرى[1]، بدافع الاستقرار والازدهار ودمج البربر ضمن فلك الحضارة الرومانية[2]، ولكن هذا الازدهار تلاشى بعد الفتح الإسلامي للمنطقة، الذي كان سريعا بفضل القائد عقبة بن نافع، الذي استطاع قهر البربر والبيزنطيين في حملته الكبرى، ثم موسى بن نصير الذي بفضله أستقر الوضع نهائيا للجيوش الإسلامية[3]، التي كانت تقاتل بدافع "الغنيمة والنهب التخريب"[4]. ما ترتب عنه تراجع المنطقة حضاريا بفعل التخريب الذي لحق بمدن إفريقية التي كانت مسرحا لأهم المواجهات العسكرية[5].

أما التركيبة الاجتماعية للمنطقة فقد حاول لفت انتباه الحكومة الفرنسية، بضرورة دراسة السكان لأغراض علمية، بل لمعرفتهم أكثر قصد دمجهم في ظل الحضارة الفرنسية[6]. كما يرى أن اعتناق البربر للدين الإسلامي لم يكن إلا بسبب الخوف من القتل أو للتخلص من الضرائب، وكذالك بدافع الطمع من خلال انخراطهم في صفوف الجيش الإسلامي للحصول على الغنائم ، ولهذا كان إسلامهم سطحي[7]. أما انحطاط المنطقة وتراجعها، فقد ربطه بعمليات التخريب والنهب للمنطقة خلال الفتح، وصراع البربر ضد سلطة الولاة، وكذلك الحروب بين الإمارات البربرية، بالإضافة إلى تراجع الزراعة التي كانت منتشرة ومتنوعة بفضل جهود الحضارة الرومانية[8].

بعد جيرار، جاء إيلي دولا بريمودي (Elie de La Primaudaie) الذي نشر كتاب يخص الملاحة البحرية للجزائر، إلا أنه ركز على الفترة الرومانية وكيف كانت المنطقة منظمة، خاصة نوميديا التي كانت آهلة بالسكان[9] ، ومن أهم المحطات التجارية[10]، أما الفترة الوسيطة فقد أشار إلى تراجع الملاحة البحرية فيها لافتقاد العرب للثقافة البحرية[11]، لأن لهم ثقافة برية أكثر منها بحرية، إلى غاية القرن 14م أين كانت هناك مبادلات تجارية هامة مع التجار الإيطاليين خاصة[12].

وفي سنة 1861م نشر جورج فوازا (Georges Voisin) المعروف باسم إسماعيل إربان (Ismail Urbain) دراسة اجتماعية جديدة مختلفة من خلال دراسة وفهم ماضي المنطقة، من أجل إلحاق سكان

---

1 - Jules Gérard, *L'Afrique du Nord*, Paris, 1860, p.53.
2 - *Ibid.*, p. 54-62.
3 - *Ibid.*, p. 62-66.
4 - *Ibid.*, p. 63.
5- *Ibid.*, p..
6- *Ibid.*, p. 245
7- *Ibid.*, p. 63-64.
8- *Ibid.*, p. 64.
9- Philipe Elie de La Primaudaie, *Le commerce et la navigation de l'Algérie*, Paris, 1860, p. 89.
10- *Ibid.*, p. 95.
11- *Ibid.*, p. 86.
12- *Ibid.*, p. 82.

الجزائر بالحضارة الفرنسية، وفق آليات اجتماعية واقتصادية. فقد تطرق للفتح العربي للمنطقة خلال القرن 7م بعد أن استطاعت الجيوش الإسلامية السيطرة على مصر توجهت نحو أقصى المغرب وهي متشبعة بالدافع الديني، وحبا في الغنيمة والنهب[1]، فالجيش الإسلامي قد قضى على جميع المقاومات المحلية[2]، ولكن سرعان ما اصطدم عند حدود إفريقية بمقاومة عنيفة وشرسة من الروم والبربر[3]، إلا أن الفتح كان عبارة عن حملات متقطعة، ولكن كل الفضل يرجع إلى شخصية عقبة بن نافع الذي فكر في الاستقرار وتنظيم المنطقة من خلال بناء مدينة القيروان[4]، وأرجع جورج فوازا هدف الحملات الأولى إلى جمع الغنائم والنهب وأخذ الأسرى، ونشر الدين الإسلامي، ولم يكن اهتمام السلطة المركزية أو حتى قادة الحملات بتنظيم المنطقة أو إلحاقها إداريا[5].

أما إسلام البربر فقد أرجعه لأسباب، من بينها انتشار المذهب الأريوسي الذي يتقاطع مع الدين الإسلامي في التوحيد[6]، كما حاول ربط الفكر الدوناتي الثوري ضد سلطة البيزنطيين بفكر الخوارج الذي كان حافزا للثورة ونيل استقلال البربر عن سلطة الخلافة باسم الدين[7].

ومن الأحداث الهامة التي غيرت مورفولوجية المنطقة اجتماعيا الهجرة الهلالية خلال القرن الخامس الهجري، التي لعبت دور هام في تغيير وجه المنطقة من خلال المواجهات العسكرية مع الزيريين[8]، التي ترتب عنها تخريب للمنطقة، بالإضافة إلى دخول الجحافل البشرية المتكونة من نساء وأطفال وحتى قطعان الماشية[9]. أما الشطر الثاني من الدراسة فقد خصصه جورج فوازا إلى قضية البربر والعرب وكيفية استمالتهم ودمجهم في الحضارة الفرنسية، فالموضوع جدير بالأهمية خاصة وأن فرنسا كانت تعتبر نفسها وريثة روما في المنطقة[10]، وما يجعلها ملزمة بتطبيق سياسة اجتماعية عادلة من أجل دمج الأهالي. في البداية تساءل جورج فوازا عن إمكانية وجود تقارب بين البربر والعرب مع حضارة فرنسا[11]، ولكن الواقع كان يثبت دور السلطة العسكرية الفرنسية في إبعاد الأهالي[12].

---

1 - Georges Voisin, ***L'Algérie pour les Algériens***, Paris, 1861, p. 19.
2- *Ibid.*, p. 20.
3- *Ibid.*, p. 20.
4- *Ibid.*, p. 21
5- *Ibid.*, p. 20.
6- *Ibid.*, p. 21.
7- *Ibid.*, p. 21.
8- *Ibid.*, p. 23.
9- *Ibid.*, p. 23.
10- Sahli, *op. cit.*, p. 138
11- Voisin, *op. cit.*, p. 137
12- *Ibid.*, p. 138.

كان جورج فوازا يطمح إلى دمج البربر والعرب دون القضاء عليهم، لأن فرنسا بحاجة لهؤلاء السكان في القطاع الاقتصادي، ولهذا نبه الكاتب إلى ضرورة الاهتمام بالفئة الصغيرة من الأطفال لتحضيرهم، ومع مرور الوقت ستكسب فرنسا جيل جديد متشبع بأفكار الحضارة الفرنسية يعمل على ترسيخ قيم الحضارة الغربية، بعد زوال فكر المقاومة الذي اندثر مع آبائهم. ومن أهم المؤسسات التي قد تلعب دور كبير في دمج الأهالي ضمن المجتمع الفرنسي هي المؤسسة العسكرية، بفعل الاحتكاك عن قرب بين الأهالي والفرنسيين داخل الثكنة، لأن المصلحة المشتركة داخل هذه المؤسسة قد تؤدي

في سنة 1862م أصدر جورج فوازا "إسماعيل إربان" كتابه الثاني الجـــزائر الفـــرنسية، الأهالي والمهاجرين *L'Algérie française, indigènes et immigrants*، الذي حاول من خـــــلاله وضع أسس وآليات لتطبيق سياسة اجتماعية عادلة بين الأهالي والمستوطنين، من خلال القوانين الفرنسية التي تضبط العلاقات العامـــة. من خلال احترام الممتلكات الشخصية للأهالي[1].

فهذه الدراسة جاءت بعد أن قام إسماعيل إربان بمراجعة ماضي المنطقة للوقـــوف علـــى الحقيقـــة الاجتماعية للجزائر، والتي بدونها لا يمكن رفع معنويات الأهالي المهزومين، خاصة وأن فرنسا قد سيطرت على أرضهم وقبلت بهم ضمن وحدتها السياسية، مع احترام عاداتهم ودينهم[2]، من خلال الفـــصل بـــين الجانب الروحي والمادي بالنسبة للأهالي[3]، لأن عقيدتهم الدينية تتعارض مع قوانين فرنسا وهذا قد يحرمهم من حق المواطنة، لأن شعار فرنسا كان بدافع نشر الحضارة[4].

فماضي الشعوب الإسلامية يكشف للسلطة الفرنسية مدى تطور العقل المسلم في ظـــل الحـــضارة الإسلامية، عن طريق الإنتاج العلمي والفلسفي، الذي لم يكن يتعارض مع السلطة الدينية، ومن هنا يمكن أن تستخلص الإدارة الفرنسية إمكانية دمج الأهالي داخل أنظمة علمانية دون التخلي عـــن معتقـــداتهم، وبتوفير عدالة اجتماعية بين الأهالي والمستوطنين من طرف السلطة الفرنسية، لأنها الوصية علـــى الـــشعب الجزائري[5]. وليتحقق مشروع فرنسا في الجزائر لا بد من سياسة اجتماعية واقتصادية ناجحة، عن طريـــق احتواء الجنسين مع بعضهم البعض، بخلق تنظيم إداري مثل ما هو في فرنسا، (نفس الحقوق والواجبـــات، احترام حرية المعتقدات، نفس المؤسسات الاقتصادية، نفس التقسيم الإداري)[6].

فقد حاول إسماعيل إربان لفت انتباه السلطة الفرنسية إلى ثلاث محاور أساسية، شمـــلت الجانـــب الحضاري والديني والسكان، فقد ذكّر فرنسا بالرسالة الحضارية التي جاءت من أجلها للجزائر، للقضاء على النظام الاجتماعي الفاسد، وتحرير الأهالي ودمجهم داخل الحضارة الفرنسية[7]. كما أشار إلى الجانب الديني من خلال التطرق إلى "الماضي المجيد" للحضارة الإسلامية وفضلها الكبير على الحضارات الأخرى، خاصة وأن الإسلام " لم يكن ولن يكن جدار مانع لدمج الأهالي في حضارتنا" [8]. أما البربر السكان الأصليين فلم

إلى الانصهار، كما يمكن استغلال قطاع الزراعة والصناعة لجلب الأهالي كيد عاملة ، بضمان عدالة اجتماعية وحرية ممارسة الدين لخدمة المشروع الفرنسي.

1 - Ismail Urbain, *L'Algérie française, indigènes et immigrants*, Paris, 1862, p. 8.
2 - *Ibid.*, p. 6.
3 - *Ibid.*, p. 3.
4 - *Ibid.*, p. 3.
5 - *Ibid.*, p. 6-12.
6 - *Ibid*, p. 35.
7 - *Ibid*, p. 62.
8 - *Ibid.*, p. 70.

تتمكن الإدارة الفرنسية بحضارتها أن تدمجهم ضمن فلك الحضارة الغربية، بالرغم من أن الحضارة الإسلامية استطاعت في الماضي التّأثير فيهم باعتناقهم الدين واللغة، ما جعل المنطقة تتغير[15].

وتواصلت الكتابات التاريخية الوصفية والعامة في تناولها تاريخ الجزائر خاصة في الفترة الوسيطة حيث شهد النصف الثاني من القرن 19م إنتاج أدبي وتاريخي كبيرا جدا، وهذا ما نلمسه عند بيهاجل (A. Behaghelالذي نشر كتاب سنة 1864م وتناول فيه تاريخ وجغرافية الجزائر، ما جعله يكون موسوعة علمية تفيد المهتم بتاريخ وسكان المنطقة وقد تطرق إلى الإمبراطورية الرومانية التي استولت على بلاد المغرب بهدف السيطرة على الثورة الزراعية المتمثلة في القمح[2]،ثم تطرق إلى الوندال الذين زحفوا بعائلاتهم المتكونة من الأطفال والنساء والرجال من إسبانيا نحو شمال إفريقيا للاستيطان بها، إلا أن المؤرخين والمصادر كانت صامتة و لم تدرس هذا الحدث بجدية[3]، وتلتها الفترة البيزنطية التي كانت تمثل تحلل الحضارة الإغريقية الرومانية بسبب سوء التسيير وارتفاع الضرائب ما أدى إلى اندلاع الثورات في كل المناطق[4]، هذه الأسباب كانت كافية لدخول المسلمين خلال القرن 7م دون أي مقاومة، خاصة وأن الجيش البيزنطي كان منهكا بسبب ثورات البربر، ما سمح للمسلمين الفاتحين بالنهب والتقتيل والتخريب [5]، وأخذ الغنيمة على حد تعبيره ، خاصة وأن المنطقة كانت في نظر الفاتحين "مخزن" للثورة، و لم تكن نية الفاتحين والخلفاء لتنظيم أو إلحاق المنطقة[6]. وأمام هذا الوضع اعتنق البربر الإسلام لكي يتخلصون من بطش العرب ويتحررون من نفوذ سلطة الروم[7]، لهذا كان دينهم سطحي لأنهم لم يقتنعوا به فعليا[8]. ثم تطرق المؤلف إلى الهجرة الهلالية خلال القرن 5 هـ، وتحميلها مسؤولية تخريب المدن والاستيلاء على مساحات واسعة من الأراضي[9]. ما أدى بالبربر إلى النزوح نحو المناطق الجبلية، لكي يكونوا بعيدين عن أنظار الهلاليين، ولكن بيهاجل أشار إلى ظهور حرف صناعية والعمل في الزراعة في المناطق الجبلية كنتيجة "للغزو العربي" الهلالي، بعد أن استولوا على الأراضي السهلية البربرية[10].

دائما مع الكتابة الوصفية والعامة فقد أشار الرحالة الفرنسي شارل فرين (Charles Farine) في كتابه من خلال بلاد القبائل *A Travers La Kabylie* إلى أن منطقة بلاد المغرب في الفترة الوسيطة قد غطتها الظلمات لمدة قرون بفعل التقتيل والتخريب على يد العرب الفاتحين خلال القرن 7م[11] وكذلك هوالشأن بالنسبة لـ ألفريد نتمون (Alfred Nettement) الذي أصدر كتاب بعنوان *Histoire de la*

---

1 - *Ibid.*, p. 72.
2- A. Behaghel, *L'Algérie*, Alger, Tissier, 1864, p. 6.
3- *Ibid.*, p. 9.
4 - *Ibid.*, p. 12.
5 - *Ibid.*, p. 12.
6 - *Ibid.*, p. 13
7 - *Ibid.*, p. 13.
8 - *Ibid.*, p. 13.
9 - *Ibid.*, p. 338.
10 - *Ibid.*, p. 14-15.
11 - Charles Farine, *A Travers la Kabylie*, Paris, Ducocq, 1865, p. 12.

conquête d'Alger "تاريخ فتح الجزائر"، والذي أشار من خلاله إلى الحقد والصراع الديني بين الإسلام والمسيحية باسم الحضارة[1]، ضد العصبية المتوحشة للإسلام، وها هي الحضارة الغربية قد رجعت من جديد لإفريقيا بفضل فرنسا، خاصة وأن الحضارة المسيحية كانت مزدهرة في الفترة الرومانية أين كان علم المسيحية في هيبون (عنابة) يلمع[2].

وحتى لوجيه دوتاسي (Laugier De Tassy) الذي تطرق في كتابه إلى مملكة الجزائر، فقد أشار إلى التاريخ القديم للمنطقة وتعاقب الحضارات عليها خاصة الرومانية التي يرجع لها الفضل في نشر الديانة المسيحية خلال القرن 4م. ما أدى إلى ازدياد عدد الأساقفة[3]، ثم الوندالية التي حملها مسؤولية تخريب المدن، وتحطيم الحضارة الرومانية في المنطقة [4]، فقد سيطر وهيمن الوندال بفضل العنف والقوة[5] أما العرب الفاتحين فقد استولوا وحطموا ونهبوا كل المنطقة بحجة نشر الدين الإسلامي[6]، ولكن سلطة العرب لم تدم طويلا فسرعان ما استطاع البربر أن يسترجعوا حريتهم واستقلالهم بعد أن طردوا العرب بفضل الدول البربرية المستقلة التي ظهرت منذ القرن 5 هـ[7].أما التركيبة البشرية للمنطقة خلال الفترة الوسيطة فهي من البربر السكان الأصليين وهم ينقسمون إلى عنصرين، العنصر الأول يقطن بالمدن والثاني يقطن بالأرياف [8]، أما العرب فهم الغزاة فلم ينصهروا مع البربر [9]، بالرغم من اعتناقهم الإسلام.

وبداية من سنوات الستينات من القرن 19م، بدأت تتضح ملامح بعض الدراسات المتخصصة التي شملت جوانب عديدة من الحياة التي تخص الجزائر في الفترة الوسيطة، شملت الاقتصاد، والتركيبة البشرية بالتركيز على العنصر البربري، من خلال دراسات تزعم انتماءه للضفة الشمالية للبحر المتوسط، بالإضافة إلى إكمال الأعمال التي تخص اللهجات واللغة العربية والتي قد بدأت فرنسا التركيز عليها في القرن 19م. أهمها ما قدمه دوماس لاتري (De Mas Latrie) سنة 1866 وهو عبارة عن دراسة اهتمت بالعلاقات الاقتصادية لبلاد المغرب، الأوسط منه على وجه الخصوص، مع أوروبا المتوسطية. فقد قام دوماس لاتري برحلة بحث في الأرشيف والوثائق بين سنتي (1841-1842) بإيطاليا قصد الحصول والإطلاع على الوثائق التي ترجع للفترة الوسيطة[10]، بالإضافة إلى المعلومات التي تخص العلاقات بين العرب والمسيحيين على المستوى الدبلوماسي والاقتصادي التي جمعها المستشرق الفرنسي سلفستر دوساسي (Silvestere De Sacy)[11]،

1 - M. Alfred Nettement, *Histoire de la conquête d'Alger*, Paris, Jacques Le Coffre, 1867, p. 4.
2 - *Ibid.*, p. 5.
3 - Laugier De Tassy, *Histoire du royaume d'Alger*, Amsterdam, MDCC.XXV, p. 88.
4 - *Ibid.*, p. 6.
5 - *Ibid.*, p. 7.
6 - *Ibid.*, p. 7.
7 - *Ibid.*, p. 8.
8 - *Ibid.*, p. 53.
9 - *Ibid.*, p. 68.
10 -M Louis De Mas Latrie, *Traités de paix et de commerce, et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge*, Paris, 1866, p.2.
11 - *Ibid.*, p. XI.

لأن دراسة الماضي من خلال الوثائق والاتفاقيات يمكن من وضع واقع الإدارة والحضارة لهذه المنطقة خلال الفترة التي سبقت الأتراك، [1] التي من خلالها يمكن لنا رسم صورة العلاقات الأوروبية المسيحية مع الإمارات الإسلامية.[2] ومن خلال الإطلاع على هذه الوثائق يتمكن الباحث من معرفة المناخ السياسي الذي أدى إلى عقد هذه الاتفاقيات في جو يسوده التسامح الديني لمدة تزيد عن 500 سنة بين المسيحيين والعرب.[3] وحتى في ظل التوتر العسكري كانت هناك اتفاقيات تجارية بين تجار إيطاليا وفرنسا مع الإمارات البربرية[4]، وقمة هذا التواصل بين ضفتي المتوسط ، تجسد في التعيين للأساقفة من طرف البابا في شمال إفريقيا[5]،والرسائل المتبادلة بين البابا جريجوار السابع والأمير الحمادي الناصر بن علناس[6].

بدأ دوماس لاتري كتابه بمقدمة تاريخية حاول من خلالها رسم معالم الفتح الإسلامي للمنطقة، فقد أشار إلى القرن 7م أين شهدت جزيرة العرب خروج عدد كبير من الجند نحو الغرب [7]، فقد استطاعوا في مدة قصيرة من السيطرة على معظم المدن الساحلية لشمال إفريقيا [8]. وما ميز العمليات العسكرية لجيش المسلمين على حد تعبيره أنها كانت عنيفة وعمياء[9]، وذكية في المناطق التي كانت تريد أن تسيطر عليها[10]، لكن هدف الفاتحين كان للتوسع أكثر نحو الغرب من أجل الغنيمة والنهب، وفرض الجزية على السكان بالقوة ، ونية نشر الفكر الديني[11].أما اعتناق البربر للإسلام فقد ربطه بالتشابه مع العرب من الناحية الجسمية، ولطموحاتهم داخل الجيش، ورغم هذا فقد بقيت الديانة المسيحية، بالرغم من القوة التي اجتاح بها حسان بن النعمان وموسى بن نصير المنطقة، وهذا ما نقله دوماس لا تري عن نص التيجاني الذي يعود إلى القرن (8هـ/ 14م) الذي يشير بأن الكنائس في المناطق المفتوحة بقيت قائمة، حتى تقلص عدد المسيحيين في ظل انتشار الإسلام ما جعلها تسقط وتنهار بفعل الزمن والمناخ[12]. وبعد أن استوطن الإسلام وتعزز وجوده في المنطقة، جعلها تسقط في الفوضى خلال القرنين 8 و11م بسبب الثورات والحروب المتتالية للبربر، وهجمات النورمان العنيفة التي خربت وأحرقت المدن الساحلية والأرياف، ما جعل بلاد المغرب تتراجع حضاريا.

في ظل هذا التوتر كانت هناك علاقات تجارية بين المسلمين والمسيحيين، وبفضل المبادلات بين التجار الأوروبيين والمغاربة جعل المنطقة تزدهر خلال القرنين 10و11م من خلال ما كتبه المستشرق الإيطالي

---

1 - *Ibid.*, p. I'
2 - *Ibid.*, p. II.
3 - *Ibid.*, p. II.
4 - *Ibid.*, p. III
5 - *Ibid.*, p. III.
6 - *Ibid.*, p. V
7- *Ibid.*, p. 2.
8- *Ibid.*, p. 2.
9 - *Ibid.*, p. 3.
10 - *Ibid.*, p. 3.
11 - *Ibid.*, p. 2.
12 - *Ibid.*, p. 4.

ميشال أماري (Michele Amari) الذي بدوره أخذ عن الجغرافيين العرب، مثل البكري وابن حـــــوقل والإخباري ابن عذاري المراكشي، الذين أشاروا إلى وجود المزارع المتنوعة وكثرة إنتاج الزيتون والتمور ما جعل موانئ المغرب الأوسط على وجه التحديد تشهد رواجا للسلع بفضل المبادلات والمقايضة التجارية مع تجار جنوه، ما جعلها تعرف ازدهارا كبيرا[1].

وأرجع دوماس لا تري انحطاط وتراجع المنطقة إلى الغزوة الهلالية خلال القـــرن (5هـــ/11م)[2]، حيث قدر عدد المهاجرين بحوالي مليون شخص[3]، الذين نزحوا بنسائهم وأطفالهم وقطعان ماشيتهم الذين كانوا سببا في تخريب المنطقة[4]، وغرس عنصر بشري جديد[5]،وتغيير البنية الاجتماعية للمنطقـــة. فهـــذه الموجة من البدو الهلاليين لم يستطيعوا تكوين كيان سياسي لأنهم افتقدوا قائدا قادرا علـــى تـــسييرهم[6]، واكتفوا بعقد تحالفات مع الأمراء وتقديم المساعدات العسكرية.

في نفس المجال أصدر أرنست نيس (Ernest Nys) دراسة تخص تطور الجانب الاقتـــصادي ودور المدن في ذلك، كما أشار إلى دور العرب الإيجابي بعد أن توسعت الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية[7]، فقد أكّد أن الفتح ونشر الدين الإسلامي ساهم في تطور وازدهار التجارة خلال الفترة الوسيطة[8]، خـــصوصا بعد تنشيط حركة المبادلات مع أوروبا المتوسطية[9]، حتى أن بلاد المغرب خلال القرن (5هـ/11م) شهدت ازدهارا كبيرا بفضل إنتاج الحبوب والزيت والقماش[10].

كما اتجهت الكتابات الفرنسية خلال هذه الفترة إلى دراسة التركيبة البشرية للجزائـــر، وبـــذلك ظهرت دراسات عديدة وكثيرة ومتنوعة في نهاية القرن 19م، خاصة وأنها قد ركزت بحوثها حول العنـــصر البربري، وبداية الترويج للدعاية الفرنسية، القائلة بأصولهم الأوروبية.

من أهم الكتابات التي عالجت هذا الموضوع نجد بورقينة (M. Bourguinat)، الذي كان عـــضوا في لجنة الاستكشافات العلمية لشمال إفريقيا، فقد أصدر دراسة قصيرة سنة 1868م تخص آثار منطقة الركنية، حيث أشار في مقدمتها أن الجزائر أرض الميعاد بالنسبة للأثريين، لما تزخر به من بقايا أثرية[11] كثيرة جـــدا ومتواجدة عبر كامل المناطق، ترجع للفترة القديمة، أما فيما يخص دراسته فقد خصصها للآثـــار الجنائزيـــة الموجودة بكثرة في الجزائر، وتوصل إلى أنها للقبائل البربرية[12]، التي كانت تحت سيطرة جـــنس يـــدعى

---

1 - *Ibid.*, p. 13.
2 - *Ibid.*, p. *Ibid.*, p. 13.
3 - *Ibid.*, p. 13.
4 - *Ibid.*, p. 14.
5 - *Ibid.*, p. 14.
6 - *Ibid.*, p. 15.
7 - Ernest Nys, *Recherche sur l'histoire de l'économie politique*, Paris,1898, p. 7.
8 - *Ibid.*, p. 8.
9 - *Ibid.*, p. 9.
10 - *Ibid.*, p. 11.
11 - M. Bourguinat , *Souvenir d'une exploration scientifique dans le Nord de l'Afrique. Histoire des monuments mégalithiques de Roknia près de Hammam Meskhoutin*, Paris, Challamel, p 7.
12 - *Ibid.*, p. 7.

أرياس[1] (Arias) الذي ينحدر من أوروبا، قادما من إيطاليا عبر صقلية، الذي فرض على البربر طريقة الدفن والطقوس[2]، وتمكن من العثور على هيكل عظمي داخل إحدى القبور، ومن خلال الدراسة تبين أنه ينتمي للجنس المصري ، وهذا ما جعله يؤمن بهجرة أفراد من مصر[3] نحو بلاد المغرب.

أما بيريي (Perier) فقد أصدر سنة 1873م دراسة تخص البربر،مشيرا في نفس الوقت إلى الصعوبات التي تواجه الباحث بسبب نقص المصادر، ولإثراء دراسته اعتمد على مجموعة من المعطيات التاريخية والأثرية، ليؤكد بأن البربر عنصر دخيل على المنطقة. فقد اعتمد على الألواح المصرية القديمة التي تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد [4] التي تشير إلى هجرة بشرية كبيرة على مصر من الناحية الغربية لجنس ذو ملامح بيضاء[5]،ثم تطرق إلى الإخباري بروكوب الذي أكد وجود جنس أبيض البشرة بالقرب من الأوراس، وحتى قبور الدولمان الجنائزية المنتشرة في الجزائر الشبيهة بالتي في فرنسا، كانت من الأدوات التي استغلها بيريي لإثبات فرضية الهجرة من أوروبا نحو شمال إفريقيا، خاصة وأن شارل فيرو (Charles Féraud) أكد بأن هذه القبور للجنس السلتي (Les Celtes) الذي غزا إسبانيا ثم عبر البحر نحو إفريقيا[6]. وفي أواخر القرن التاسع عشر جاء ألكسندر بابيي (Alexandre Papier) ليؤكد ما ذهب إليه بيريي، حيث أشار إلى وجود جنس أبيض يقطن منطقة منعة في الأوراس يشبهون كثيرا الأوربيين[7]. وقد يكونون من أحفاد الجيش الروماني "الفيلق الثالث لأوغسط "(La Troisième Légion d'Auguste) الذي جاء إلى المنطقة خلال القرنين الثاني والثالث الميلادي[8] ،وحتى قبور الدولمان الموجودة في الجزائر أكد بابيي مدى تشابهها مع القبور الموجودة في إسبانيا والدانمارك[9]،ليثبت التقارب بين الجنسين من منظور المشروع الفرنسي الذي يريد دمج واحتواء البربر في الحضارة الغربية.

أما هودا (Houdas) فقد عزز الدراسات البشرية للجزائر من خلال كتابه إثنوغرافية الجزائر (*Ethnographie de l'Algérie*) ، الذي تطرق فيه إلى العوامل التي ساعدت في تكوين الجزائر بشريا، ومن بينها الهجرات المتعاقبة للحضارات، فقد تطرق إلى ماضي المنطقة من خلال تناول قضية الجنس الذي استوطنها، مشيرا إلى احتمال المجيء أو التروح من أوروبا عبر إسبانيا و ما الآثار الجنائزية إلا دليل على هجرة آرية[10] ، وما يثبت ذلك في نظره التشابه بين القبور في الجزائر والتي في إسبانيا فهي تنتمي لنوع واحد[11].وبعدها تلتها هجرات مختلفة بداية من الفينيقيين والرومان اللذان لم يتركا سوى الشواهد الأثرية،

---

1 - *Ibid.*, p. 57.
2 - *Ibid.*, p. 98.
3 - *Ibid.*, p. 99.
4 - Jean Perier, *Des races dites Berbères et leur ethnographie*, Paris, Hennuyer, 1873, p. 7.
5 - *Ibid.*, p. 8.
6- *Ibid.*, p. 11.
7- Alexander Papier, *Menaa et un groupe de danseuses des Oulad Abdi*, Paris, 1895, p. 3.
8- *Ibid.*, p. 4.
9- *Ibid.*, p. 5.
10- O. Houdas, *Ethnographie de l' Algérie*, Paris, Leclerc, p. 24.
11- *Ibid.*, p. 28.

ثم تلتها الفترة الإسلامية التي أثرت في المنطقة بفعل الفتح خلال القرن السابع الميلادي والهجرة الهلالية في القرن 5هـ/11م من خلال انتشار الدين واللغة بين البربر بالرغم من المقاومة العسكرية والثقافية[1]. كما حاول هودا في أخر دراسته التركيز على الفوارق الاجتماعية بين البربر والعرب، وحتى إسلام البربر من منظوره كان سطحيا لأنهم لم يعتمدوا على الفقه الإسلامي بل اعتمدوا على القانون والعرف البربري لتسيير شؤونهم[2].

في نفس الفترة دائما نشر بومال (Pomel) دراسة اجتماعية لخدمة المشروع الفرنسي في الجزائر، القائم على التفرقة بين العرب والبربر، من خلال إثارة فكرة العداء الأزلي بينهما. فقد حمّل العرب مسؤولية تراجع المنطقة من خلال إهمالهم للثروة الزراعية الموروثة عن الحضارة الرومانية[3]، ما جعل المناطق الزراعية الخصبة تندثر بعد أن كانت في الفترة الرومانية توصف بمطمورة روما"Le grenier de Rome" [4] كما أشار إلى إمكانية التقارب بين البربر والحضارة الفرنسية بسبب الموروث والمعتقد الروماني الذي لا يزال راسخا لدى البربر[5].

ألهمت كتابة تاريخ الجزائر المختصين وغير المختصين، فحتى رجال السياسة الفرنسيين استطاعوا من خلال زيارتهم للجزائر الإطلاع أكثرا على واقعها، من خلال زياراتهم ضمن الرحلات البرلمانية، فقد نشر بول بورد (Paul Bourde) كتابه عبر الجزائر *A Travers l'Algérie* والذي حاول من خلاله إبراز دور فرنسا الحضاري في الجزائر عن طريق استغلال ثرواتها الطبيعية والبشرية من أجل التطور خاصة وأنها غير قادرة بسبب التخلف الذي آلت إليه المنطقة[6]، بعد أن كانت مزدهرة بفضل الزراعة المتنوعة ما أدى إلى تطور في الإنتاج الفلاحي خلال الفترة الرومانية، ولكن سرعان ما تراجعت المنطقة بفعل الفتح الإسلامي في القرن السابع الميلادي، الذي ترتب عنه تخريب كل ما بنته أيادي الروم[7].

كما حاول بورد لفت انتباه السلطات الفرنسية من خلال معالجته قضية سكان منطقة القبائل ومدى تشابههم الفيزيونومي مع الأوروبيين، وحتى طريقة عيشهم اليومية من خلال العمل في حقول الزراعة وداخل الورشات قد تسهل دمجهم داخل المجتمع الفرنسي. ولإنجاح مشروع فرنسا الاستعماري في الجزائر، يجب دمج البربر داخل المجتمع الفرنسي، ومن هذه الزاوية تطرق جيل ليورال (Jules Liorel) إلى منطقة القبائل، التي كان يرى فيها مفتاح الجزائر من خلال دمج سكانها ثقافيا لا سيم وأن إسلامهم سطحي[8]. أما ماضي المنطقة فقد حاول الإشارة إلى الحضارات التي تعاقبت عليها، بداية من الرومان التي انتشرت من

---

1 - *Ibid.*, p. 103.
2- *Ibid.*, p. 110.
3- A. Pomel, *Races indigènes de l'Algérie. Arabes, Kabyles, Maures, et Juifs*, Oran, 1871, p. 17.
4- *Ibid.*, p. 18.
5- *Ibid.*, p. 60.
6- Paul Bourde, *A Travers l'Algérie. Souvenir de l'excursion parlementaire 1879*, Paris 1880, p. 48.
7- *Ibid.*, p. 162.
8- Jules Liorel, *Races berbère, kabyle du Djurdjura*, Paris, Ernest Leroux, p. 445.

خلالها المدن الرومانية، ثم الفـــــترة الوندالية ودخول المذهب الأريوسي الذي كان سببا في اندلاع الثورات، أما الفترة البيزنطية فقد تميزت بالضعف والفساد ما أدى إلى اندلاع الثورات[1]. في ظل هذه الفوضى تمكن القادة المسلمون من إخضاع المنطقة لسلطة الخلافة ما ترتب عنه تخريب المدن البربرية[2]. أما الفترة التي تلت الفتح فـــقد تميزت بالفوضى والثـــورات، التي غذتها أفكار الخوارج السياسية والاجتماعية التي تبناها البربر للتخلص من سيطرة العرب[3].

ومع نهاية القرن 19م بدأت توجهات جديدة في دراسة تاريخ المغرب الأوسط، بتسليط الضوء على المذهب الإباضي من خلال دراسة بار زايس (Pare Zeys) الذي قدم دراسة تخص التنظيم الإباضي في منطقة ميزاب، والتي حاول من خلالها توضيح كيفية دخول فكر الخوارج لبلاد المغرب خلال الفترة الوسيطة[4]، خاصة وأن المنطقة كانت الأرضية المناسبة لغرس أفكارهم السياسية والاجتماعية، التي كانت تتعارض مع سلطة الخلافة. من هـــــذا الباب تبنى البربر هذا الفكر للتخلص من سلطة الولاة، وتحقق ذلك عن طريق عبد الرحمن بن رستم الذي أسس الدولة الرستمية[5].

وتزامنت الكتابات العامة مع الانتشار التدريجي للكتابات التاريخية الأكثر أكاديمية أو بالأحرى الأكثر احترافية، خصوصا مع أرنست مرسيي (Ernest Mercier)، الذي حاول تسليط الضوء على الملكية عند المسلمين الجزائريين، خاصة وأن قوانينهم مستوحاة من القرآن والسنة، ولفهم واقع الملكية يجب دراسة التشريع الإسلامي والرجوع إلى العهود الأولى للإسلام وكيفية تعامل الفاتحين مع المناطق المفتوحة، وكيفية تقسيم الأراضي وفرض الضرائب، وكيف كان وضع الممتلكات لأهل الذمة[6].

وأكملت الدراسات اللغوية المشروع الثقافي الفرنسي في الجزائر من خلال مجموعة من المهتمين، من خلال تكوين جيل من المختصين يتقنون اللغة العربية، للبحث عن الكتب والمخطوطات العربية، وتجلى ذلك عن طريق رونيه باسي (René Basset) في أواخر القرن 19م، حيث أوكلت له مهمة من الحكومة الفرنسية سنة 1885م بهدف البحث عن المصادر العربية في الزوايا والواحات ودراسة اللغة البربرية الزناتية في منطقة ميزاب وورقلة [7]، خاصة وأن هذه لغة الإباضيين الميزابيين، وبحكم احتكاك الإدارة الفرنسية بالإباضيين بعد توقيع معاهدة الحماية سنة 1853م، جعلها تهتم أكثر بدراسة اللغات. واستطاع باسي عقد مقارنة بين الكتابة البربرية التي اعتمدتها فرنسا وبين لغة ورقلة واللغة الفرنسية، معتمدا في ذلك على قاموس بربري[8].

1- *Ibid.*, p. 121.
2- *Ibid.*, p. 122.
3- *Ibid.*, p. 124.
4- Pare Zeys, *Législation mozabite, son origine, ses sources*, Alger, 1886, p. 17.
5- *Ibid.*, p. 50-58.
6- Ernest Mercier, *La propriété foncière chez les musulmans d'Algérie*, Paris, Ernest Leroux, p. 8.
7- René Basset, *Etude sur la Zenatia du Mzab, de Ouargla et de l'Ouled-Rir*, Paris, Ernest Leroux, 1893, p. V.
8- *Ibid.*, p. IX.

وقد سبق كل من هودسون (Hodgson)، وهانوتو (Hanoteau)، باسي في دراسة اللغة البربرية وقواعدها من قبل.

كما نشر سنة 1898م وثيقة جغرافية تخص إفريقيا الساحلية ترجمها للغة الفرنسية، والتي من خلالها أكد على ضرورة الاهتمام بالفترة الوسيطة، وأهمية المصادر الجغرافية العربية لدراسة هذه الفترة[1].

وفي سنة 1897م نشر موريس وال Maurice Wahl كتاب تاريخي تطرق فيه لأهم مراحل الجزائر التاريخية، فقد أشار إلى قبور الدولمان الجنائزية الموجودة في الجزائر والتي أرجع إنشاءها لبربر ذوي الملامح البيضاء الذين نزحوا من بلاد الغال (La Gaule) نحو إسبانيا ثم منطقة المغرب، كما شهدت المنطقة هجرات سكانية منذ القدم وانتهت بالانصهار[2] ، وكونت هذا العنصر البربري الذي لم يتأثر بالفينيقيين والرومان. أما الفتح الإسلامي فقد كان سريعا وعنيفا في مواجهة الحاكم البيزنطي جرجير، الذي لم يستطع هزم جيش المسلمين ما أدى إلى سقوط وتخريب المدن والقرى، وبعد رجوع الجيوش نحو المشرق تفطن الخلفاء إلى ثراء وغنى المنطقة، ما جعلهم يبعثون أعداد كبيرة من الحملات قصد الاستيلاء على الأموال وخيرات المنطق.[3] ولكن كل الفضل يرجع إلى عقبة بن نافع الذي استطاع الوصول إلى أقصى الغرب هازما كل المقاومات المحلية، بالإضافة إلى بناء قاعدة القيروان التي كانت منعرجا في عملية الفتح[4].

إسلام البربر أرجعه أساسا إلى بساطة هذا الدين الذي يقوم على المساواة ولا يميز بين المسلمين، ولا يفرض الضرائب كما كانت تفعل الإدارة الرومانية والبيزنطية[5]. أما تراجع المنطقة فقد ربطه بثورات البربر ضد سلطة الولاة بعد دخول فكر الخوارج، وبفعل الهجرة الهلالية التي خربت المنطقة بعد أن قطعت الأشجار وأحرقت المزارع وهدمت المدن من قبل العرب الهلالية، ما جعل المنطقة تتراجع اقتصاديا بفعل انتشار اللصوصية، والقضاء على الأراضي الخصبة[6].

كما انتشرت مؤلفات في شكل موسوعات، تطرقت إلى تاريخ المغرب الأوسط عبر العصور وكانت في الغالب أدوات يحتاج إليها كل فرنسي قصد التعرف على تاريخ هذه المنطقة وجغرافيتها[7]، وهذا ما تجلى عند فيكتور برار (Victor Bérard)، الذي أصدر كتاب يشير إلى كل مناطق الجزائر تاريخيا وجغرافيا[8].

1- René Basset, *Documents géographiques sur l'Afrique septentrionale*, Paris, Ernest Leroux, 1898, p. 1.
2- Maurice Wahl, *L'Algérie*, Paris, Félix Alcan, 1897, p. 58.
3- *Ibid.*, p. 84.
4- *Ibid.*, p. 85.
5- *Ibid.*, p. 86.
6- *Ibid.*, p. 91.
7- *نشرت أندروز تارديو* Androise Tardieu كتيب يهتم بالماضي الروماني لمنطقة باتنة، وخاصة تيمقاد التي وصفتها بـ بومبي Pompéi الجزائرية.
8- Victor Bérard, *Indicateur de l'Algérie. Description géographique, historique et statistique de toutes les localités*, Alger, Bastide, 1858.

إن الدراسات التي خصت الفترة القديمة كانت كثيرة ومتنوعة بسبب توفر النصوص والمخلفات الأثرية، ولكن الدراسات الوسيطة بقيت منحصرة بالمعلومات العامة والقليلة وهذا ما يميز تقريبا جل الدراسات خلال هذه الفترة، وهذا ما أشار إليه باسي. ولكن لا يمكن أن ننسى ما قدمه البعض من الفرنسيين في دراسة الفترة الوسيطة أمثال مارسيي، كرات (Carette)، وفورنال (Fournel) الذين أثروا الدراسات في المراحل اللاحقة من خلال دراساتهم وإنتاجهم التاريخي المهم.

3- الكتابات المتخصصة

كان لإنشاء المؤسسات العلمية كالجمعية التاريخية الجزائرية (Société Historique Algérienne)، والمؤسسة الأثرية لمقاطعة قسنطينة (Société Archéologique de Constantine)، ونشرية أكاديمية هيبون (Bulletin d'Académie d'Hippone)، الفضل في البحث المعمق حول تاريخ المغرب الأوسط وتاريخ الجزائر بصفة عامة. وقد ساهمت هذه المؤسسات العلمية في تكوين مجموعة من الفرنسيين المتخصصين في اللغة العربية واللغات البربرية وإرسالهم في مهمات للبحث عن المخطوطات العربية التي تؤرخ للفترة الوسيطة [1].

برزت خلال النصف الثاني من القرن 19م، مجموعة من الكتابات المتخصصة التي حاولت دراسة تاريخ المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة، معتمدة على المصادر العربية الإخبارية والوصفية أهمها كتاب العبر لابن خلدون، الذي تم استغلاله وتوظيفه لتسليط الضوء على أهم المنعرجات التاريخية لهذه المنطقة. فهذه الكتابات الأولى حملت الفتح الإسلامي مسؤولية تراجع المنطقة، ونعت قادته بالقتل والتخريب[2]. ومن أهم الذين جسدوا هذا التوجه كرات (Carette)، الذي كان أحد أعضاء البعثة الاستكشافية العلمية للجزائر خلال 1840-1842م، الذي أصدر كتابه سنة 1853م محاولا من خلاله تسليط الضوء على التركيبة البشرية للمنطقة قبل وأثناء وبعد الفتح، معتبرا الفتح الإسلامي للمغرب مؤشرا لبداية تغير وجه المنطقة، ليس على الجانب الاجتماعي فحسب بل حتى على جغرافيتها، بعد أن كانت تعتمد على المدن في التنظيم الإداري في الفترة القديمة، أصبحت تعتمد على القبائل وتوزيعها في الفترة الإسلامية[3]. فالفتح الإسلامي للمنطقة كان سهلا بسبب انعدام جيش بيزنطي أو محلي منظم، خاصة في ظل التنافر والاحتقان بين البربر والبيزنطيين، بسبب تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للبربر جراء السياسة البيزنطية[4]. فالحملات الأولى للجيش الإسلامي لم تكن بنية الاستقرار وتنظيم المنطقة، بقدر ما كانت أعمال عصابات منظمة الهدف من ورائها الغنيمة والتخريب والنهب، مثلما كانت عليه حملة عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي

1- René Basset, *op. cit.*, p. 1.

2- عمارة علاوة، المرجع السابق، دراسات، ص. 48.

3- E. Carette, *Recherche sur l'origine et les migrations des principales tribus de l'Afrique septentrionale. Exploration scientifique et particulièrement de l'Algérie*, Paris, Imprimerie Impériale, 1853, p. 13.

4- *Ibid.*, p. 320.

سرح، وكذلك هو الشأن بالنسبة لحملة معاوية بن حديج الذي استطاع أن يقضي على بعض الحصون البيزنطية في إفريقية وأسر عدد كبير من البيزنطيين والبربر[1].

أما النقلة النوعية لسياسة الفتح ارتبطت بشخصية عقبة بن نافع الذي أراد الاستقرار في المنطقة من خلال بناء قاعدة القيروان ليكون قريبا من البربر الذين كانوا يرتدون كلما رجعت الجيوش الإسلامية إلى المشرق، لهذا أراد تعزيز وفرض الإسلام على البربر بحد السيف مستعملا القوة والترهيب، ما جعل جل المؤرخين القرطسيين وعلى رأسهم كرات يصفونه في كتاباتهم بالمتعصب[2]. أما إلحاق المنطقة بسلطة الخلافة كان على يد حسان بن النعمان الذي استطاع القضاء على آخر معقل للروم، بعد أن حطم وخرب مدينة قرطاج ما جعل سكانها يفرون نحو صقلية وإسبانيا، وبعدها بدأ في تنظيم الخراج. وبذلك دخلت بلاد البربر ضمن فلك الحضارة الإسلامية ما جعلها تتراجع حضاريا بسبب حروب الفتح والفوضى وثورات البربر ضد سلطة الولاة الذين لم يحسنوا معاملتهم بعد أن فرضوا عليهم الجزية وكأنهم غير مسلمين، مثل يزيد بن أبي مسلم[3].

ومن الأحداث التاريخية الهامة التي أثرت على مصير المنطقة الهجرة الهلالية خلال القرن 5 هـ/11م، التي ترتب عنها دخول البدو الرحل من عرب بني هلال وبني سليم الذين قدر عددهم "بمليون شخص" والذين عاثوا فسادا وتخريبا ونهبا في بلاد المغرب، بقطع الأشجار وتهديم المدن ونهبها، وحتى القرى والمزارع لم تسلم، ما دفع بالبربر إلى الفرار والهروب نحو الجبال والصحراء، تاركين المنطقة للعرب البدو للاستقرار والاستيطان ، الشيء الذي أدى إلى تغيير البنية الاجتماعية للمنطقة من خلال فقدان بعض القبائل البربرية موطنها الأصلي كقبيلة أزداجة التي رحّلت من الأوراس وقبيلة أوربة التي هجرت نحوالمغرب الأقصى بالإضافة إلى تأثر البربر بعادات وتقاليد العرب من خلال الاحتكاك والمصاهرة[4].

وبدراسة أكثر تاريخية للفتح تطرق المهندس والضابط في الجيش الفرنسي هنري فورنال (Henri Fournel) للعمليات الفتح الإسلامي التي اعتبرها فشلا بالنسبة للخلافة الإسلامية في المنطقة[5]، بحجة أنها الأطول زمنيا مقارنة بالمناطق المفتوحة في المشرق، والسبب يرجع إلى التقطع في الحملات العسكرية على المنطقة بسبب الصراع على السلطة والثورات على مستوى مركز الدولة. ولكن الفضل يرجع في تغيير سياسة الفتح إلى شخصية عقبة بن نافع الذي طبق سياسة العنف والتخويف اتجاه البربر بفرض الدين وإخضاع المنطقة لسلطة الخلافة ، من خلال بناء قاعدة القيروان، ووصوله إلى أقصى الغرب حتى المحيط بعد أن فشلت المقاومة البيزنطية البربرية في صد مسيرته، هذا ما جعله يختلف عن القادة الذين سبقوه من قبل

1- *Ibid.*, p. 319-322.
2- *Ibid.*, p. 323-341.
3- *Ibid.*, p. 346.
4- *Ibid.*, p. 398.
5- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954، الجزء الخامس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 2005، ص. 309.

أمثال عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي سرح اللذان حاولا من خلال حملاتهم العسكرية كسب الغنيمة ونهب المنطقة، دون التفكير في تنظيمها وإلحاقها إداريا[1]. ثم يأتي دور حسان بن النعمان في إخضاع المنطقة بالرغم من هزيمته ضد الكاهنة في حملته الأولى التي مني فيها بخسارة كبيرة وأسر عدد من جنوده ما جعله ينسحب إلى ما وراء قابس، إلا أنه استطاع بعد خمس سنوات القضاء على الكاهنة بمنطقة الأوراس، بعد وصول المدد من الجند. وبعدها بدأ في تنظيم المنطقة من خلال وضع ديوان الخراج، وبهذا تكون المنطقة قد أصبحت جزء من ملك الدولة الأموية[2].

فدراسة فورنال مهمة لأنها سلطة الضوء على مرحلة هامة من تاريخ بلاد المغرب التي كانت مبهمة في الكتابات الفرنسية السابقة، وما يأخذ عليه أنه ربط تراجع المنطقة بفعل الفتح الإسلامي الذي جعل المنطقة مسرحا للحروب بين جيش المسلمين وجيش البيزنطيين والمقاومة البربرية، إلا أنه تناسى دور الكاهنة في تخريبها إذا ما صدقنا ببعض الروايات العربية.

أما الكتاب الثاني الذي نشره فورنال، فقد حاول من خلاله لفت انتباه الحكومة الفرنسية إلى ضرورة دمج وتقريب العنصر البربري من المجتمع الفرنسي، لما يحمله من طباع إيجابية من خلال عمله داخل الحقول والورشات عكس العنصر العربي الذي يتميز بالخمول وعدم الجدية. إشارة فورنال لهذه النقطة كان نتيجة لاحتكاكه مع سكان منطقة بجاية بفعل المهمة التي أوكلت إليه من طرف الحكومة الفرنسية للتنقيب والبحث عن المناجم وكيفية استخراج المياه الجوفية[3].

فالكتاب يحمل دراسة أشمل من التأليف الأول الذي نشره سنة 1857م من حيث الطرح والمعالجة، خاصة وأنه اعتمد على المصادر الأوروبية والعربية التي تم ترجمتها ونشرها، والتي من خلالها حاول توضيح المعالم التاريخية لبلاد المغرب الأوسط انطلاقا من الفترة القديمة، مشيرا إلى الفترة القرطاجية، ثم أعطى صورة للفترة الرومانية المتأخرة التي كانت تمتاز بالفوضى جراء الحركة الدوناتية والتي جعلها أحد أسباب انهيار مجد روما في المنطقة، أما الفترة الوندالية فقد حاول من خلالها توضيح التحالف البربري الوندالي الذي ترتب عنه تخريب المدن والقرى، وحتى الفترة البيزنطية شهدت هي كذلك اضطرابات وثورات بسبب تعسفها وتحقير البربر من خلال استغلالهم كالعبيد في المزارع وبفرض الضرائب الباهظة عليهم[4].

أما الفتح الإسلامي في نظره، فقد أقترن بمجموعة من القادة الفاتحين الذين اختلفت سياستهم العسكرية في المنطقة بين من كان يطمح للنهب والغنيمة، ومنهم من كان يريد نشر الدين وإخضاع المنطقة. فحملة عبد الله بن أبي سرح في إفريقية ضد الحاكم البيزنطي جرجير المنشق عن سلطة القسطنطينية، لم تكن

1- Henri Fournel, *Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes, Paris, Imprimerie impériale*,1857, p. 14-27.
2- *Ibid.*, p. 39-46.
3- Henri Fournel, *Les Berbères. Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes d'après les textes arabes imprimés*, Paris, Imprimerie nationale, 1875, t. I, p. I.
4- *Ibid.*, p. 42-81.

بنية تنظيم وإلحـــاق المنطـــقة بل كان الهـــــدف منها الغنيمة والنهب، بالرغم من هزيمة ومقتل الحاكم والاستحواذ على منطقة كبيرة، ومن الحملات التي كان لها دور في استقرار العرب في المنطقة حملة عقبة بن نافع الأولى التي حاول من خلالها الاستقرار من أجل نشر الدين وفرضه بحد السيف على القبائل البربرية التي كانت ترتد كلما رجع الجيش الإسلامي نحو الشرق، ما جعله يقوم ببناء مدينة القيروان[1]، كما كان لحملة أبي المهاجر دينار نقلة نوعية في سير عملية الفتح، حيث وصل بحملته إلى تلمسان بعد أن قضى على مقاومة كسيلة وجعله حليفا بعد اعتناقه الإسلام، أما حملة عقبة الثانية فقد كانت الأبرز من حيث التوسع، حيث وصل إلى طنجة بعد أن زرع الرعب والخوف في صفوف البربر والروم انطلاقا من القلاع البيزنطية في منطقة الأوراس، ثم القـــضاء على التحالف البربري البيزنطي بالقرب من تيهرت في طريقه إلى طنجة[2]، وعند عودته إلى مدينة القيروان وبالقرب من منطقة تهودة استطاع كسيلة القضاء على عقبة بن نافع وأبي المهاجر دينار وبعض من جنوده الذين كانوا معه في رحلة العودة إلى القيروان، وبذلك انتصر القائد البربري كسيلة ما جعله قائدا وحاكما للمنطقة بعد دخوله مدينة القيروان وخروج العرب منها[3]. فحكم كسيلة لم يدم طويلا بعد أن وصل زهير بن قيس البلوي ليثأر من مقتل عقبة بن نافع واستطاع أن يقضي على كسيلة وقبيلة أوربة التي هجرت نحو الغرب، وبذلك تلاشى حلم البربر في تكوين دولة بربرية خالصة في المنطقة[4].

أما حملة حسان بن النعمان فقد كانت آخر حملة لإخـــضاع المنطقة، من خلال طرده للبيزنطيين بعد المواجهة العنيفة في قـــرطاج التي بفعلها خربت ونهبت، وتعد معركة حسان مع البيزنطيين نهاية بيزنطة في إفـــريقـــية، وبعدها توجه نحو الأوراس للقضاء على الكاهنة إلا أنه فشل في محاولته الأولى بمعركة وادي نيني حيث انهزم وانسحب، ولكن استطاع الرجوع بعد خمس سنوات لمواجهة الكاهنة مرة ثانية في الأوراس واستطاع أن يقضي عليها، وقد كانت آخر معركة بين العرب الفاتحين والبربر المقاومين[5]. وبعدها توجه إلى تنظيم القيروان من خلال وضع ديوان الخراج ما جعل المنطقة تخضع لسلطة دمشق بعد أن فرض الأمن والسلم. ولكن الفترة التي تلت الفتح كانت متوترة بسبب الثورات التي تبناها البربر ضد الولاة الذين طبقوا سياسة التحقير والإذلال تجاه البربر مثل ما قام به يزيد بن أبي مسلم[6].

وفي الجزء الثاني من كتابه فقد حاول فورنال تسليط الضوء على القبائل البربرية ودورها العسكري والسياسي من خلال كتامة التي بفضلها تمكن المذهب الشيعي من تحقيق حلمه السياسي بتكوين الدولة الفاطمية، كما ساعدت قبيلة كتامة الدولة الشيعية في العودة إلى المشرق، بعد أن منح مشعل تنسير المنطقة

1- *Ibid.*, p. 150-152.
2- *Ibid.*, p. 162-176.
3- *Ibid.*, p. 181-196.
4- *Ibid.*, p. 197.
5- *Ibid.*, p. 211-223.
6- *Ibid.*, p. 253-248.

لقبيلة صنهاجة[1]. وبفعل القطيعة بين الزيريين مع الفاطميين أمر الخليفة الفاطمي المستنصر العرب الهلالية بالخروج نحو إفريقية لتأديب حاكمها، هذا ما جعل المنطقة تسقط كطريدة وفريسة في يد جحافل العرب البدو، بعد أن خربوا المنطقة الممتدة بين برقة وحدود الدولة الحمادية، ونصبوا الخيم، في ظل فشل المقاومة الصنهاجية بسبب الخلاف بين أبناء العمومة[2].

وتواصلت الكتابات المتخصصة للمدرسة التاريخية الفرنسية في النصف الثاني من القرن 19م، وكانت أبرزها لـــ أرنست مارسيي (Ernest Mercier) مترجم الجيش الفرنسي وعضو الجمعية التاريخية الجزائرية والجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة، ومن الوجـــوه البارزة التي ساهمت في الترجمة والكتابة والبحث في الفترة الإسلامية الوسيطة في الجزائر. من أبرز دراساته "تاريخ استقرار العرب في إفريقيا الساحلية" *Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale*، الذي حاول من خلاله تسليط الضوء على استقرار العرب في المنطقة وكيف تحولت بلاد البربر ودخلت في فلك الحضارة الإسلامية[3]، مشيرا في نفس الوقت إلى أن الدراسات في تاريخ وجغرافيا المنطقة كثيرة إلا أنها وجّهت واهتمت بالفترة القديمة متجاهلة الفترة الإسلامية الوسيطة[4].

وبفضل ترجمة بعض المصادر العربية استطاع الاستشراق الفرنسي جمع أهم الأحداث التاريخية الواقعة في الفترة الوسيطة، وخاصة من خلال كتاب "العبر" لابن خلدون الذي بفضله بدأت تتضح ملامح بلاد المغرب الأوسط خلال هذه الفترة، ما جعل المختصين أمثال أرنست مارسيي يهتمون بدراستها ومحاولة فهم الآليات التي ساعدت في تحول المنطقة، ومن خلال دراساته حول تاريخ استقرار العرب أرجع الكيفية التي عرّبت بها المنطقة إلى مرحلتين، الأولى كانت في القرن 7م مع الفتح الإسلامي واستقرار العرب الفاتحين في إفريقية خاصة، ما جعل المنطقة لا تتغير كثيرا، أما المرحلة الثانية كانت في القرن 5هـــ/11م بفعل الهجرة الهلالية التي كانت حدثا استيطانيا وبفعل دخول العرب الهلالية للاستقرار ما ترتب عنه الاحتكاك بين الجنسين ونتج عنه تعريب اللسان وتراجع المنطقة حضاريا[5].

وبمقاربة تاريخية حاول معرفة عملية التأثير والتأثر بين البربر والوافدين على بلاد المغرب عبر العصور، من خلال واقع العلاقات بينهم، البداية كانت مع الفينيقيين الذين انحصر دورهم في مجال التجارة عن طريق المرافئ الساحلية، أما الرومان فقد احتكوا بالبربر بفضل سياستهم الاستيطانية التي حاولوا من خلالها تنظيم المنطقة إداريا واجتماعيا بدمج البربر ضمن حضارتهم، إلا أن حلم الرومان لم يتحقق بفعل

1- Ibid., t. II, p. 47, 109.
2- Ibid., p. 367-371.
3- Ernest Mercier, Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournis par les auteurs arabes et notamment par l'Histoire des Berbères d'Ibn Khaldoun, Constantine, L. Marle Librairie Edition, 1875, p. I.
4- Ibid., p. *II.*
5- Ibid., p. *III-V.*

الحركة الدوناتية التي ثارت على سلطتهم بسبب تردي الأوضاع الاجتماعية، الأمر الذي جعل المنطقة تتراجع وتدخل في طور الفوضى. أما الفترة الوندالية فكانت الأقصر زمنيا واقتصر وجودها على المذهب الأريوسي، في حين أن السيطرة البيزنطية كانت تمثل مرحلة تفكك الحضارة الغربية في المنطقة بسبب ثورات البربر ضدها نتيجة للاحتلال وسوء معاملتهم بفرض الضرائب والاستعباد، ما أدى إلى تدهور المنطقة أمنيا، الأمر الذي جعل المستوطنين يفرون نحو القلاع أو يهاجرون نحو إيطاليا[1]. وبذلك أصبحت الظروف مهيأة "للغزو العربي" في القرن 7م، في ظل تردي الأوضاع السياسية والاجتماعية.

فنجاح الفتح ارتبط بشخصية الرسول - صلى الله عليه وسلّم - الذي استطاع غرس فكرة نشر الدين والجهاد في صفوف أتباعه ما جعل الجيوش الإسلامية الفاتحة تبسط نفوذها في أغلب المناطق المفتوحة[2]. وفيما يخص فتح بلاد المغرب، فقد ارتبط في نظر الكاتب، بالغنيمة والثروة، التي كانت المحرك والدافع من وراء الحملات العسكرية المتتالية على إفريقية، خاصة بعد أن كانت الجيوش ترجع محملة بالغنائم والأسرى ولم تكن نوايا السلطة والقادة الفاتحين تنظيم المنطقة أو إلحاقها[3].

إن المراحل التي مر بها الفتح كانت عسيرة، بسبب الاضطرابات على مستوى مركز الدولة والتنافس على الخلافة، وطبيعة بلاد المغرب الجغرافية والتنوع السكاني، جعلت من قادة الحملات يرجعون نحو المشرق بعد أن يغنموا ويفرضون الجزية، كما هو الحاصل لحملة عبد الله بن أبي سرح (27هـ/648م) وحملة معاوية بن حديج (45هـ/665م)[4]، ولكن التحول في سياسة الفتح وبدايته الفعلية كان مع مجيء عقبة بن نافع الذي سعى إلى تنظيم المنطقة من خلال إخضاعها وفرض الدين الإسلامي، وكان له ذلك بعد بناء قاعدة القيروان لتكون قاعدة للجند، ومن ثم تسهيل مراقبة القبائل البربرية التي كانت ترتد بعد رجوع الجيوش الإسلامية، وبفضل حماسته للدين استطاع التحرك في حملته الكبرى نحو القلاع البيزنطية في الأوراس والتي فشل في اختراقها وتابع حملاته نحو الغرب وصولا إلى "البحر المحيط" بعد أن قضى على مقاومة البربر والبيزنطيين[5]، وبذلك يكون قد مهد الطريق للفتح النهائي للمنطقة الذي تجسد في شخصية حسان بن النعمان الذي جاء لبلاد المغرب للقضاء على الوجود البيزنطي نهائيا وكان له ذلك، بعد أن استولى على مدينة قرطاج والقلاع المجاورة، وبعدها توجه نحو الأوراس لمواجهة الكاهنة التي استطاعت أن تهزمه وتجبره على الانسحاب إلى ما وراء إفريقية، ولكنه استطاع بعد خمس سنوات من هزم الكاهنة والقضاء عليها في حملته الثانية بعد أن أمدته سلطة الخلافة بالجند والمال[6].

1- *Ibid.*, p. 23-39
2- *Ibid.*, p. 51.
3- *Ibid.*, p. 55.
4- *Ibid.*, p. 52-57.
5- *Ibid.*, p. 57-59.
6- *Ibid.*, p. 61.

وبهذا تكون المنطقة قد أخضعت وانضوت تحت لواء الإسلام بعد إلحاقها وتنظيمها إداريا، محافظة على تركيبتها البشرية حيث لم تتأثر بالعنصر العربي الذي اقتصر وانحصر دوره خلال القرن 7م بالفتح، وبقي محصورا في بعض مدن إفريقيّة وخاصة مدينة القيروان على وجه الخصوص[1]. أما فترة ما بعد الفتح فقد تميزت بالفوضى والثورات بعد دخول المذهب الخارجي الذي اعتبره البربر وسيلة للحد من سلطة العرب في المنطقة وأداة لتحقيق استقلالهم وقد كان لهم ذلك بفضل الدولة الرستمية في تيهرت[2].

والحدث التاريخي المهم الذي غير وجه المنطقة في نظر مارسيي، فقد تجلى في الهجرة الهلالية خلال القرن 5هـ/11م، بعد خروج العرب البدو من بني هلال وبني سليم من مصر إلى بلاد المغرب، بأمر من الخليفة الفاطمي المستنصر لتأديب الأمير المعز بن باديس الذي انشق عن الفاطميين[3]، وبذلك أطلق العنان لأزيد من 200 ألف من هؤلاء العرب البدو الذين نزحوا بنسائهم وأطفالهم وحتى قطعان ماشيتهم، و"كأنهم سيل مخرب" مخلفين وراءهم التخريب الوحشي للمدن والقرى والمزارع[4]، ما جعل جل المؤرخين العرب وغيرهم يطنبون في وصف تخريبهم الوحشي، الذي مس كثيرا منطقة إفريقية وخاصة مدينة القيروان التي كانت رمز الإشعاع الحضاري للمنطقة. وكان لعملهم هذا أثر في ضعف ثم نهاية دولة بني زيري ما جعل بعض القبائل البربرية تفر نحو الجبال والصحراء، تاركين السهول والهضاب للعرب الهلاليين[5]. وأمام هذا الوضع بدأ الإنسان البربري في التغير من خلال عاداته وحياته اليومية بفعل الاحتكاك والاختلاط مع العرب جراء المصاهرة، ما أدى بهم إلى تبني حياة الرعي والترحال واللغة العربية[6]. بعد أن استقر الوضع للعرب وبحكم أعدادهم الكبيرة أصبحوا أداة ووسيلة كجند مرتزقة في يد السلاطين والأمراء البربر للقضاء على خصومهم، مقابل امتيازات تمنح لهم كاقتطاع أراضي المهزومين وإعفائهم من دفع الضرائب[7].

فتراجع المنطقة ارتبط في جل الكتابات الفرنسية بالفتح الإسلامي والكاهنة التي خربت المدن والقرى والمزارع من أجل صد أطماع المسلمين الفاتحين، وارتبط كذلك بالهجرة الهلالية التي جعلت المنطقة تتغير بفعل التخريب الذي مس كامل إفريقية، وحتى اجتماعيا بفعل استيطان عنصر بشري جديد، ما جعل المنطقة تدخل في طور جديد تميز بالفوضى والانحطاط جراء التخريب وسلب أراضي البربر وبذلك أفلت بلاد المغرب الأوسط بدخول الإسلام والعرب.

أما الإصدار الثان لمارسيي فهو "تاريخ إفريقيا الساحلية منذ الأزمنة البعيدة إلى غاية الفتح الفرنسي" *Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830)*، فقد كان ملما تقريبا بتاريخ الجزائر منذ الفترة القديمة إلى غاية الاحتلال الفرنسي وكان

1- *Ibid.*, p. 65.
2- *Ibid.*, p. 70.
3- *Ibid.*, p. 151.
4- *Ibid.*, p. 153.
5- *Ibid.*, p. 227-228.
6- *Ibid.*, p. 314.
7- *Ibid.*, p. 315.

عمله هذا عبارة عن موسوعة تاريخية، فعندما أشار إلى العوامل التي ساعدت في توجيه الدراسات المتخصصة في الجزائر والمتمثلة في الترجمة، وعدد الدراسات التي نشرت بالإضافة إلى ظهور المؤسسات العلمية التي شجعتها السلطات الفرنسية كالجمعية التاريخية الجزائرية والجمعية الأثرية لعمالة قسنطينة، التي كان لها الفضل في تكوين المدرسة التاريخية الفرنسية المهتمة بتاريخ الجزائر، ورسم الخيوط الرئيسة لتاريخ المنطقة، دون أن ننسى الإنسان لأن تاريخ المنطقة هو قبل كل شيء تاريخ شعب[1].

ومن هنا كانت اهتمامات مارسيي بالجانب الإثنوغرافي (Ethnographie) للمنطقة، حيث حاول معرفة أصوله، لأن التركيبة البشرية لبلاد المغرب من أهم المواضيع التي ألهمت الباحثين والمختصين، بهدف جر البربر إلى فلك الحضارة الغربية لخدمة مشروع فرنسا الاستعماري. فقد حاول مارسيي في كتابه تأكيد بعض الفرضيات التي تروّج بأن أصول البربر هندو-أوروبية، ومن بينها تلك التي أرجعت أصلهم لشعب الهكسوس الذي طرد من مصر بعد أن سيطر عليها، ثم أشار إلى الهجرة التي كانت في القرن 14 قبل الميلاد على مصر من الناحية الغربية للجنس الأبيض " فهو يشير إلى أنهم نزحوا من بلاد البربر لتأكيد أن سكانها ذوي بشرة بيضاء" ، ثم تطرق إلى القبور الدولمان (Dolmen) الموجودة في الجزائر التي تتشابه مع التي في فرنسا وإسبانيا والدنمارك، وأخيرا حاول ربط مصطلح بربر (Berbère) مع مصطلح إيبار (Ibère)، سلتيبار (Celtibère) ومدى تشابههما، هذا ما يوحي بالقرابة بينهما وكأن البربر نزحوا من شبه جزيرة إيبيريا[2].

ومن أهم المحطات التاريخية لبلاد المغرب الفترة الرومانية، التي من خلالها عرفت المنطقة ازدهارا بفضل سياسة أباطرة الرومان الذين حاولوا تنظيم ودمج هذه المنطقة واحتوائها ضمن حضارتهم، بعد أن قسموا المنطقة إلى مقاطعات، خاصة وأنها كانت تزخر بثراء زراعي كبير، ما جعل الإمبراطورية الرومانية تهتم بإنتاج القمح الذي اشتُهرت به المنطقة وتصديره إلى روما، كما حاولت دمج الإنسان البربري من خلال منحه حق المواطنة لجعله عنصرا فعالا داخل المجتمع الروماني[3]، كل هذا لم يشفع للحضارة الرومانية في المنطقة، فالحركة الدوناتية من الأسباب التي عصفت بمجد روما في المنطقة من خلال الثورات الدينية التي كانت سببا في تراجع الحضارة الرومانية في إفريقيا الساحلية[4].

ومن المحطات الهامة في تاريخ المغرب الأوسط في الفترة الإسلامية التي وصفت في أغلب الكتابات الفرنسية بالفترة الأكثر تخلفا، بسبب انسلاخ هذه المنطقة من فلك الحضارة الرومانية ودخولها في طور جديد ضمن الحضارة العربية الإسلامية. استقرار الإسلام في المنطقة ارتبط بعملية الفتح التي مرّت بمراحل بدايةً مع عمرو بن العاص، الذي استطاع أن يغنم وينهب مدينة برقة، ثمّ حملة عبد الله بن أبي سرح الذي

1- Ernest Mercier, *Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française 1830*, Paris, Ernest Leroux, 1888, , p V I- IX.
2- *Ibid.*, p. XXIV
3- *Ibid.*, p. 100, 140.
4- *Ibid.*, p. 140.

قضى على المقاومة البيزنطية بعد قتل حاكمها جرجير الذي انشق بإفريقية عن سلطة بيزنطة مما سمح لجيش المسلمين بأن ينهب ويغنم الكثير من الثروات، بعد عقد الصلح مع البربر والروم بدفع 300 قنطار ذهب[1]. ومن الشخصيات البارزة التي تركت بصماتها في الفتح عقبة بن نافع الذي دخل المنطقة بنية الاستقرار وفرض الدين بالقوة على البربر واعتناقه عنوة، ومن العوامل التي ساعدته على ذلك بناء قاعدة القيروان. ومن الحملات التي تميزت عن سابقاتها بالتوسع حملة أبي المهاجر دينار الذي وصل حتى تلمسان بعد أن قضى على كسيلة مستعملا سياسة اللين مع البربر بعد أن عقد تحالفا مع قائدهم[2].ثم تأتي حملة عقبة بن نافع الثانية التي وصفت في جل الكتابات التاريخية على أنها الأسرع حيث وصل بجيشه حتى المحيط، بعد أن فشل في اختراق الحصون والقلاع البيزنطية في الأوراس وقضائه على المقاومة البيزنطية البربرية بالقرب من تيهرت[3]. ويعود فضل إخضاع المنطقة لحسان بن النعمان الذي استطاع أن يقضي على الوجود البيزنطي نهائيا خلال معركة قرطاج، ثم مواجهة الكاهنة بالقرب من وادي نيني وانهزامه، الشيء الذي أجبره على الانسحاب، إلا أنه استطاع في حملته الثانية القضاء على الكاهنة بالقرب من الأوراس، ما جعل المنطقة تخضع لسلطة الخلافة بعد أن قام بإلحاقها وتنظيمها بوضع ديوان الخراج[4].

وحصر مارسيي تراجع وانحطاط المنطقة في مجموعة من العـــــوامل أهمها ثورة الدوناتيين في القرن الرابع وثورات البربر على البيزنطيين، وأعمال الكاهـــنة التخريبية بعد أن أمرت بتخريب المزارع وتحطيم المدن والقرى ظنا منها أن العرب لن يعودوا، لأنهـــــم كانوا يريدون جمع الثروات الموجودة في المدن والقرى، والنصيب الأكبر لهذا التخريب كان بسبب الحملات العسكرية للمسلمين، التي دمّرت من خلالها كل المدن الممتدة من برقة حتى إفريقية[5].

أما في الجزء الثاني من الكتاب، فقد سلط الضوء على الدور الذي قامت به القبائل البربرية على الساحة، التي استطاعت أن تقضي على الوجود العربي بفضل الثورات المتتالية على سلطة الولاة، خاصة قبيلتي كتامة وصنهاجة، فكتامة كانت من القبائل الهامة في المغرب الأوسط بعد احـــــتضانها الفكر الشيعي وساعدت على قيام الدولة الفاطمية، وبعد خروج الفاطميين إلى مصر قام الخليفة الفاطمي بتهجير قبيلة كتامة معه واستقر الوضع لقبيلة صنهاجة لبسط نفوذها على بلاد المغرب باسم الفاطميين. وبحلول القرن 5هـــ/11م شهدت منطقة المغرب تحولات سياسية من خلال قطع الولاء للفاطميين من طرف الزيريين[6]، ما دفع بالخليفة المستنصر إرسال العرب الهلالية لإفريقية الذين وصفوا "بالجراد الذي يقضي على كل شيء في طريقه" من أجل تأديب العبد الذي ثار على سيده. وفي سنة 1049م دخلت قبائل بني

1- *Ibid.*, p. 196, 199.
2- *Ibid.*, p. 202.
3- *Ibid.*, p. 204.
4- *Ibid.*, p. 209-217.
5- *Ibid.*, p. 115-120.
6- *Ibid.*, p. 16.

هلال وبني سليم المنطقة دون مقاومة تذكر خاصة بعد استيلائهم على برقة لنهبها وتخريبها، أمام هذا الوضع أدرك المعز أنه غير قادر على صدهم ما جعله يعقد تحالفا معهم. وفي سنة 1053م ضاعت إفريقية من أيدي الزيريين بعد أن خسروا معركة حيدران حيث دخلت العرب مدينة القيروان ونهبتها ما أدى بفرار سكانها نحو الجبال والقلاع البيزنطية القديمة المحصنة، وتواصل زحف العرب نحو المغرب الأوسط حتى وصلوا حدود الدولة الحمادية بعد أن استولوا على بعض مناطقها كالزاب[1].

وبعد أن استقر الوضع للعرب الهلالية صاروا أداة عسكرية للأمراء البربر ضد خصومهم من بني جلدتهم، ومقابل مساعداتهم كانت تمنح لهم الأراضي الخصبة وإعفائهم من الضرائب[2]، وهكذا استوطن العرب البدو في عدة مناطق بفضل تنقلهم وترحالهم، ما جعلهم يحتكون بالقبائل البربرية من خلال مصاهرتهم وبفعل الروابط التجارية حيث أخذ البربر عنهم اللغة والعادات والتقاليد[3].

ومع نهاية القرن 19م ظهرت دراسات أخرى تشمل الدين الإسلامي في المغرب وكيفية انتشاره وتطوره، فقد خص أوكتاف دوبان (Octave Depont) دراسته حول الدين الإسلامي بطريقة غير معمقة، لأنه تطرق إلى ظاهرة الزوايا المنتشرة في الجزائر الفرنسية، ودورها وتأثيرها داخل المجتمع، والكيفية التي تطورت بها بعد أن كانت طرقا صوفية. كما حاول لفت انتباه فرنسا إلى ضرورة استمالة أعضائها المؤثرين، وإمكانية استغلالهم فيما وراء الصحراء "داخل مستعمراتها في إفريقيا"[4].

أما لويس رين (Louis Rinn) فقد أصدر دراسة حاول فيها إعطاء صورة للإسلام من خلال تسليط الضوء على أصحاب الزوايا، حيث ذكر أن القوى الأوروبية لمدة 50 سنة وهي تعمل جاهدة من أجل جرّ الشرق القديم إلى تيار الحضارة الغربية، أما في الجزائر فإن الدراسات حول هذه المؤسسات الدينية قليلة وشحيحة [5]، من هذا المنطلق قام بإنجاز هذه الدراسة لتوضيح وشرح الإسلام للفرنسيين، حيث أكد من خصوصيات بلاد المغرب أن كل الدول التي قامت كانت بفضلت شخصيات دينية وليست سياسية، فكل أمير أو سلطان يعتبر إماما وفق الشريعة، بالإضافة إلى القرآن الذي يعتبر المشرع الوحيد للدولة، ولكن في منطقة القبائل نجد أن البربر لا يعتمدون على القرآن كتشريع[6] بل يعتمدون على قوانينهم العرفية التي تتقارب مع قوانين فرنسا، هكذا كان إسلام الجزائر في نظر رين بإهماله الجانب الفقهي والتشريعي، كما أشار إلى المذهب الخارجي والكيفية التي دخل بها المنطقة وانتشاره محاولا فهم هذا المذهب من خلال منطقة ميزاب التي تختلف عن باقي مناطق الجزائر بهذا المذهب[7]. وبالمقابل نشرت كتب كثيرة تخص الديانة

1- *Ibid.*, p. 18-21.
2- *Ibid.*, p. 380.
3- *Ibid.*, p. 381-386.
4- Octave Depont, *Confréries religieuses musulmanes*, Alger, Xavier Coppolani,1897,p. 280-288.
5 - Louis Rinn, *Marabouts et Khouans. Etude sur l'islam en Algérie*, Alger, Adolphe Jourdan, 1884, p. III-V.
6- *Ibid.*, p. 2-5.
7- *Ibid.*, p. 103-143.

المسيحية في إفريقيا الساحلية بتمجيدها على أساس أنها كانت إشعاعا دينيا وحـــضاريا وهذا ما ساعدها في الانتشار بين البربر الذين استشهدوا في سبيلها وهذا ما تطـــرق إليه كل من الأب ليون كودار(Leon Godar) [1] والأسقف فريبل (Evêque Freppel) [2]. أما لا مورسيير(Lamorcière) فقد تطرق إلى ضرورة ربط الحملة الفرنسية على الجزائر بالتنصير واسترجاعها، التي كانت في الماضي جزء من المسيحية العالمية وأرقى منطقة تنتمي للحـــضارة الرومانية وبفضلها ازدهرت وتحضرت، إلا أنها تراجعت وأصبحت وكرا للقرصنة بفعل دخول الإسلام[3] .

كما ركزت المـــدرسة التاريخية الفرنسية من هذه الزاوية توجهاتها في محاولة منها إعطاء الشرعية لغزوها الجزائر بحجة حملها مشعل الحضارة للمنطقة وقـــضائها على الجهل بعد أن تغـــيرت عادات وتقاليد المنطقة بعد الغزو الإسلامي مثلما فعلت روما في الماضي[4]. لهذا يجب على فرنسا أن تقتل منهم الكثير حتى يبقى القليل لتحضيرهم[5] بالتركيز على منطقة البربر "سويسرا البربرية" لإخراجهم من دائرة الإسلام ودمجهم في الحضارة الفرنسية التي ترى في نفسها الوريث الشرعي لحضارة روما[6]، وما معارضة البربر للسلطة الفرنسية إلا بسبب القائد العربي الذي يشرف عليهم الذي عينته فرنسا، ولهذا يجب دراسة كيفية النهوض بفرنسا في منطقة القبائل عن طريق فرض العدالة بالقوة[7].

ومن هذا المنطلق ركز الاستشراق الفرنسي على خلق هوة بين البربر والعرب "الذين اغتصبوا أرضهم والتي لا يمكن للبربر استرجاعها إلا مع الوجود الفرنسي، وبالتالي العودة إلى فلك الحضارة الغربية"[8]، وهذا ما نجحت في تحقيقه المؤسسة العسكرية الفرنسية من خلال مذكرات وتقارير ضباطها وجنودها في رسم الخطوط الأولى للدراسات الفرنسية لتاريخ الجزائر خلال القرن 19م[9].

4 - المؤسسات العلمية وتوجيه الدراسات التاريخية

لقد حاول التيار التاريخي الفرنسي في النصف الثاني من القرن 19م بناء عالم ثقافي حضاري يغوص بجذوره في الماضي المرتبط بفلك الحضارة الرومانية[10]. ولإنجاح هذا التوجه كان سيلتزم على فرنسا إيجاد مؤسسات وجمعيات تقوم بهذا الدور من خلال الاهتمام والبحث عن الآثار التي تعود للفترة الرومانية، وقد

1- *Ibid.*, p. 2-5.
2- *Ibid.*, p. 2-5.
3- Général de La Moricière, *Oraison funèbre*, 1865, p. 7-10.
4-Enfantin, *Colonisation de l'Algérie*, Paris, Bertrand Librairie, 1843, p. 22-509.
5-Conte D'Hérisson, *Chasse à l'homme, guerres d'Algérie*, Paris, 1891, p. 5.
6-Général Daumas, *Mœurs et coutumes de l'Algérie*, Paris, Hachette, 1853, p. 191.
7-Docteur Bonnafont, *Douze ans en Algérie*, Paris, Dentu, 1880, p. 141.

8- علاوة عمارة،دراسات ، ص، 11.

9- Zakia Boutaba, *La personnalité de l'Emir Abdelkader dans les écrits algériens et français*, Thèse de doctorat de III[e] cycle, Université Aix Marseille III, p. 24.

10- عمارة علاوة، المرجع السابق، ص 48.

نجحت إلى حد ما من خلال المؤسسة العسكرية التي تركت بصماتها إبان هذه الفترة، من خلال إنتاجها المعرفي الذي كان في شكل مذكرات شخصية وتقارير رسمية سجلها القادة العسكريون والحكام المدنيون[1]، بهدف جمع كم هائل من المعلومات، والتي من خلالها استطاعت الإدارة الفرنسية إدراك مدى غنى وثراء هذه المنطقة من خلال الآثار القديمة المترامية الأطراف بين الشرق والغرب، ما جعل فرنسا تسارع في إنشاء الجمعيات المتخصصة.

وكانت البداية من شرق الجزائر في مقاطعة قسنطينة، أين تم إنشاء جمعية علمية تهتم بالتاريخ أطلق عليها اسم الجمعية الأثرية لقسنطينة، بهدف الحفاظ على المعالم التاريخية بالإضافة إلى عمليتي البحث والتنقيب عن الآثار القديمة. ثم توالت بعد ذلك جمعيات أخرى ذات طابع تاريخي جغرافي في كل من الجزائر العاصمة كالمؤسسة التاريخية الجزائرية وجمعية البحث العلمي في عنابة التي تغير اسمها إلى أكاديمية هيبون والجمعية الجغرافية لإقليم وهران، التي ركزت بحوثها تقريبا حول الفترة القديمة وخاصة الرومانية، التي كانت ترى فيها المرحلة الأكثر ازدهارا وخصوبة وما الوجود الفرنسي في المنطقة إلا امتدادا لتلك الحضارة باعتبار نفسها الوريث الشرعي لروما[2]، "لاسترجاع حقوق البربر المغتصبة من طرف العرب"[3].

4-1- الجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة

تعد الجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة (La société archéologique du département de Constantine) أقدم الجمعيات في الظهور، فقد تأسست في ديسمبر 1852م بقسنطينة. ومن مؤسسيها العقيد كروللي (Creully) والمستشرق شيربونو (Cherbeneau) وأستاذ اللغة العربية بروسلار (Broslard) الذي كان رئيسا للمكتب العربي. ويرجع لها الفضل في تأسيس متحف قسنطينة، ونشر دليل ومجلات[4] مختصة بالتاريخ، إلا أن هذه الجمعية كانت توجهاتها منذ البداية مركزة على الفترة القديمة، لاسيما الرومانية منها، حيث أثرت هذه الفترة في الدراسات والتنقيبات متناسية الفترة القرطاجية، وجعلت من الفترة الإسلامية مرحلة هامشية وانتقالية يكتنفها الغموض[5].

إن توجه الجمعية الأثرية جاء لخـــدمة المشروع الفرنسي، الذي حاول أن يقنع البربر من خلال الحفريات والاكتشافات بمدى مساهمتهم في الحضارة الرومانية وفي ازدهار المنطقة. وبالتركيز كذلك على

---

1 - ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، ص 10.

2 - Sahli, *op. cit.*, p. 138.

3- عمارة علاوة، نفس المرجع، ص 11.

4- Robert de Lasteyrie, *Bibliographie générale des travaux historiques et archéologiques publiés par la Société savante de France*, Burt Franklin, 1972, T IV, p. 671.

5- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، ص11.

القبور القديمة، التي وجد فيها الفرنسيون ضالتهم من خلال إرجاعها إلى الأصول الأوروبية، لتأكيد فرضية، أن من عمر هذه المنطقة قديما هم الأوروبيون الذين دخلوا عبر إسبانيا وإيطاليا.

والبداية كانت من طرف لورون شارل فيرو (ت1888) (Laurent- Charles Féraud) مترجم الجيش الفرنسي في الجزائر ورئيس الجمعية التاريخية الجزائرية والذي يعتبر من أهم الأسماء التي تركت دراسات هامة التي ساهمت في إثراء المعرفة التاريخية، من خلال مقالته حول الفترة القديمة والإسلامية.

وكانت القبور الجنائزية المنتشرة في الجزائر من بين اهتماماته، حيث نشر مقالا في نشرية الجمعية (Recueil) سنة 1864م، حاول فيه إبراز مدى اهتمام العلماء بها بعد ظهور عدت فرضيات حولها[1] إلا أن فيرو من خلال ملاحظاته استنتج أنها مطابقة للتي في فرنسا والدانمارك، ولا يمكن التمييز بينها، خاصة من وضعية الميت داخل القبر، وهي الوضعية نفسها التي عثر عليها في سويسرا وبريطانيا وفي أعالي منطقة الصافوا (Haute Savoie) بفرنسا وشمال ألمانيا[2]. وفي مقال آخر يخص دائما القبور الجنائزية أكد فيرو نفس المعلومات السابقة أي أن قبور بلاد المغرب تشبه كثيرا القبور الجنائزية الموجودة في شمال فرنسا والدنمارك ومتقاربة زمنيا،[3] وحتى أوبتي (Opettit) تطرق في دراسة تخص المقابر الجنائزية لمنطقة الركنية، مؤكدا بأنها للجنس السلتي (les Celtes) الذي زحف نحو شمال إفريقيا في زمن بعيد[4]، بحجة أن المحيط المجاور لها يفتقر إلى مراكز عمرانية وعسكرية، وهذه من تقاليد جنس السلت الذي كان يعيش في شمال فرنسا، ولم تكن لهم مبان ومدن في حياتهم بل كانوا بدائيين، ليؤكد ما ذهب إليه فيرو أنها تنتمي لجنس أوروبي[5] زحف نحو شمال إفريقيا في زمن بعيد، وأنها أبعد زمنيا من الوجود الروماني[6].

وحتى الجنرال فيذارب (Général Faidherbe) وجد في قبور الركنية مجال للبحث والكتابة فقد أكد بأنها تنتمي للبربر الذين نزحو من إسبانيا[7]، بالإضافة إلى أعمال برونو (Brunon) الذي تطرق إلى القبور الجنائزية المنتشرة في الجزائر خلال الفترة الرومانية والبيزنطية[8]، ثم دراسة قويت (A. goyt) الذي حاول تقديم دراسة حول القبور الجنائزية لأولاد حناش[9]. وتوالت الدراسات الفرنسية حول القبور الميقاليتية والتي

1- Cite par Laurent Charles Féraud, « Des monuments dits celtiques de la province de Constantine », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine* 11 (1864), p. 108-109.
2- *Ibid.*, p. 109.
3- *Ibid.*, p. 109-110.
4-Cité par M Oppetit, « Simple hypothèse sur les tombeaux dits celtiques », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine* 17 (1870), p. 338.
5- *Ibid.*, p. 343.
6- *Ibid.*, p. 345.
7- Le Général Faidherbe, « Collection complète des inscriptions numidiques », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine* 17 (1870). p. 124-132.
8- Cité par Brunon, « Notice sur les dolmens et les timulus de l'Algérie », *Recueil des notes et mémoires de la société archéologique du département de Constantine* 23, (1876-1877), p. 324-343.
9- Cité Par A. Goyt, « Dolmens et sépulture mégalithique des Ouled Hannech », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine* 33, (1886-1887), p. 69-85.

نشرت في معظمها بنشرية الجمعية[1]. ومن المحطات التاريخية التي لاقت اهتماما أكبر كانت الفترة الرومانية التي شدّت انتباه جل الدارسين، ربما بسبب الآثار المترامية هنا وهناك، من خلال المدن والقلاع الرومانية التي كانت متركزة أكثر في المنطقة الشرقية للمغرب الأوسط وكذلك المنطقة الوسطى مثل تيبازة وشرشال، ما جعل الجمعية الأثرية من خلال باحثيها توجه الاهتمام أكثر لهذه الفترة. ومن أبرز الوجوه شربونو(Cherbenneau) الذي كان من أهم المختصين في الكتابات اللاتينية المنقوشة، فقد نشر عددا من الدراسات التي تخص آثار قسنطينة القديمة[2]، وحتى الإسلامية بفضل زيارته الميدانية التي من خلالها استطاع العثور على آثار تعود للفترة الرومانية بنواحي شطابة، وكذلك العثور على بعض الألواح المكتوبة باللاتينية، وكتابات أخرى عربية ترجع للفترة العثمانية بوسط المدينة، كما قام بعملية جرد للألواح اللاتينية بمدينة قسنطينة وباتنة وميلة [3]. كما تمكن من العثور على كتابات لاتينية تعالج الجانب الديني والإداري للمنطقة، التي بفضلها تمكن من معرفة المعتـــقدات الدينية التي كانت منتشرة وحتى المتعلقة بالتنظيم الإداري للكنفدرالية السيرتية[4].

هذا بالإضافة إلى مجموعة أخرى من المقالات التي نشرت في المجلة والتي حاولت إبراز مدى تأثر المنطقة بالحضارة الرومانية والديانة المسيحية[5]، خاصة بعد أن تمكن بعض الأثريين من العثور على آثار رومانية كالقنديل الروماني للاستعمال اليومي[6]. والعثور على أسقفية رومانية مسيحية في مدينة تبسة ومدى مساهمتها في نشر الدين المسيحي [7]. فـــتوجيه الدراسات الأثرية للفترة الرومانية كان بهدف رصد بصمات روما في المنطقة، ومدى مساهمة وتأثر البربر بها.

---

[1] دائما وخلال الفترة القديمة استطاع عدد من هواة الآثار دراسة ضريح إمدغاسن بباتنة الذي كان يشبه قبر الرومية، وقبور أخرى موجودة في الجزائـــر لكنها تختلف من حيث الموقع والارتفاع، إلا أنه كان الأقدم والأرجح أنه لأحد ملوك نوميديا، وحتى بيكر (F. Beker) بعد دراسته قبر امدغاســـن استنتج من خلال زيارته الميدانية أنه لأحد ملوك نوميديا ومعاصرا للفترة المصرية القديمة، ما جعله يشبه أهرامات مصر والسبب قد يرجع ربما إلى وجود علاقات بينهما. وبعد سنة أصدر فوي Foy بخصوص قبر امدغاسن ملاحظات أثرية دقيقة، إذ اكتشف أنه لا توجد بوابة خارجية تفضي إلى داخله.
A. B. Cahen, « Le Medracene *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de Constantine*, 20 (1873-1874), p.1. F. Beker, « Essai sur le Medracene », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de Constantine,* 2 (1854- 1855), p. 108-147. O. Foy, « Notice archéologique sur Medracene », *Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine* 5, (1858), p. 58-70.

2- Cherbenneau, « Exploration archéologique à Chettabah », *Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine*, 2 (1854-1855), p. 55-75.

3- Cherbenneau, « Inscription latine à Constantine », *Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine*, 2 (1854-1855), p. 147-156.

4- Cherbenneau, « Inscription arabe à Constantine », *Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine*, 5 (1858), p. 70-82.

5- Marcilly, « Notice sur les vestiges de l'occupation romaine dans le cercle de Philippeville », *Annuaire de la province de société archéologique de Constantine*, 1 (1853), p.20-39.

6- Fontier, « Note sur les objets antiques trouvés à Philippeville », *Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine*, 1 (1853), p. 82-84.

7- Moll, « Mémoire historique et archéologique sur Tébessa et ses environs », *Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine*, 7 (1860-1861), p. 188-221.

كما حاولت المؤسسة الأثرية معالجة موضوع الأقليات الدينية في بلاد المغرب من خلال المقال الذي نشره أحد الكتاب اليهود كاهان (Cahen)، والذي من خلاله تطرق إلى كيفية دخول اليهود للمغرب بعد خروجهم من فلسطين والاستقرار به ومدى مساهمتهم في الحضارات التي تعاقبت عليها، خاصة في ظل الفترة الإسلامية المبكرة أين حافظوا على أداء شعائرهم الدينية[1].

أما الفترة الإسلامية من خلال دراسات المؤسسة الأثرية يمكن حصرها في شخصية كل من مارسيي وفيرو اللذان استطاعا بفضل مقالتهم توضيح معالم المنطقة خلال الفترة الوسيطة.

البداية كانت مع فيرو الذي نشر كتاب العدواني في نشرية الجمعية سنة 1868م، والذي أعتبره مهم لدراسة الفترة الإسلامية للجزائر، من خلال واقع العلاقات بين القبائل البربرية والعربية التي هاجرت خلال القرن 11م إلى بلاد المغرب، والتي تميزت بالتوتر بسبب أعمال النهب والتخريب للعرب الهلالية في المنطقة بحسب رأيه[2]. ولكن دور فيرو كان فعالا من خلال تناوله مونوغرافية المدن، وتحديدا مدينة بجاية حيث كان مستوفيا في تسليط الضوء عليها عبر مراحلها التاريخية، خاصة الفترة الإسلامية حيث شهدت تطورا سياسيا واقتصاديا ما جعلها تكون حاضرة بلاد المغرب الأوسط، معتمدا في ذلك على الكتب والروايات الشفوية للأهالي من أجل بناء تاريخها، في ظل سكوت المصادر العربية عن فتح الأقاليم الشمالية الأخرى كمنطقة بجاية [3].

ومن خلال تاريخ بجاية حاول تسليط الضوء على الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الذي كان سهلا بسبب الثورات والفوضى في أواخر الفترة البيزنطية، وكانت الغنيمة والثروة هي الدافع من وراء الحملات العسكرية للمسلمين على المنطقة خاصة بعد أن غنموا 300 قنطار من الذهب بعد مقتل الحاكم البيزنطي جرجير[4].

استطاعت بجاية في ظل الحضارة الإسلامية أن تفرض وجودها على الساحة المغربية، وأصبحت حاضرة بلاد المغرب الأوسط في العهد الحمادي، بعد أفول مدينة القيروان بسبب الهجرة الهلالية خلال القرن الخامس الهجري 11ميلادي، ما جعل التجار والحرفيين والعلماء وطلاب العلم يتوجهون إليها، في ظل الرخاء والازدهار الذي شهدته بفضل نشاطها التجاري الكبير مع المدن الإيطالية[5].

ويرى أن تاريخ سطيف قد ارتبط بالفترة الرومانية حيث شهدت المنطقة اندماج وتأثر البربر بالحضارة الرومانية من خلال اندماجها في المجتمع الروماني، ثم ارتبط تاريخ المنطقة بالفترة الإسلامية أين

1- A. B. Cahen, « Les Juifs dans l'Afrique », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 14 (1867), p. 120-146.
2- Charles Féraud, « Kitab El Adouani ou le Sahara de Constantine et de Tunis », *Recueil des notices et mémoires ede la société archéologique de la province de Constantine* 15 (1868), p. 7-114.
3- Charles Féraud, « Histoire de la province de Constantine, Bougie », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 16 (1869), p. 86-91.
4- *Ibid.*, p. 135-136.
5- *Ibid.*, p. 136-143.

شهدت تراجعا بفعل الحملات العسكرية خلال مرحلة الفتح الإسلامي، ثم بالهجرة الهلالية خلال القرن 5هـ/11م التي ألحقت ضررا بالمدن والقرى والمزارع بفعل التخريب والنهب والسرقة، ما أجبر البربر على الهجرة نحو الجبال[1].

أما مارسيي الوجه البارز في المدرسة التاريخية الفرنسية في الجزائر المستعمرة فقد استطاع بفضل إلمامه واهتمامه بالفترة الوسيطة من نشر بعض المقالات حول المنطقة، فقد نشر مقالا حول الفتح والمقاومة البربرية، حيث صور الفتح الإسلامي والهجرة الهلالية من العوامل التي غـــيرت وجه المنطقة، بعد أن طردوا البربر نحو الصحراء والجبال والاستيلاء على أرضهم[2]، أما المقاومة البربرية فقد انحصرت في شخصية كسيلة الذي استطاع قتل عقبة وإرساء أول دولة بربرية، وكذلك الكاهنة التي استطاعت مقاومة الفتح الإسلامي هذا ما جعل مارسيي يثني على "المقاومة البطولية" للبربر ضد العرب [3].

و شملت اهتمامات مارسيي جوانب أخرى من الفترة الإسلامية، من خلال تسليط الضوء على الملكية عند الأهالي في بلاد المغرب من خلال الفقه الإسلامي، ودراسة وضعية الزوايا في الجزائر وما مدى تأثيرها على المجتمع[4]، كما حاول دراسة البربر من خلال عاداتهم وتقاليدهم وتوزيعهم الجغرافي في ظل الحضارة الرومانية محاولا فهم الآليات التي مكنت الرومان من دمجـــهم وإشراكهم في الإدارة والجيش[5]. فقد حاول مارسيي وصف الفترة الإسلامية في بلاد المغرب بالفترة الأكثر دموية التي طمست الشخصية البربرية وأخضعتها بالقوة ضمن الحضارة العربية الإسلامية.

4-2- الجمعية التاريخية الجزائرية

تأسست الجمعية التاريخية الجزائرية (La société historique algérienne) في أفريل 1856م في مدينة الجزائر برعاية الحاكم العام المارشال راندون (Randon) وبإشراف أدريان بيربروجر (Adrian Berbrugger)، وهذا بهدف دراسة كل المعلومات المتصلة بتاريخ إفريقيا عامة والجزائر خاصة، من خلال البحث والتنقيب في مراحلها التاريخية[6].

ويعتبر بيربروجر العصب الحيوي والأب الروحي لهذه الجمعية لأنه كان صحفيا وعالم آثار، ومؤرخا ومستكشفا برتبة مقدم في الجيش الفرنسي، خاصة بعد أن أوكلت له مهمة تكوين المكتبة بالعاصمة، ما

1- Charles Féraud, « Histoire de la province de Constantine, Sétif », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 18 (1871-1872), p. 27-56.

2- Ernest Mercier, « Histoire de l'invasion arabe, la Kahina », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 14 (1867), p. 241-248.

3- Ernest Mercier, « Episode sur la conquête de l'Afrique, les héros », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 29 (1882), p. 232-234.

4- Ernest Mercier, « La propriété indigène au Maghreb », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 65 (1898), p. 312-328.

5- *Ibid.*, p. 330-340.

6- Robert de Lasteyrie, *Bibliographie générale des travaux historiques et archéologiques, publiés par la société savante de France*, ,Burt Franklin,1972, t. IV p. 671.

جعله يتوجه نحو معسكر وتلمسان وحتى قسنطينة للبحث عن المخطوطات العربية ضمن الحملات العسكرية، واستطاع أن يحصل على البعض منها[1]. وقبل أن تبدأ الجمعية التاريخية في العمل بصفة رسمية بعث بيربروج بتعليمة إلى كل من كانت له ميول وتوجهات لدراسة تاريخ الجزائر، وحتى المختصين للالتحاق بها، ولكن بعد مرور سنتين أدرك أن ¾ من العاملين داخل الجمعية لم يهتموا و لم تكن لهم ميول أو دراية بتاريخ الجزائر، وهذا ما يفسر الدراسات التاريخية الفرنسية في الجزائر في الـ50 سنة الأولى للاحتلال تتصف بالطابع القصصي الروائي، بعيدة عن المنهج العلمي[2].

استطاعت الجمعية التاريخية من نشر المجلة الإفريقية (*Revue Africaine*) التي اهتمت بنشر المخطوطات وتسليط الضوء على تاريخ الجزائر في مختلف عصوره بدرجات متفاوتة، ما جعل الفترة الرومانية الأكثر دراسة واهتماما بسبب وفرة الآثار القديمة والرومانية منها خاصة كالمدن التاريخية والكنائس المسيحية، بالإضافة إلى اهتمامها بأصول السكان بالتركيز على العنصر البربري الذي حضي بدراسات عديدة ، هذا ما جعلها تتقاطع وتتقارب مع مشروع فرنسا الاستعماري الذي كان يهدف إلى ربط ماضي المنطقة بالفترة الرومانية.

فالبداية كانت مع توكسييه (Tauxier) الذي يعد من أهم الوجوه في الجمعية التاريخية الجزائرية التي اهتمت ووجهت دراستها للبربر، فقد تطرق في مقال نشره سنة 1862م إلى عادات وتقاليد البربر، التي من خلالها استنتج أن أصولهم سامية ووضع لذلك ثلاثة احتمالات أو نظريات: فإما أن يكونوا من يهود فلسطين أومن الكنعانيين أو من اليمنيين[3]، كما حاول أن يسلط الضوء على القبائل البربرية وتنقلاتها داخل بلاد المغرب عبر مختلف محطاته التاريخية قبيل الإسلام، حيث كانت العلاقة بين البربر والبيزنطيين تسودها الثورات وانفلات الوضع بالنسبة للبيزنطيين بسبب الثورات والفوضى جراء سياستهم في المنطقة التي تقوم على الاستعباد والقهر[4]، وفي مقال آخر حاول أن يعطي تصور آخر لأصول البربر من خلال هجرات عربية للمنطقة في الفترات القديمة، حيث أشار إلى أن أصولهم سامية، بهجرة بعض ملوك اليمن إلى إفريقيا، أو هجرة عربية من اليمن في فترة انحصرت بين السيل العرم ومولد الرسول – صلى الله عليه وسلم–[5].

أما وضع البربر بعد الفتح الإسلامي فقد تغير بسبب المعارك الضارية بين البربر والعرب خلال الحملات العسكرية في إفريقيا وباقي بلاد المغرب، محاولا رسم تنقلاتهم في المنطقة من جراء هذا الفتح الذي

1- Cité par Gabriel Esquer, « La société historique algérienne, 1856-1956. Histoire et souvenirs », *Revue Africaine*, 100 (1956), p. 195.
2- *Ibid.*, p. 196.
3- Cité par Tauxier, « Examen des traditions grecque, latine, musulmanes relatives à l'origine du peuple berbère », *Revue Africaine*, 6 (1862), p. 353-363.
4- Tauxier, « Etudes sur les migrations des tribus berbères avant l'islamisme », *Revue Africaine*, 06 (1862), p. 441-461.
5- Tauxier, « Une immigration arabe en Afrique, un siècle après Jésus Christ », *Revue Africaine*, 25 (1881), p.139-157.

كان كالغزو الوندالي عنيفا ومخربا لكل المناطق، ما دفع بالبربر إلى الهجرة مثل أوربة التي نزحت نحو الغرب، أما العرب فقد تمركزوا في المدن الإفريقية بدافع التحصين بعد أن استحوذوا على الأراضي البربرية[1]. ومن القبائل البربرية التي عانت خلال الفترة الإسلامية قبيلة لواتة التي كانت بمنطقة برقة، حيث فرضت عليها ضرائب باهظة بسبب الديانة اليهودية التي كانت منتشرة بينهم، وما زاد عناء البربر دخول العرب الهلالية خلال القرن 11م[2]، الذين بعد أن احرقوا ونهبوا إفريقية ومدنها جعل البربر يفرون ويهاجرون إلى المغرب الأوسط في كل من وادي ريغ ومنطقة الزاب [3].

وما يمكن قوله أن Tauxier حاول من خلال مقاله تحديد المناطق التي كانت تتمركز بها القبائل البربرية قبل وبعد الفترة الإسلامية وخاصة بعد دخول العرب الهلالية للمنطقة، معتمدا في دراسته على المصادر الإغريقية واللاتينية بالنسبة للفترة القديمة، وابن خلدون فيما يخص الفترة الإسلامية[4].

أما الفترة الرومانية فقد حضيت كما أشرنا بعناية فائقة من طرف الجمعية التاريخية الجزائرية من خلال المقالات والدراسات الميدانية التي قام بها عدد كبير من الفرنسيين والتي مست كل الجوانب الحضارية. فقد أشار لكروا (F. Lacroix) في عدد من مقالاته إلى الأوضاع الاقتصادية والإدارية للمنطقة في ظل الحضارة الرومانية، من خلال عملية الاستيطان اللاتيني، الذي لعب دورا هاما في هذه العملية، وكيف استطاعت روما تقسيم المنطقة إلى مقاطعات[5]، وبذلك تمكنت أن تسير الأوضاع الاقتصادية، خاصة الجانب الزراعي الذي أعطى للمنطقة ثراء وازدهارا كبيرين. بسبب خصـــــوبة الأراضي البربرية، ما جعل إنتاج القمح والشعير وفيرا و كافيا لإطعام شعب روما، ما جعلها المنطقة الأخصب زراعيا عن باقي مستعمراتها[6]. و لم يقتصر ثراء المنطقة على الحبوب بل شمل كذلك الفواكه والتين والقصب وخاصة الزيتون والزيت[7]، ومن أجل هذا الثراء كانت روما تعمل على استمالة ودمج البربر في حضارتها، حتى ولو أنهم قاموا ضدها فقد جعلت من السيف وسيلة لإخضاع هؤلاء الثائرين أو باستعمال طرق حضارية كالفن والأدب وحق المواطنة من أجل دمجهم[8]. كما تميزت القرون الأولى لروما بظهور الدين المسيحي، الذي قاومته سلطة الأباطرة في البداية، إلا أنها فيما بعد تبنته وعملت على نشره في كل المقاطعات الرومانية، وتحديدا إفريقيا الساحلية التي كانت من أهم المراكز المسيحية في الإمبراطورية الرومانية[9]. فنمو المسيحية وتدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية جعلها تتحول إلى أداة للثورة، من طرف البربر خلال القرن 4م

1- Tauxier, « Ethnographie de l'Afrique septentrionale au temps de Mohamet », *Revue Africaine*, 21 (1867), p.146-156.
2- *Ibid.*, p. 337-356.
3- *Ibid.*, p. 220-232.
4- Tauxier, « Ethnographie de l'Afrique septentrionale au temps de Mohamet », *Revue Africaine*, 19 (1865), p. 458-475.
5- F. La Croix, « Colonisation et administration romaines », *Revue Africaine*, 7 (1863), p. 363-383.
6- F. La Croix, « Afrique ancienne : produits végétaux », *Revue Africaine*, 12 (1868), p. 409-420.
7- F. La Croix, « Afrique ancienne : produits végétaux », *Revue Africaine*, 13 (1869), p. 161-178.
8- F. La Croix, « L'établissement romain en Afrique », *Revue Africaine*, 15 (1871), p. 302.
9- Mac Carthy, « Africa Antica », *Revue Africaine*, 30 (1886), p. 5-10.

ما أدى إلى تردي الأوضاع الأمنية في المنطقة، بفعل الحركة الدوناتية التي كانت تطالب بإصلاح الكنيسة والأوضاع الاجتماعية[1].

أما فلاترز (Flathers) فقد نشر مقال حاول من خلاله التطرق إلى أصل تسمية المنطقة ثم أصول السكان، والهجرات البشرية التي أثرت فيهم، ثم إلى دخول روما واصطدامها مع ماسينيسا الذي كانت له طموحات سياسية في ظل الصراع الروماني القرطاجي وكيف استطاعت روما بحنكتها أن تقضي على هذا الطموح البربري[2].

وبفضل شارل فيرو، فإن منوغرافيات المدن كانت حاضرة في المجلة الإفريقية، فقد استطاع أن ينشر بعض المقالات خص بها بعض المناطق خلال الفترة الوسيطة المتأخرة، كبجاية[3] وعين البيضاء[4] وعنابة[5]، بمعالجة الأسباب التي دفعت بالقبائل البربرية لتغيير مواطنها، خاصة في ظل التوتر العسكري بين الدول البربرية في المغرب الأوسط[6]. وفي الربع الأخير من القرن 19م، بدأت توجهات جديدة في دراسة المنطقة من خلال بعض الوجوه التي تركت بصمات في الكتابة التاريخية، كماسكراي (Masqueray) الذي استطاع بفضل تنقلاته في الأوراس واحتكاكه بالبربر وأخذ الروايات عنهم من إعادة تركيب تاريخ المنطقة التي كانت تمثل آخر حلقة في مقاومة البربر للفتح[7]، كما أشار إلى التركيبة السكانية للمنطقة مركزا على عاداتهم وتقاليدهم التي اكتسبوها بفعل احتكاكهم بالحضارات التي تعاقبت على المنطقة[8]. ثم نشر لويس رين (Louis Rinn) مقالا مهما يخص اللغة البربرية استنتج من خلاله أن المنطقة قد شهدت هجرات سكانية عديدة في التاريخ القديم، من خلال بعض الكلمات البربرية التي تتشابه مع لغات أخرى كاللغة الكلدانية واللغة الاسكندينافية والهندية السنكرية[9]، ما جعل رين يؤكد بأن البربر ما هم إلا خليط من أجناس هاجرت إلى المنطقة في القديم. كما عقد مقارنات مع عدد من اللغات واللهجات القديمة وأثبت بأن الحضارات القديمة التي مرت لم تستطع أن تؤثر فيه[10].

أما الدراسات التي عالجت الفترة الإسلامية فقد كانت من نصيب فانيان (Fagnan) الذي تطرق إلى الفتح الإسلامي للمنطقة من خلال ابن الأثير مركزا على النهب والتخريب الذي لحق بالمغرب بفعل الحملات الأولى [11]. ثم مقال مارسيي الذي أكد من خلاله أن عقبة قد توجه نحو أقصى الجنوب عابرا منطقة فزان ومن ثمّ توجه إلى أقصى الجنوب بعد أن قسم جيشه إلى قسمين الأول نحو الشمال والثاني معه،

1- *Ibid.*, p. 8.
2- Flathers, « L'Afrique septentrionale ancienne », *Revue Africaine*, 2 (1877), p. 153-168/233-248/345-360.
3- Charles Féraud, « Note sur Bougie », *Revue Africaine*, 3 (1859), p. 45/142.
4- Charles Féraud, « Ain Beida », *Revue Africaine*, 19 (1875), p. 451.
5- Charles Féraud, « Documents pour servir à l'histoire de Bône », *Revue Africaine*, 32 (1888), p. 5-196.
6- Charles Féraud, « Note historique sur les Ben Djellab », *Revue Africaine*, 23 (1879), p. 49-161.
7- Emile Masqueray, « Rapport archéologique sur Bellezma et Ngaous », *Revue Africaine*, 19 (1875), p. 33.
8- Emile Masqueray, « Document historique sur l'Aurès », *Revue Africaine*, 19 (1875), p. 97.
9- Louis Rinn, « Essai d'études linguistiques et ethnographiques », *Revue Africaine*, 33 (1889), p. 97-121.
10- Louis Rinn, « Essai d'études linguistiques et ethnographiques », *Revue Africaine*, 32 (1888), p. 29-49/385.
11- E. Fagnan, « Ibn El- Athir: Annales du Maghreb et de l'Espagne », *Revue Africaine*, 41 (1897), p. 5-183

وبهـــذا يكون عقبة الأول الذي وصل إلى حدود مناطق بعيدة كالنيجر[1]. وعن تعريب المغرب الأوسط فقد كان بفعل العرب الهـــلالية، بعد أن خربوا المنطقة الممتدة بين برقة وإفريقية، وحتى المغرب الأوسط لم يسلم و لم يكن بعيدا عن بطش العرب الهلالية، خاصة بعد أن أصبحوا أداة حربية بيد الأمراء البربر[2].

وأشار جورج مارس(Georges Marçais) في مقال نشره إلى ضرورة التوجه إلى الدراسة الأثرية للفترة الوسيطة لبلاد المغرب، الذي يعتبره منهج إضافي في الدراسات التاريخية الإسلامية، التي تعتبر مهمة. فهذه الفترة لا نملك عنها سوى المصادر العربية الأدبية والجغرافية التي كانت تصور الفترة الوسيطة على أنها مرحلة فوضى وتراجع، مخفية الوجه الآخر الذي تميز بالإبداع[3].

هذا ما جعل المؤرخ يبحث عن الأدلة المادية لهـــذه الفترة من خـــلال علم الآثار الذي يساعد في البحث ومعرفة الحياة الاقتصادية والتجارية للمغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة[4].

5- موقع ضئيل للفترة الإسلامية في الدراسات الأثرية

لم تكن المصادر العربية التاريخية والجغرافية وحدها كافية لكتابة تاريخ الجزائر عبر كل مراحله، فقد كان علم الآثار من العلوم المساعدة التي حاولت رسم ماضي الجزائر من خلال الاهتمام بالفترة القديمة بسبب المادة التاريخية الأثرية.

أما الفترة الوسيطية فلم تكن من أولويات علم الآثار الفرنسي بسبب نقص المصادر أوبسبب أهداف السياسية الاستعـــمارية الفرنسية في المنطقة التي لم تود توجيه الدراسات الأثرية للفـــترة الوسيطة، لكن وبعد أن وجهت المدرسة التاريخية الفرنسية دراستها للعنصر البربري بدأت الكتابات التاريخية وعلم الآثار البحث عن تاريخ المنطقة في الفترة الوسيطة بالتركيز على انجازات البربر خلال هذه المرحة.

5-1- قلعة بني حماد والبحث عن الماضي البربري-البيزنطي

لقد عرفت قلعة بني حماد فترة ازدهار قصيرة، مقارنة بالحواضر الإسلامية الكبرى خلال العصر الوسيط ، ولكنها سرعان ما فقدت مكانتها لصالح بجاية الناصرية، هذه الأخيرة عملت على استقطاب النخب السياسية والعلمية والمهنية، ما جعلها تصبح قطب المغرب، ومن الأسباب التي أدت إلى تراجع القلعة

1- Ernest Mercier, « Sidi Okba, ses expéditions dans l'extrême sud », *Revue Africaine*, 42 (1898), p. 222-229.
2- Ernest Mercier, « Les Arabes d'Afrique jugés par les auteurs arabes », *Revue Africaine*, 17 (1873), p. 43-49.
3- Georges Marçais, « Projet de recherche archéologique relative à la Berbérie du moyen âge », *Revue Africaine*, 60 (1919), p. 466.
4- *Ibid.*, p. 468.

الحمادية بعد الغزو الهلالي، والحملات العسكرية للموحدين لبسط نفوذهم على كامل بلاد المغرب[1]، كل هذه الأحداث والتحولات جعل هذه الحاضرة تتراجع وتندثر مع مرور الزمن، وتتحول إلى أطلال[2].

بقيت قلعة بني حماد على حالها حتى الفترة الاستعمارية، وخلال النصف الثاني من القرن 19م بدأت تسميتها من خلال أعمال المترجمين وعلى رأسهم البارون دو سلان الذي أشار إليها من خلال "مقدمة" ابن خلدون (*Les prolégomènes*) الذي أشار إلى موقعها الجغرافي[3]، وكتاب" العبر" المترجم للغة الفرنسية (*Histoire des Berbères*) حيث أشار إليها على أنها كانت عاصمة إمارة الحماديين[4]، ثم توالت الإشارات إليها، كما هو شأن فيرو الذي حاول إنجاز موسوعة تاريخية للمدن الجزائرية[5]، كما لمّح أرنست مرسيي (Ernest Mercier) في كتابه تاريخ استقرار العرب في شمال إفريقيا إلى الموقع الجغرافي والطبوغرافي للقلعة الحمادية[6].

لكن الملاحظات الأولى الجادة التي دفعت بالأثريين الهواة للاهتمام بالقلعة كانت بفضل قويت (Goyt) الذي كان مهتما بدراسة القبور الميقاليتية لمنطقة أولاد حنّاش، حيث أشار إلى آثار قلعة بني حماد على أنها ذات بعد روماني[7]، أما مع ميكاس (Méquesse) فقد كانت البداية، حيث نشر المقال التعريفي بها في المجلة الإفريقية، معتمدا في ذلك على ما كتبه بعض الفرنسيين وابن خلدون، وبعض الروايات الشفوية للأهالي[8]، فقد حاول ميكاس التطرق إلى تاريخ المنطقة بداية من عهد حماد بن بلكين، وبناء القلعة وكيف كانت عامرة بالمسلمين وحتى النصارى البربر[9]، ثم دخول العرب الهلالية للمنطقة وكيف استطاعوا نهب وتخريب المنطقة والاستيلاء على المدن الصنهاجية[10]. كما جمع روايات شفوية للأهالي ارتبطت بثلاث معالم قلعية: منارة الجامع الأعظم وبرج المنار وضريح الولي سيدي بلفضل. مقال ميكاس حفز الأثريين والمستكشفين الفرنسيين على الاهتمام بالفترة الوسيطة وخصوصا بآثار مدينة القلعة[11].

البداية الفعلية لعلم الآثار الفرنسي بقلعة بني حماد أرتبط بالعالم الأثري بول بلونشي (Paul Blanchet)، الذي أوكلت له مهمة البحث وتنقيب عن آثار قلعة بني حماد، وبذلك يعتبر أول باحث قام باستكشاف المنطقة ميدانيا بين 15 و25 أفريل 1897م. وبداية التقرير الذي قدمه كان عبارة عن إشارات

1- علاوة عمارة، دراسات، ص 17.

2 Allaoua Amara, « La Qal'a des Banī ḥammād, l'histoire d'un déclin », *Archéologie Islamique*, 11 (2001), p. 97-118.

3- Paul Blanchet, « Rapport sur les travaux exécutés à la Kalaa des Beni Hammad », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 45 (1898), p. 98.

4- *Ibid.*, p. 99.

5- *Ibid.*, p.99.

6- *Ibid.*, p. 99.

7- *Ibid.*, p. 99.

8- Méquesse, « Etude sur la Kalaa des Beni Hammad. Etude tirée des récits français et d'Ibn Khaldoun écrivain arabe », *Revue Africaine*, 30 (1886), p. 291-311.

9- *Ibid.*, p. 298.

10- *Ibid.*, p. 296.

11- *Ibid.*, p.297.

تاريخية للأسرة الحمادية وكيف استطاعت لأول مرة تأسيس كيان سياسي خاص بالمنطقة، خاصة بعد رحيل الفاطميين إلى مصر، وبداية اندلاع الصراع داخل الأسرة من أجل النفوذ على كامل بلاد المغرب بين الباديسيين والحماديين[1]. ثم تطرق إلى مدى تطور قلعة بني حماد في ظل الاستقرار السياسي، وكيف أصبحت من أهم المدن المغربية خلال القرنين 11-12م في ظل الازدهار الاقتصادي والعلمي، بعد أن أصبحت تستقطب إليها العلماء وطلاب العلم والتجار والحرفيين[2]، ما جعل هذه القلعة تصبح من أهم المدن العامرة بالسكان.

وما يؤخذ عن بلونشي أنه تطرق إلى الجانب الأثري والهندسي للقلعة، من خلال تقديم رسومات ومخططات للموقع والمعالم الحمادية للجنة، دون أن يقوم بحفريات، إلا أنها ستكوّن في النهاية، الصورة الطبوغرافية التي نجدها في تقارير الحفريات اللاحقة[3]. إضافة إلى أنه اعتمد كثيرا على الروايات الشفوية للجزائريين، قصد التعرف على بقايا معالم المدينة، لأنه كان لا يتقن اللغة العربية، كما أنه لم يتمكن من التمييز بين مدينة وقلعة العاصمة الحمادية، بالرغم من وجود بقايا الصور الفاصل بين الموقعين[4].

أما بناء معالم القلعة فقد أرجعه بلونشي إلى عبيد مسيحيين وعلى رأسهم العبد المهندس بونياش (Bouniache)، لتأكيد مدى التشابه بين المعالم الحمادية ومعالم صقلية[5]، وبإعطاء صورة التواصل بين الماضي الروماني لمنطقة المغرب، ومدى تأثر البربر بالفن الأوروبي لتلك المنطقة، من خلال إبراز اسم المهندس بونياش [6]. ثم قام بوصف المعالم الأثرية الهامة للقلعة، مثل الأسوار والنافورة العمومية والجسر والجامع الكبير ومئذنته وكذا قصر الأمير وملاحق قصر المنار الذي لا تزال أطلاله بادية[7].

فهذه حوصلة العمل الذي قام به بلونشي والذي كان في الحقيقة عبارة عن لمحة تاريخية وأثرية لمنطقة المعاضيد، إلا أن هذا الأثري الفرنسي كان قد نبّه إلى ضرورة الاهتمام بآثار الفترة الوسيطة، من خلال مقال نشره سنة 1900م يحمل عنوان La porte de Sidi Oqba، مؤكدا على ضرورة تسليط الضوء على التحف والآثار التي ترجع إلى الفترة الإسلامية[8].

إن البحث عن الآثار الحمادية لم يرتبط أو يقتصر على بلونشي، فقد حاول فيما بعد كل من الأثري الهاوي و رئيس بلدية المعاضيد أرشيل روبار (Archille Robert)، من نشر عدد من المقالات في

1- علاوة عمارة ، دراسات، ص. 117-118.

2- Blanchet, *op. cit.*, p. 102.

3- *Ibid.*, p. 101.

4- علاوة عمارة، دراسات، ص 118.

5 - المرجع نفسه، ص 118.

6 - المرجع نفسه، ص 118.

7- Blanchet, *op. cit.*, p. 115.

8- Paul Blanchet, *La porte de Sidi Oqba*, Paris, Ernest Leroux, 1900, p. 9-12.

مجلة الجمعية الأثرية لعمالة قسنطينة، وهي في الحقيقة عبارة عن نتائج الاستكشافات[1] التي قام بها كل من بول بلونشي و حفريات الجنرال دوبليي (Le Général de Beylié)، وأهمها مقال بعنوان القلعة وتحمامين (La Kalaa et Tihamamine)[2] الذي صدر سنة 1903م والذي حاول من خلاله توضيح الموقع الجغرافي لقلعة بني حماد[3]، ومدى أهمية ومكانة القلعة من خلال الروايات المتداولة عند العرب في مؤلفاتهم وحتى عند البربر عن طريق الروايات الشفوية كما حاول شد الانتباه إلى صناعة الفخار واستعماله داخل القلعة من خلال تقسيمه إلى قسمين: فخار ذو الاستعمال اليومي والفخار ذي الجودة العالية المصنوع من عجينة رقيقة[4].

كما حاول في مقالات أخرى لفت انتباه السلطات الفرنسية من جعل سمعة ومكانة القلعة تدرج ضمن الآثار التاريخية، للحفاظ عليها لكونها تمثل هندسة معمارية بربرية خالصة[5].

وبعد انتهاء حفريات الجنرال دوبيليي سنة 1908م، نشر أرشيل روبار مقالا تطرق فيه إلى نتائج حفريات الأول في قصر المنار الذي سمح له باستخراج عدد كبير من آثار الفخار والرخام المنحوت والجبس[6]، واستطاع كذلك تقديم بعض الملاحظات حول الفخار والنقوش على الرخام داخل القلعة خلال القرنين 11-12م[7]. كما كانت له اهتمامات بالآثار الرومانية من خلال مقالات عديدة نشرها بفضل الزيارات الميدانية لمنطقة عين بسام[8]، بلدية المعاضيد[9]، منطقة هنشير سيدي يحي بسدراتة[10]. كما حاول هذا الأثري الهاوي إبراز الماضي الروماني للمنطقة، وكذلك إبراز الماضي البربري للقلعة الحمادية، للتقليل من تأثير الفن الإسلامي المشرقي حسب رأي الأثريين والمؤرخين الفرنسيين.

أما المهندس المستشرق صلدان (H. Saladin) فقد نشر مقال سنة 1905م بالنشرية الأثرية للجنة العلمية للأعمال الأثرية *Bulletin archéologique du comité des travaux archéologiques et scientifiques* الذي حاول تقديم بعض الملاحظات والتفسيرات التي تخص قلعة بني حماد من خلال نتائج العالم الأثري بول بلونشي، الذي كان قد أشار إلى وجود تشابه بين المعالم الأثرية في صقلية النورمانية

1- Archille Robert, « La Kalaa et Tihamamine », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département deConstantine*, 50 (1903), p.217-226.
2- Archille Robert, « Note sur les céramiques, les marbres, les stucs, et objet divers de la Kalaa », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 54 (1922-1923), p. 199-243.
3- *Ibid.*, p.199-210.
4- *Ibid.*, p. 217-231.
5- *Ibid.*, p. 233
6- Archille Robert, « La Kalaa des Beni Hammad, Maadid », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 43 (1910), p. 97.
7- *Ibid.*, p. 98.99.
8- Archille Robert, « Note sur les ruines de Castellum, Auzianse » , *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 37 (1903), p. 49-55.
9- Archille Robert, « Note sur quelques vestiges antiques découverts dans la commune mixtes de Maadid *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 39 (1905), p. 239-243.
10- Archille Robert, « Hanchir Sidi Yahia, Sedrata », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine* 29 (1895-1896). p. 119-124.

والمعالم الأثرية للقلعة الحمادية[1] خاصة قصر المنار وقصر كوبا في باليرمو، ولكن صلدان فند هذا الاتجاه، بسبب أن قصر باليرمو قد شيّد في النصـــــف الثاني من القرن 12م، أما قصر المنار فقد شيد في النصف الثاني من القرن 11م[2]، ولكن صلدان أكد على مدى تأثر الفن الحمادي بصفة خاصة بفن العمارة في صقلية، بسبب العلاقات السياسية والاقتصادية التي كانت تربط السلطة الحمادية بأمراء جنوب ايطاليا[3].

ويؤكد الكاتب أن صقلية الإسلامية قد أثرت في فن العمارة لدى الحماديين وبلاد المغرب بشكل عام، بسبب الوجود الإسلامي الفاطمي "وكثرة اليد العاملة الفارسية" وهذا ما يجزم بأن العمارة الحمادية قد تأثرت بالفن المعماري الفارسي، بسبب البعد المذهبي للحماديين الذين كانوا على مذهب الشيعة الفاطميين[4].

أما المقال الثاني الذي نشره صلدان سنة 1909م، كان محاولة منه للتعريف بنتائج أعمال الحفريات التي قام بها دوبليي سنة 1908م والتي من خلالها أكد صلدان على مدى تشابه وتأثر فن العمارة الحمادية بالفن الفارسي أو المشرقي[5] ، كما أثنى على عمل دوبليي الذي كان أول من قام بأعمال الحفر على مستوى القلعة والتي مكنته من إخراج قصر المنار[6]، وعثور على بعض الآثار الحمادية، كما وضع مخططات للقلعة، ولكن ملاحظات صلدان حول أعمال دوبليي كانت ايجابية حيث عاتب ولام دوبليي على النقص الكبير في رسوماته الهندسية غير الواضحة[7].

لكن عرف صلدان بمكانة القلعة الأثرية والتاريخية، من خلال إبراز قيمتها الأثرية، في ظل السياسة الفرنسية في الجزائر، التي كانت تهتم وتمجد الآثار الرومانية على حساب الآثار الإسلامية التي لحقت بها أضرار كبيرة جراء الحملات العسكرية، ولهذا يجب وضع مقاييس وإجراءات للحفاظ عليها من أجل توضيح فن العمارة الإسلامية خلال الفترة الوسيطة، ولهذا كانت قلعة بني حماد حقلا مهما لعلم الآثار الفرنسي[8].

لقد ألهمت قلعة بني حماد الكثير من الأثريين الهواة، قصد البحث ولتأكيد خصوصية الفن البربري خلال الفترة الوسيطة، ومن أهم الوجوه التي اهتمت وباشرت العمل الميداني الجنرال دوبليي الذي قام بإجراء أول حملة حفريات أثرية بالعاصمة الأولى للحماديين سنة 1908م[9]، بتوجيه من المهـــندس صلدان وبمساعدة الباحث الأثري المعروف جورج مارسي (Georges Marçais) وثمانين عاملا (أهليا) ، واستطاع

1- Saladin, « Deuxième note sur les monuments de la Kalaa », *Bulletin archéologique du comité des travaux historiques et scientifiques*, (1905), p. 186.
2- *Ibid.*, p. 186.
3- *Ibid.*, p. 187.
4- *Ibid.*, p. 188-191.
5- Saladin, « La Kalaa des Beni Hammad », *Journal des savants*, Paris, MDCCCCIX, (1907), p, 258-259.
6- *Ibid.*, p. 256.
7- *Ibid.*, p. 256-257.
8- Saladin, *op. cit.*, p. 196-198.

9- علاوة،عمارة، المرجع السابق، ص 119.

دوبليي خلال هذه الحفريات من تحديد ووضع مخططات المسجد وبرج المنار والمباني الأميرية[1]. كما استطاع تفسير وتوضيح عدد من التساؤلات الهامة التي تخص تطور الفن الإسلامي، وفهم أحد أهم المراحل المهمة في تاريخ البربر[2]، ونتائج حفرياته نشرها في الجريدة الآسيوية سنة 1908م تحت عنوان عاصمة بربرية في القرن الحادي عشر، التي من خلالها تطرق إلى تأسيس القلعة ودورها السياسي والاقتصادي في بلاد المغرب والعالم الإسلامي المسيحي [3]، كما أشار إلى نقل العاصمة إلى بجاية في أواخر القرن 11م، بعد أن أصبح الوجود العربي بفعل القبائل الهلالية يهدد السلطة الحمادية[4]، ثم وصف القلعة من خلال التحصينات، ثم وصف القصور كقصر المنار ودار البحر وقصر الأمراء والمسجد، والتي كانت متأثرة في هندستها بالفن الإسلامي الفارسي، وحتى البيزنطي المحلي، في إشارة منه على أن القلعة البربرية ذات بصمة محلية خالصة[5]. أما التقرير النهائي فقد نشر في كتاب تحت عنوان "قلعة بني حماد، عاصمة بربرية لإفريقيا الشمالية في القرن الحادي عشر"، الذي جمع فيه بين التاريخ والآثار.

حاول الجنرال دوبليي في كتابه إعادة بناء تاريخ الدولة الحمادية من خلال آثار القلعة التي لعبت دورا هاما وبارزا خلال القرنين 11و12م، وخاصة في عهد حماد الذي قام بنقل القبائل البربرية من منطقة المسيلة وحمزة لتعميرها، في ظل استقرار الوضع للبربر بعد أن أصبحت المنطقة مستقلة عن سلطة الخلافة الفاطمية[6]. كما بيّن مدى تأثر الهندسة المعمارية في بلاد المغرب بالهندسة الآسيوية، من خلال مدينة المهدية التي كانت تحت سلطة الفاطميين، وحتى القلعة الحمادية فيما بعد جعلت من القاهرة وبغداد نماذج عمرانية في عملية البناء والزخرفة، ومن خلال ملاحظاته أكد بأن نصف القبة المزينة كخلية نحل داخل أحد قصور القلعة مستوحاة من طراز زخرفي في بغداد[7]. وتمكن دوبليي في النهاية من جمع العديد من قطع الفخار والخزف والحديد وقطعة نقدية واحدة، ولكنه لم يتمكن من إعادة رسم مخطط الموقع، واكتفى بنقل نتائج بلونشي غير المنشورة ونسبها لنفسه[8].

لقد ربط دوبليي مصير القلعة وازدهارها ارتباط ارتباطا وثيقا بالهجمة العربية لبني هلال[9] ، بعد أن وضعت مصير بلاد المغرب ككل على المحك بفعل النجاح العسكري الذي حققوه في المنطقة الممتدة بين برقة وإفريقية، ما جعل الدولة الزيرية تسقط وتفقد أهم مدنها كالقيروان بفعل الهجمات الهلالية المخربة

1- Georges Marcais, « La Kalaa des Beni hammad d'après deux publications récentes », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine* , 41 (1908), p. 162.
2- Saladin, *op. cit.*, p. 198.
3- *Ibid.*, p.199.
4- Le Général de Beylié, « Une capitale berbère au XI^{e} siècle », *Journal asiatique*, (1908), p. 193.
5- *Ibid.*, p.193-206.
6- Le Général de Beylié, *La Kalaa des Beni Hammad, une capitale berbère de l'Afrique du Nord au XI^{e} siècle*, Paris, Ernest Leroux, 1909, p. 5-6.
7- *Ibid.* p.171-186.
8- علاوة عمارة، دراسات، ص 119.
9- De Beylié, *op. cit.*, p. 7.

الأمر الذي كان في صالح القلعة الحمادية، بعد أن استقطبت بعض سكان القيروان وعلمائها وتجارها. ما جعلها تصبح عاصمة بلاد المغرب بدون منازع[1]. ولم تكن الدولة الحمادية في مأمن من الهلاليين خاصة بعد أن بدءوا سيرهم إلى المغرب الأوسط وسيطرتهم على الحضنة التابعة للحماديين، ما جعل الصراع يشتد بين الطرفين[2]، وأمام هذا التهديد، قام الأمير الحمادي الناصر ينقل عاصمته إلى بجاية التي كانت محصنة طبيعيا وصعبة الوصول إليها، بعد أن قام بترحيل سكان القلعة نحوها، وبذلك أفلت القلعة الأولى للحماديين وبرزت بجاية الناصرية التي سوف تلعب دورا هاما في تاريخ العلاقات التجارية مع المدن الأوروبية بعد أن عقدت معاهدات واتفاقات تجارية معها، وقمة العلاقات مع الغرب المسيحي كانت بفضل المراسلات بين البابا جريجوار السابع (Grégoire VII) والأمير الحمادي الناصر سنة 1076م بخصوص تعيين أسقف بجاية التي كانت بها جالية مسيحية، وهذا ما يؤكد فكرة التسامح الديني الذي كانت عليه السلطة الحمادية[3].

تراجع وأفول الإشعاع الحضاري للدولة الحمادية كان في القرن 11م بسبب العنف والفوضى، الذي طال المنطقة جراء "الهجمة أو الغزوة" الهلالية[4]، بالإضافة إلى الصراع داخل الأسرة الحمادية والحملات الأوروبية على سواحل بلاد المغرب وخاصة سواحل إفريقية والمغرب الأوسط[5]، وحتى الموحدين كان لهم نصيب في تراجع واندثار الحضارة الحمادية من خلال حملاتهم العسكرية التي قضت نهائيا على القلعة الحمادية، وبذلك انتهى إشعاعها الحضاري، ما سمح لبجاية الناصرية أن تؤدي دورا بارزا وهاما خلال الفترات الموحدية والحفصية وحتى العثمانية[6].

لقد حاول دوبليي إبراز دور ومكانة الدولة الحمادية من خلال التركيز على الجانب المعماري للقلعة، وتأكيد خصوصية الفن البربري للمنطقة في الفترة الوسيطة، وعلاقته بالموروث الروماني والبيزنطي، لتأكيد بأن هندسة بناء القلعة يرجع إلى العبد المهندس بونياش[7] وهو ما لم يتمكن من الوصول إليه في النهاية، وهذا ما كان يعكس عنوان كتابه الذي صدر سنة 1909م.

فالفن المعماري الإسلامي في المغرب الأوسط شد انتباه العديد من الدارسين الذين حاولوا فهم ودراسة بداية تشكله الذي اقتصر تقريبا على القلعة[8]، ما جعل الدارسين الغربيين وخاصة الفرنسيين أمثال بروسلار (Brosselard) وأبي برجاس (Abbé Bargès) يهتمون بالموضوع، حيث توجهوا إلى مدينة تلمسان

1- *Ibid.*, p. 8-9.
2- *Ibid.*, p. 9.
3- *Ibid.*, p. 10.
4- *Ibid.*, p. 11.
5- Ibid, p.10-13.
6- *Ibid.*, p.13-15.

7- علاوة عمارة، دراسات، ص 120.

8- Georges Marçais, « Revue de l'art musulman en Berbérie », *Revue Africaine*, 50 (1906), p. 412.

محاولين تسليط الضوء على الهندسة المعمارية في ظل الدولة الزيانية التي كانت تعكس فن العمارة العربية الإسلامية من خلال دراستهم للمساجد والأضرحة والحمامات[1].

بالرغم من العثور على بقايا أثرية قليلة وغير كافية كالرخام والخزف والأعمدة الخشبية والزجاج تخص البربر والتي تعود للفترة الوسيطة، إلا أنها ساهمت في تسليط الضوء وأعطت بعض الإضافات في وصف وتحديد المنشآت والبنايات التي لا تزال قائمة بالرغم من الحملات العسكرية للجيش الفرنسي[2]،والتي تأثرت بالفن المعماري الإسلامي العربي والفارسي، عكس ما كانت تأمل إليه دراسات وأبحاث الأثريين الفرنسيين الذين حاولوا تأكيد تأثر المغرب الأوسط بالفن الروماني والبيزنطي[3].

كما استطاعت فرنسا تحقيق بعض النتائج العلمية بفضل البعثات العلمية التي مست كل المناطق تقريبا، بهدف البحث وجمع عدد أكبر من المخطوطات، بفضل مجموعة من المستشرقين التي كانت لهم اهتمامات وإمكانيات كبيرة في استعمال اللغة العربية وعلى رأسهم فانيان (Fagnan) الذي كان يعد من أبرز وجوه الاستشراق الفرنسي في نهاية القرن 19م ومطلع القرن 20م، والذي نشر مقالات في المجلة الإفريقية حول الفتح الإسلامي من خلال "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، والذي بفضله تمكن من تسليط الضوء أكثر على إلحاق بلاد المغرب بالخلافة الأموية.

ومن الوجوه الفرنسية التي ساهمت في إعطاء دفع للكتابات التاريخية الفرنسية ريني باسيه (René Basset) بفضل المهام التي أوكلت إليه من طرف الحكومة الفرنسية لدراسة اللغة الزناتية ومقارنتها بلهجات بربرية أخرى، المخطوطات العربية في المناطق الصحراوية، حيث استطاع من خلال هذه المهام الحصول على عدة كتب كمخطوط أحداث عثمان بن عفان لعبد الله بن إباض وكتاب الفرائض لابن الجبار ومدونة أبي غانم، وكتاب الحجة على الخلف في معرفة الحق لأبي صفرة الدهمان. ويمكن كذلك إضافة ماسكيراي (Masqueray) الذي ترك بصمات في الكتابات التاريخية الفرنسية أواخر القرن 19م بفضل مساهماته التاريخية الناتجة عن تنقله في الأوراس وميزاب بأمر من وزارة الحربية والحاكم العام[4].

وبحكم احتكاك فرنسا مع بلاد ميزاب وفي محاولة لفهم هذا المجتمع الإباضي عملت على البحث عن المخطوطات الإباضية التي أرخت لهذه الجماعة، خصوصا فيما يتعلق بالدولة الرستمية الإباضية المذهب، وتتبع نشأة وتطور النظم الدينية والاجتماعية كـ"نظام العزابة"[5]. وبفضل ماسكيراي استطاعت فرنسا التعرف على كتاب السير لأبي زكرياء (*La Chronique d'Abou Zakaria*) الذي يعتبر من أهم الكتب التي أرخت للإباضيين[6]، فقد عرض ماسكيراي في مقدمة الكتاب لمحة تاريخية عن كيفية ظهور المذهب

1-*Ibid.*, p.415.
2- *Ibid.*, p. 418.
3- *Ibid.*, p. 404.
4- Emile Msqueray, *Chronique d'Abou Zakaria*, traduite et commentée, Alger, 1878, p. I.
5- *Ibid.*, p. LXXIV-LXXVI.
6- *Ibid.*, p. XIV-XV.

الخارجي على الساحة السياسية الإسلامية بسبب الخلاف على السلطة "خلافة المؤمنين" وكيف تمكن في ظرف قصير من تكوين دولة مستقلة عن الخلافة الإسلامية في بلاد المغرب الأوسط عن طريق الصفرية والإباضية.

أما بالنسبة للمذهب الإباضي فقد دخل وانتشر في بلاد المغرب في فترة الولاة[1]، خاصة في ظل ظلم وتحقير بعض الولاة للبربر المسلمين بدفع الجزية، ما أدى بهم إلى الثورة ضد سلطة الخلفاء باسم الدين معتمدين على فكر الخوارج كأداة لتحقيق غايتهم "الاستقلال عن سلطة الخلفاء"[2]، الشيء الذي جعل ماسكراي يربط بين الفكر الدوناتي الذي كان يمثل إحدى حلقات الصراع بين العبد والسيد والمذهب الخارجي، من خلال نقاط التشابه في مطالبهم السياسية والاجتماعية التي كانوا ينادون بها[3].

أما مهـــمته الثانية في الأوراس فقد اتجه بهدف التعرف أكثر وعن كثب على البربر من خلال دراسة عاداتهم وتقاليدهم وكذلك البحث عن الكتب وجمع الأدلة الأثرية والروايات الشفوية ودراسة اللهجات البربرية. ونشر سنة 1886م كتاب حاول فيه التطرق إلى ماضي المنطقة من خلال الهجرات السكانية المتعاقبة عليها، باعتبارها منطقة عبور[4] مشيرا إلى احتمال أن تكون المنطقة قد شهدت هجرة للزنوج من الجنوب عندما كان المناخ ممطر، أو هجرة للجنس الأوروبي الذي تنسب له القبور الجنائزية الموجودة في الجزائر[5].

بالرغم من الدراسات التي سبقـــته في هذا الميدان إلا أنه لم يفـــصل في أصل هؤلاء البربر، لأن الكهوف والمقابر التي هي محل دراسة لم تفصل بأسرارها نهائيا، بالرغم من أن بعض القبور قريبة جدا من الفترة الرومانية[6]. كما تطرق لازدهار ورقي المنطقة في ظل الحضارة الرومانية، بفضل إنتاجها الزراعي الوفير ولا سيما إنتاج القمح الذي كان من أهم المحاصيل، ما جعل الرومان يحرصون عليه[7]. أما الوجود العربي الإسلامي في المغرب الأوسط فقد تم عبر مرحلتين: المرحلة الأولى عن طريق الفتح خلال القـــرن السابع الذي كان سريعا وسهلا، والمرحلة الثانية كان بفضل الهجرة الهلالية للمنطقة التي كانت من عوامل تراجع المنطقة بفعل التخريب واغتصاب السهول والهضاب من البربر[8].

كما استطاع من خلال المهمة التي أوكلت إليه في الأوراس وميزاب وفي القبائل الكبرى توضيح دور التكتلات القبيلة في التكوين الاجتماعي[9]، مشيرا في ذلك إلى جبال الأوراس والقبائل الكبرى التي

1- *Ibid.*, p. LXII.
2- *Ibid.*, p. LXVI.
3- *Ibid.*, p. LXXI.
4- Emile Masqueray, *La formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie* (*Kabyles de Djurjura, Chaouïa de l'Aurâs, Beni Mezâb)*, Paris, Ernest Leroux,1886, p. 1.
5- *Ibid.*, p. 3.
6- *Ibid.*, p. 5.
7- *Ibid.*, p. 3.
8- *Ibid.*, p. 12.
9- *Ibid.*, p. 219.

تعتمد على العرش في تكوين المنطقة اجتماعيا[1]، بالإضافة إلى الموقع والتاريخ اللذان يشاركان في تكوينها إقليميا واجتماعيا[2]، أما بلاد ميزاب فهي مختلفة بفعل التأثير الديني "المذهبي" في تكوين المجتمع من خلال **المؤسسات التي تشارك في تسييره كنظام العزابة[3].**

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- *Ibid.*, p. 219.
2- *Ibid.*, p. 260.
3- *Ibid.*, p. 219.

الفصل الثالث

التوجه التدريجي إلى الكـــــتابة التاريخـــية الأكاديمية (1900-1930)

جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية

1- تاريخ أديان المغرب الأوسط: من اليهودية والمسيحية إلى الإسلام

بالرغم من التطور والتحول في العلوم الاجتماعية وفي المؤسسات العلمية وبتشجيع من الإدارة الفرنسية للباحثين، إلا أن الكتابة التاريخية الفرنسية مع مطلع القرن 20م لا يزال البعض معظمها كلاسيكي في الطرح، بالرغم من توفر المادة التاريخية خاصة المصادر العربية منها، التي تغطي الفترة الوسيطة، كما لا يمكن إنكار تخصصها في بعض المجالات كالدين الإسلامي، الذي حضي بدراسات عديدة إلا أنها كانت عامة وبسيطة في الطرح [1].

فقد شارك الفرنسيون ببحوث كثيرة عن الإسلام منذ احتلالهم الجزائر. وظهرت دراسات فردية وجماعية، تحدثوا فيها عن مختلف الموضوعات التي تمس تاريخ الإسلام كالعقيدة والجهاد والملكية. واختص المستشرقون بجوانب أخرى كالتصوف والفقه والتاريخ[2].

وبدراسة أكثر تاريخية للإسلام تطرق إيدمون دوتي (Edmond Doutté) إلى كيفية دخول واستقرار الإسلام في بلاد المغرب "الذي كان عنيفا وسريعا كالبرق" بفضل الفتح والتنظيم العسكري الذي كان يعتمد على مجموعات صغيرة ومنضبطة، حيث استطاعت أن تقضي على البيزنطيين والبربر بعد أن زرعت الرعب والخوف جراء تصرفات القادة الفاتحين من أجل ترهيب السكان وفرض الدين بحد السيف، كما فعل عقبة بن نافع مع كسيلة، القائد البربري[3]. ومن العوامل التي ساعدت في تثبيت الإسلام في المنطقة دخول مذهب الخوارج الذي اعتنقه البربر ليكون وسيلة للقضاء على سلطة العرب، بعد أن ربطه بالحركة الدوناتية خلال القرن 4م ضد السلطة الرومانية في بلاد البربر التي ثارت من أجل تغيير الأوضاع الاجتماعية للبربر الفقراء[4]، بالإضافة إلى الفكر الشيعي الذي دخل المنطقة واستطاع أن يكوّن دولة بعد استغلال قبيلة كتامة في تحقيق هدفها. ثم تطرق إلى إسلام البربر الذي وصفه بالسطحي بسبب أنهم يعتمدون على العرف القبلي كقانون لضبط شؤونهم الاجتماعية ولحل قضاياهم بدلا من الفقه الإسلامي[5]. ثم حاول إعطاء صورة عن الإسلام في الجزائر من خلال التطرق إلى ركائز العقيدة الإسلامية (الإيمان بالله والملائكة والرسل والكتب والقضاء والقدر)، ثم أركان الإسلام الخمسة[6]، وكذلك عالج قضية الإمام والجهاد عند المسلمين، بالتطرق إلى دار الإسلام ودار الجهاد، وكيف كان وضع أهل الكتاب (المسيحيين واليهود) كالعبيد [7] ولا يحق لهم بناء الكنائس.

1-*Alfred Bel, Caractère et développement de l'Islam en Berbérie et plus spécialement en Algérie, Alger, 1900,* p. 180.

2-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر، ص 153.

3- Edmond Doutté, *L'Islam algérien en l'an 1900*, Alger, Girlat, 1900, p. 28.

4- *Ibid.*, p. 30.

5- *Ibid.*, p. 35-38.

6- *Ibid.*, p. 20.

7- *Ibid.*, p. 12.

من جهته، أصدر بوني موري (Bonnet Maury) كتاب "الإسلام والمسيـــــحية في إفريقيا" والذي تمكن من خلاله من تحديد مراحل أساسية وهامة في توسع وانتشار الإسلام في بلاد المغرب، فقد كانت المرحلة الأولى الممتدة بين 638-1050م من أهم المراحل بفعل الحملات العسكرية الأولى للمسلمين التي تجسدت في شخصية عمرو بن العاص الذي فتح باب الحملات العسكرية نحو غرب مصر، ثم شخصية عقبة بن نافع الذي استطاع فتح العديد من المناطق في حملته الأولى كمنطقة فزان بعد أن طرد وسحق كل القبائل البربرية التي قاومته، كما قام ببناء مدينة القيروان لتكون قاعدة للجند ومراقبة القبائل البربرية، وفي حملته الثانية استطاع الوصول إلى المحيط الأطلسي بعد أن أخضع القبائل البربرية[1]، فقد كانت الحملات العسكرية للقادة المسلمين سببا في نشر الدين الإسلامي في بلاد المغرب رغم المقاومة البيزنطية والبربرية، أما المرحلة الثانية فقد ربطها بالهجرة الهلالية التي جاءت لمعاقبة المغرب بعد أن خرج عن طاعة الفاطميين[2]. بعد ذلك تطرق إلى الصراع الحضاري بين المسيحية والإســـلام، مؤكدا دور المسيحية الحضاري والبراق بين القرنين 2م و7م في المغرب، ولكن تلاشت وزالت بعد الفتح الإسلامي خلال القرن 7م، بعد أن دمرت الكنائس والمدن الرومانية، تاركة المجال للإسلام الذي استـــــطاع أن يلمع بفضل تطور العلوم والفن بين القرون 8م و11م، ولكنه تراجع وانحط بعد سقوط الحضارة الإسلامية في الأندلس[3].

في نفس الفترة نشر روني باسي (René Basset) دراسة حول ديانة البربر عبر العصور، ثم تطرق إلى صعوبة دراسة دين البربر في القـــــديم بالرغم من وحدة الجنس واللغة، ما يجعل تحديد الديانة الوثنية المحلية والدخلية صعبا [4]. أما مسألة دخول المسيحية وتطورها وانتشارها فقد تم عبر مراحل أساسية، بداية بالأسرى والعبيد الذين كانوا عاملا في نشر الدين عن طريق التبشير وكذلك بفعل اعتناق الأباطرة للديانة المسيحية ما جعل البربر يعتنقونها ويعملون على نشرها من خلال الكنائس التي كانت من العوامل المساعدة على انتشارها[5]. كما أشار إلى الحركة الدوناتية التي كانت لها بعد اجتماعي من خلال ثوراتها ضد الإمبراطورية الرومانية بعد أن أعتنقه البربر[6]، أما الديانة اليهودية فقد كانت موجودة ومنتشرة من خلال مقاطعات يهودية مزدهرة في المناطق الممتدة بين برقة والأوراس إلا أنها تراجعت بعد دخول المسيحية[7].

أما عن كيفية انتشار الإسلام فهو يشير إلى أن الدراسات لا تملك معلومات كافية حول الوسائل والآليات في انتشاره ولكنه يؤكد بأن الفتح كان من بين الوسائل التي ساعدت على دخوله، بفضل

1- Bonnet Maury, *L'islam, et le christianisme en Afrique*, Paris,1906, p. 68-71.
2- *Ibid.*, p. 67.
3- *Ibid.*, p. 290.
4-René Basset, *Recherches sur la religion des Berbères*, Paris, Ernest Leroux, p. 1-2.
5- *Ibid.*, p. 38-39.
6- *Ibid.*, p. 37-39.
7- *Ibid.*, p. 35.

الحملات العسكرية التي فرضت الدين بالقوة، بالرغم من مقاومة البربر وعزهم إلا أن هذا الدين استطاع أن ينتشر إلى أبعد الحدود بفضل هؤلاء البربر الذين انضموا إلى جيش المسلمين بعد أن اعتنقوا الإسلام[1].

وفي كتاب "الإسلام والمسلمون في إفريقيا الشمالية" *L'islam et les musulmans dans l'Afrique du Nord* أكد أوجان (Eugène)أن المسلمين لا يعارضون الوجود الفرنسي في الجزائر بشرط أن تحافظ على الدين وعلى العادات والممتلكات[2]، ولا يكون هذا إلا بفضل دور مؤسساتها الحضاري داخل الجزائر وخارجها كما فعلت لحماية قناة السويس بفضل جنودها وعمالها[3].

لقد حاولت المدرسة التاريخية الفرنسية الاهتمام بالدين الإسلامي في الجزائر من خلال دراسات عديدة نشرت في محاولة منها لفهم صيرورته وتطوره إلا أنها في الغالب عامة، وحصره في المعتقدات والطقوس الممزوجة بالسحر، مع التركيز على الزوايا التي كانت في نظر فرنسا من أهم المؤسسات الدينية في الجزائر ذات التأثير الكبير على الأهالي.

2- مواصلة الأحكام المسبقة: العروبة والبربرية والإسلام

بقيت الدراسات التاريخية الفرنسية للمغرب الأوسط في مطلع القرن 20م كلاسيكية في الطرح والمعالجة بعيدة عن المنهج العلمي، بالرغم من ترجمة العديد من المصادر العربية الهامة التي تخص الفترة الوسيطة، إلا أنها بقيت تهتم وتربط ماضي المنطقة بالفترة الرومانية، وتتجاهل الفترة الإسلامية. وهذا ما نلمسه عند برنار فريدون (Bernard Fredon)الذي نشر دراسة تخص تاريخ الجزائر عبر العصور مركزا على إنجازات روما الحضارية في المنطقة. حيث أكد على ازدهار وثراء الأرياف في بلاد المغرب خلال الفترة الرومانية التي كان يسودها الرخاء بعد أن سيطرت عليها الطبقة الثرية من الرومان، الذين استولوا على أخصب السهول مما جعلهم يهتمون ويركزون على زراعة الأرض، بعد أن قاموا بإنشاء وتوفير شبكة هامة من قنوات الري وبناء السدود [4]، الشيء الذي جعلهم يتخصصون في زراعة القمح على مساحات واسعة من أجل تزويد أسواق روما. في ظل هذا الرخاء الاقتصادي ازدهرت وانتشرت الديانة المسيحية في شمال إفريقيا، حيث كان يوجد بها حوالي 600 أسقف ومن أبرزهم القديس أوغسطين (Saint Augustin) [5]،ولكن هذا التطور والازدهار لم يدم طويلا بسبب ثورات الدوناتيين في القرن 4م الناتجة عن تردي الأوضاع الاجتماعية للبربر خاصة وأن المسيحية كانت تدعو إلى الحرية والمساواة[6].

1- *Ibid.*, p. 40-42.
2-Eugène, *L'islam et les musulmans dans l'Afrique du Nord*, Paris, 1930, p. 11-12.
3- *Ibid.*, p. 13-24.
4- Bernard Fredon, *Histoire de l'Algérie, colonisation, géographie, administration*, Alger, Adolphe, 1906, p. 12.
5- *Ibid.*, p. 12.
6- *Ibid.*, p. 13.

أما الفترة الوندالية فقد كانت سببا في تخريب المنطقة وانحطاطها جرّاء المعارك ضد الرومان، والتي انجر عنها تحطيم وتخريب للمدن والأرياف التي شيّدها روما خلال وجودها في المنطقة، ما جعل المؤرخين يقرنون مصطلح العنف والتخريب بالوندال[1]، ثم جاءت الفترة البيزنطية التي لم تقد إضافات لازدهار المنطقة بل كانت السبب في تراجع المنطقة جراء سياستها القائمة على الضرائب، ما جعل الفلاحين يغادرون الأرياف والمزارع في ظل الثورات والفوضى[2].

وفي الفترة الإسلامية فقد حصرها بفترة حكم الصنهاجيين الذين تمردوا على السلطة الفاطمية التي لم تجد من وسيلة للانتقام سوى إرسال "بني هلال المتوحشين"[3]، الذين هاجروا في أعداد كبيرة من أجل تأديبهم بفعل السرقة والنهب، حتى أصبحت المنطقة الممتدة من برقة إلى حدود الحماديين مخربة، وبعد أن تم حرق المدن والمزارع وقطع الأشجار، ما جعل التصحر يخيم على المنطقة، ما أدى بالبربر إلى اللجوء إلى الجبال. ومن ثم فإن الفترة الوسيطة كانت تمتاز بالفوضى وعدم الاستقرار[4].

بنفس النظرة سعى رونار (Renard) في كتابه "تاريخ الجزائر" إلى تسليط الضوء على البربر وأصولهم، حيث أرجع البربر ذوي البشرة البيضاء إلى أصول أوروبية أو آسيوية، أما ذوي البشرة السمراء فهم ينحدرون من الإسرائيليين الذين كانوا عبيدا وأسرى للمصريين[5]، أما احتكاك البربر بالحضارات المتعاقبة فقد كان مع القرطاجيـــين الذي انحصر واقتصر التفاعل بين الشعبين في مجال التجارة وانتشار اللغة[6].

ولكن وضع المنطقة تغير بعد دخول الحضارة الرومانية التي سعت إلى تطويرها من خلال الازدهار الذي شهدته المنطقة في مجال الزراعة والصناعة والتجارة[7]، وبإنجاز مدن كبيرة ومزدهرة، إلا أنهم قاوموا الرومان بسبب المُلك الذي انتزع منهم بسبب الاحتلال الروماني[8]، ولكن سرعان ما اندمجوا في الحضارة وخير دليل على ذلك مملكة شرشال في عهد يوبا الخامس [9]، حتى المدن الساحلية التي نشطت تجارتها بفضل الحرفيين وسيطرة قبضة الطبقة البرجوازية الرومانية، أما المناطق الداخلية فقد شهدت ازدهارا زراعيا كبيرا، بفضل دهاء الرومان الذين استطاعوا شق قنوات السقي الأمر الذي أدى إلى وفرة وتنوع الإنتاج حتى أصبحت تسمى مطمورة روما [10] ولكن الثراء كان يقتصر على بعض المناطق كقرطاج ونوميديا، ما

1- *Ibid.*, p. 13.
2- *Ibid.*, p. 13.
3- *Ibid.*, p. 20.
4- *Ibid.*, p. 20.
5- A. Renard, *Histoire de l'Algérie*, Paris, Hachette, 1910, p. 3.
6- *Ibid.*, p. 4.
7- *Ibid.*, p. 6.
8- *Ibid.*, p. 6.
9- *Ibid.*, p. 6.
10- *Ibid.*, p. 7-8.

أدى إلى تراكم الكراهية التي ولدت الثورة، ما ترتب عنها تخريب المدن والقرى والمزارع جراء ثروات البربر التي أدت إلى إضعاف روما وانهيارها[1].

لكن الكاتب لم يغط كامل الفترة الإسلامية، واقتصر على الفتح الإسلامي للمنطقة الذي استطاع طرد الروم نهائيا، رغم مقاومة الكاهنة إلا أنه تمكن من إخضاع المنطقة. ويرجع سبب انتشار الدين إلى الأوضاع الاجتماعية السيئة للبربر، الذين اعتنقوه للتخلص من جور سلطة البيزنطيين[2]. أما الهجرة الهلالية فقد كانت من منظور رونار مرحلة من مراحل انحطاط المغرب الأوسط، فبعد أن خرجوا "كالجراد" إلى إفريقية بأمر من الخليفة الفاطمي بدأت أعمال التخريب تطال كل المدن والقرى، ما أدى إلى تحطيم وتراجع المنطقة. وقد أرجع الهجرة الهلالية إلى أسباب سياسية ودينية من خلال القطيعة المذهبية للمعز الصنهاجي مع الخلافة الفاطمية، لهذا كان وجود العرب الهلالية في المنطقة بدافع الانتقام[3].

وبنظرة أكثر عنصرية نشر لوران (Lorin) كتابه *L'Afrique du Nord* مشيرا إلى إنجازات وأمجاد روما في المنطقة من خلال إنجازاتها الحضارية المتمثلة في الاستيطان الذي جاء بعد أن أستقر لها الوضع بفضل سياسة التحالفات مع الأمراء البربر في المناطق الإستراتيجية كنوميديا وشرشال وتيبازة[4]، ما جعل المنطقة تعيش لمدة خمس قرون في كنف السلم، الشيء الذي أدى إلى ازدهار المدن والأرياف، التي سكنها وعمرها المستوطنون اللاتينيين والبربر المترومنين، وساعدوا في استصلاح الأراضي التي أدّت إلى انتـــــشار الزراعة الواسعة بعد أن كانت المنطقة صحراء[5]، وفي ظل هذا الرخاء والمساواة والسلم الروماني أنجبت المنطقة رجال عظام كان لهم أثر عميق في الحضارة الروماني مثل القديس أوغستين (Saint Augustin) وسبتيم سيفار (Septime Sévère) الذي كان إمبراطورا لروما[6]. وفي ظل السلم الروماني (La Paix Romana)، احتكّ البربر مع الرومان من خلال المنشآت العمومية كالمسرح والسرك والحمامات.

أما الفترة الوندالية فقد وصفها بالتخريب والنهب للمدن والمزارع، والفترة البيزنطية الموالية لم تقد شيء إضافي في المنطقة بل اقتصر جهدها على ترميم المدن والمنـــــشآت الرومانية، وإنشاء بعض القلاع والحصون[7].

إن الفترة الإسلامية بالنسبة لـــ لوران كانت تمثل القطيعة بين ضفتي البحر المتوسط الشمالية والجنوبية، بسبب "الغزو الإسلامي" للمنطقة الذي بدأ مع عمرو بن العاص الذي فتح باب إفريقيا للعرب من أجل التوجه إلى بلاد البربر، للدعوة ولنشر الدين[8]، ولكن سرعان ما تغير الوضـــــع وأصبح

1- *Ibid.*, p. 9.
2- *Ibid.*, p. 12.
3- *Ibid.*, p. 14.
4- Lorin, *L'Afrique du Nord*, Paris, 1912, p. 26.
5- *Ibid.*, p. 27.
6- *Ibid.*, p. 28.
7- *Ibid.*, p. 27-29.
8- *Ibid.*, p. 33.

العنف والرعب سمة الحملات العسكرية الأولى واستطاع حسان بن النعمان من إنهاء الوجود البيزنطي في قرطاج بعد أن دمرها وخربها، ما جعل البربر يرفضون الإسلام وقوانينه، والفرار نحو الجبال ليكونوا بعيدين عن العرب وعدم الاحتكاك بهم[1]. كل هذا ما جعل المنطقة – يضيف الكاتب- تدخل في طور جديد تميز بالفوضى والثورات الاجتماعية والدينية في ظل الحضارة الإسلامية، ما جعل البربر غير قادرين على استرجاع حقوقهم ووحدتهم السياسية والروحية التي كانت في العهد الروماني، ما أدى بهم الرجوع إلى الحياة البدائية[2].

أما هوارت (Huart) فقد تطرق في كتابه "العرب" إلى المنطقة الممتدة من قسنطينة إلى الجزائر خلال فترة الحماديين وما كانت عليه من الرخاء والازدهار بفضل ثروات وخيرات المنطقة[3]، ولكن هذا الرخاء لم يدم طويلا بفعل الهجرة الهلالية، بالرغم من محاولات وجهود الحماديين لردع هذه الهجرة، إلا أنهم فشلوا ما جعل العرب الهلالية يستقرون في المنطقة ويفرضون حياة البداوة، بعد أن خربوا أهم مدن المنطقة كالقيروان، ما جعل ثراء وازدهار إفريقيا الساحلية يندثر إلى الأبد وسقوطها في الفوضى والتوحش[4].

و كردة فعل على الكتابات الفرنسية، حاول بوليفة (Boulifa) في دراسته حول "جرجرة عبر التاريخ"، اعطاء تصور آخر لتاريخ المنطقة التي لم تكن غير معزولة بل لعبت دورا هاما، خاصة خلال فترة الحماديين والحفصيين[5]. ولكن تاريخ المنطقة في القديم ارتبط بالفينيقيين الذين كانت تربطهم علاقات تجارية هامة مع سكان المنطقة بسبب موقعها الذي يتوسط الشرق والغرب، وحتى بعد اندثار حضارة قرطاج كان البربر قد أخذوا عنهم الصناعة والفن، أما الرومان فقد استعملوا القوة والدهاء السياسي لفترة طويلة لإخضاع المنطقة بفضل تحالفهم مع مملكة شرشال لإخضاع المنطقة ودمجها[6]، إلا أن سيطرة روما لم تدم طويلا بفعل ثورات بربر جرجرة الذين حطموا وخربوا إنجازاتها في المنطقة[7]. أما الفتح الإسلامي فلم يؤثر في المنطقة بسبب انحصار الفتح في منطقة إفريقية والمناطق الداخلية، ما جعل المناطق الساحلية الوعرة بعيدة عن الفاتحين لصعوبة الوصول إليها واختراقها، حسب ما ذكرته المصادر العربية[8]. وكان التأثير العربي بفعل دخول القبائل الهلالية، الذين تمكنوا من تغيير تركيبة المنطقة بشريا بعد أن استقروا وبدؤوا في التنقل بين مختلف المناطق ما مما دفع البربر إلى اللجوء إلى الغرب والجنوب[9].

1- *Ibid.*, p. 33-36.
2- *Ibid.*, p. 37.
3- Claude Huart, *Les Arabes*, Paris, Paul Geuthner, 1913, t. 1, p. 176-177.
4- *Ibid.*, p. 178-180.
5- S. A. Boulifa, *Le Djurdjura à travers l'histoire depuis l'Antiquité jusqu'à 1830*, Alger, 1925, p. II-III.
6- *Ibid.*, p. 10-18.
7- *Ibid.*, p. 20.
8- *Ibid.*, p. 16-17.
9- *Ibid.*, p. 17.

أما إسلام البربر فهومرتبط أساس بفكرة الحرية والاستقلال وهذه إشارة إلى مذهب الخوارج الذي انتشر في المنطقة على أساس أنه مذهب سياسي وديني، ما جعل البربر يعتنقون الإسلام[1].

وبتصور جديد إلى علاقة البربر بالإسلام، حاول مارسيي التأكيد على افتقارهم إلى مشروع وطني أو الإحساس بالوطنية[2]، وكيف استطاع الإسلام بقوة حضارته أن يوحدهم خلال الفترة الوسيطة، من خلال الدول التي قامت على أساس ديني كالدولة الرستمية والفاطمية والمرابطية والموحدية[3].

أما أرتير هابيك (Arthur Habec) فقد حاول إعطاء إشارات تاريخية للجزائر عبر التاريخ لتكون أداة لفرنسا من أجل النهوض بالجزائر من خلال ربط مجد وعظمة المنطقة بالحضارة وتراجعها وانحطاطها بالوجود العربي منذ القرن 7م. والبداية كانت مع أصول البربر حيث تطرق إلى التشابه الكبير في البنية الجسمية بينهم وبين الفرنسيين والإسبانيين[4]، ثم تطرق إلى أهم الفترات التاريخية خاصة عندما سلّط الضوء على المرحلة الرومانية التي بفضلها عاشت في ازدهار وسلم لمد خمسة قرون، خاصة بعد أن قامت بشق طرق المواصلات على الساحل بين الموانئ، وجعلوا من أراضيها خصبة وثرية بفضل الزراعة المنتشرة[5]، من خلال إنشاء السدود وقنوات الري، بفضل جنودها المستوطنين، الذين منحت لهم الأراضي الخصبة بعد انتهاء مدة خدمتهم العسكرية للاستقرار بغرض تشجيع الزراعة. بالإضافة إلى استغلال البربر بعد أن منحتهم حق المواطنة وبالتالي العدالة والأمان[6]. إن انحطاط وتراجع بلاد المغرب الأوسط كان مع الوندال في القرن 5م وانتهى مع العرب الفاتحين خلال القرن 7م، بفضل التخريب الذي طال المدن الرومانية، وبفعل إهمال الزراعة من طرف العرب الذين كانوا يجهلونها بالرغم من أن روما قد تركت أراضي خصبة وسدود وقنوات [7].

كما نشر أوغستين برنار (Augustin Bernard) كتاب حول الجزائر، حاول من خلاله تبرير مشروع فرنسا الاستعماري، على أساس أنها الوريث الشرعي للحضارة الرومانية في المنطقة، محاولا في نفس الوقت توضيح الآليات التي استطاعت روما بفضلها إخضاع المنطقة عن طريق سياستها الاستيطانية ودمج بعض القبائل البربرية، الشيء الذي جعل المنطقة تعيش في رخاء وازدهار بين القرنين 2 و3م[8]. أما انهيار حضارة روما في المنطقة فقد كان بسبب نقص في عدد المستوطنين ورومنة البربر السطحية في المناطق البعيدة

1- *Ibid.*, p. 37-47.

2- Ernest Mercier, *La question indigène en Algérie au commencement du XX^e siècle*, Paris, 1901, p. 154-158.

3- *Ibid.*, p. 218-220.

أما باسول Passols فقد ذهب إلى ضرورة تأكيد دمج البربر ضمن الحضارة الفرنسية، بجعلهم عنصر فعال داخل المجتمع بعد القضاء على الإسلام الذي يعتبره عائقا أمام مشروع فرنسا الحضاري في الجزائر، محاولة نشر مبادئ وأفكار الحضارة الغربية التي تقوم على حقوق الإنسان.

Capitaine Passols, *L'Algérie et l'assimilation des indigènes musulmans*, Paris, 1903, p. 5-18.

4- Arthur Habec, *Mettons en valeur l'Afrique du Nord*, 1912, p. 26-29.

5- *Ibid.*, p. IV.

6- *Ibid.*, p. 30.

7- *Ibid.*, p. 31-34.

8- Augustin Bernard, *L'Algérie*, Paris, Félix Alcan, 1929, p. 123.

عن المدن الرومانية التي كانت مناطق محدودة كقرطاج ونوميديا، ما جعل المناطق الأخرى تعيش حياة بدائية ما انعكس فيما بعد على لمعان وبريق الحضارة الرومانية، الذي سرعان ما تلاشى بسبب الحركة الدوناتية[1].

أما نجاح الوندال فقد أرجعه أوغسطين أساسا إلى تحالف البربر مع الوافدين الجدد خاصة وأن مذهبهم الدوناتي يتقارب مع المذهـــب الأريوسي للوندال "إجتماعيا"[2]. أما خـــــروج بلاد البربر من فلك الحضارة اللاتينية ودخولها ضمن فلك الحضارة الشرقية كان بسبب "الغزو الإسلامي" خلال القرن 7م[3]، الأمر الذي أدى إلى تراجع المنطقة بسبب الحملات العسكرية، وكذلك ثورات البربر على سلطة الولاة بعد الفتح[4]، ومن العوامل الأخرى التي غيرت وجه المنطقة الهجرة الهلالية، التي خرجت من مصر نحو بلاد المغرب بأمر من الخليفة الفاطمي المستنصر لتأديب المعز حاكم إفريقية الذي قطع ولاءه للفاطميين، ما جعل العرب الهلالية المهاجرة من نساء وأطفال وحتى قطعان ماشيتهم تنقض على المنطقة الممتدة بين برقة وإفريقية "كالذئاب الجائعة" الشيء الذي ترتب عنه تخريب وتحطيم ازدهار ورخاء المدن والقرى[5].

وحتى منطقة المغرب الأوسط لم تسلم من همجية العرب الهلالية، فبعد أن أصبح المد العربي يهدد ملك الحماديين بالقلعة، قام الناصر بنقل عاصمة ملكه إلى بجاية "الناصرية"، التي كانت محصنة ويصعب الوصول إليها، ما أدى إلى ازدهارها تجاريا بفصل المبادلات مع المدن الأوروبية خلال القرنين 11 و12م[6]، أما المناطق الداخلية فقد أصبحت ملكا للعرب بعد أن قاموا بتحطيم وتخريب المدن وقطع الأشجار، وحرق المحاصيل، ما أدى إلى انتشار حياة الرعي وبذلك تغير نمط اقتصاد هذه المناطق وتعطلت التجارة على حساب تربية الماشية، ما ترتب عنها تهجير البربر نحو المناطق الصـــحراوية والمناطق الجبلية. أما من بقي منهم في السهول والهضاب فقد انصهر مع القبائل العربية ما أدى إلى تعريبـــــهم وظهور قبائل جديدة، تبنت حياة الرعي والترحال التي كانت سيمت القبائل البدوية[7].

3- تراجع بلاد المغرب في ظل الوجود العربي

من أجل إعطاء تفسير جديد للدراسات التاريخية يتماشى مع طموحات فرنسا الاستعمارية في الجزائر، ظهرت مجموعة من أساتذة جامعيين وباحثين مختصين مع مطلع القرن 20م التي وسعت حملات البحث التاريخي باستغلال المصادر اللاتينية والعربية الوصفية والفقهية، محاولة فهم الآليات التي جعلت المنطقة تتغير حضاريا مع الوافدين الجدد من العرب خلال الفترة الوسيطة.

1- *Ibid.*, p. 114-115.
2- *Ibid.*, p. 117.
3- *Ibid.*, p. 126.
4- *Ibid.*, p. 127.
5- *Ibid.*, p. 136-138.
6- *Ibid.*, p. 139-140.
7- *Ibid.*, p. 41.

ومن الوجوه البارزة التي حاولت إعطاء دفع جديد للدراسات التاريخية أرنست مارسيي (Ernest Mercier) الذي نشر كتابا جديدا حول تاريخ قسنطينة *Histoire de Constantine* ، استطاع من خلاله تسليط الضوء أكثر على هذه المدينة، عبر مراحلها التاريخية، بداية من الفترة القديمة ومرورا بالمرحلة الرومانية التي كانت تشع بالازدهار والاستقرار. أما الفترة الإسلامية فقد كانت مرحلة تحول لكامل بلاد البربر بفضل الحملات العسكرية المتقطعة، بسبب اضطراب الأوضاع السياسة على مستوى السلطة المركزية الناتج عن ثورات الشيعة والخوارج ضد الدولة الأموية[1]. فغنيمة وثروة بلاد المغرب كانت المحرك والدافع للحملات العسكرية الأولى، بقيادة كل من عبد الله بن أبي سرح ومعاوية بن حديج اللذان لم يفكرا في الاستقرار وإلحاق المنطقة بسلطة الخلافة[2]. ولكن التحول في إستراتيجية الحملات العسكرية الإسلامية حدث بفضل عقبة بن نافع الذي كانت له رؤية وسياسة مختلفة، حيث جاء للمنطقة في حملته الأولى بهدف الاستقرار وفرض الدين الإسلامي عل البربر، بعد أن قام ببناء مدينة القيروان، ثم حملته الكبرى نحو القلاع البيزنطية في الأوراس التي فشل في اختراقها، ثم أكمل سيره بعد ذلك نحو الغرب وصولا إلى طنجة بعد أن قضي على مقاومة الروم والبربر في كل من تلمسان وتيهرت، ثم ساحل بحر الظلمات (المحيط)، بهدف إخضاع كل بلاد المغرب، إلا أنه لم يستطع تحقيق حلمه بسبب مقاومة البربر الذين استطاعوا القضاء عليه عند عودته إلى القيروان بفضل قائدهم كسيلة الأوربي الذي دخل القيروان منصبا نفسه حاكما على المنطقة[3].

وسرعان ما استطاع العرب استرجاع نفوذهم في المنطقة بفضل حملة زهير بن قيس البلوي والقضاء على كسيلة. أما المقاومة التي كانت الأشرس ضد الجيوش الإسلامية الفاتحة، فقد كانت بقيادة الكاهنة التي استطاعت أن تقهر وتهزم جيش الفتح بقيادة حسان بن النعمان وتفرض سلطتها على كل البربر والبيزنطيين[4]. ولكن قوة ونفوذ الكاهنة تراجع بسبب انسحاب البربر من جيشها، بعد أن أمرت بتخريب وحرق المنطقة للحد من أطماع العرب الفاتحين، ظنا منها بأن العرب كان هدفهم الاستحواذ على ثروة المنطقة ما جعل جيشها يتقلص، ليكون هذا في صالح حسان الذي استطاع في حملته الثانية القـــضاء عليها، وإخضاع المنطقة نهائيا لسلطة الخلافة سنة 705م، لتبقى محافظة على وحدتها البشرية البربرية على كامل بلاد لمغرب في ظل وجود أقليات محدودة للعنصر العربي التي انحصر وجودها على بعض المدن الإفريقية لنشر الدين الإسلامي بين القبائل البربرية[5].

1- Ernest Mercier, *Histoire de Constantine*, Constantine, J. Marle, F. Biron, 1903, p. 82.
2- *Ibid.*, p. 82
3- *Ibid.*, p. 83-85.
4- *Ibid.*, p. 86.
5- *Ibid.*, p. 87.

أما مع لا كروا (La Croix) وأوغـــستين برنار (Augustin Bernard) فقد ظهر اتجاه جديد، يختلف في الطرح والمعالجة عن باقي الدارسين، فقد حاولا من خلال المقال الذي نشراه سنة 1906م التطرق إلى قضية تطور حياة الرعي والبداوة في الجزائر عبر الحقب التاريخية، ومدى تأثيرها في تراجع المنطقة حضاريا واقتصاديا[1]. هذه الدراسة كانت محاولة من الإدارة الفرنسية لفهم الأهالي من خلال الترحال، ومناطق الرعي في ظل المشاكل التي تعاني منها فرنسا في تسيير الأراضي خاصة بالمراعي والغابات[2]. ومن هذا المنطلق أكدا بأنه من غير المقبول أن نجعل من هذه الظاهرة من أكبر الأخطار التي تواجه الإدارة الفرنسية، كما لا يمكن تجاهلها كذلك، لأنها في الحقيقة ظاهرة تستحق الانتباه والدراسة. ولهذا جاءت هذه الدراسة لتؤكد بأن طبيعة المنطقة من أهم العوامل التي ساعدت في نمو وانتشار ظاهرة الترحال والاستقرار. ومن هنا فإن طبيعة جغرافية المغرب، كانت من العوامل والأسباب التي أدت إلى ظهور حياة البداوة والترحال في القديم، وبدخول الحضارة الرومانية بقيت القبائل البربرية على طبيعة الترحال في مناطق كثيرة، إلا أن هذه الظاهـــرة تقلصت في بعض المناطق بسبب سياسة الاستيطان والاستقرار، وإتباع سياسة اقتصادية رومانية تعتمد أساسا على توسيع مناطق الزراعة ما دفع بالبربر للاستقرار داخل الحواضر الرومانية أو حولها[3].

فهذا الطرح الجديد جاء ليفنّد الطرح القديم، الذي كان يحمّل مسؤولية انتشار ونمو ظاهرة الترحال للعرب خلال القرن 11م، لكنه في الوقت نفسه لم ينف دور العرب الهلالية في القضاء وتراجع الثروة النباتية للمنطقة بسبب قطعان ماشيتهم التي دخلت المنطقة، لأنهم كانوا يعتمدون على تربية المواشي، وهذا ما انعكس سلبا على اقتصاد المنطقة بعد أن تقلص دور التجارة في المناطـــق الداخلية وفي بلاد المغرب وانحصر فقط على المناطق الساحلية[4]

4- قراءة جـــــديدة للفتح الإسلامي

في مطلع القرن 20م قدم كودال (Caudel) دراسة جديدة تخص الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، مشيرا إلى أهمية الموضوع بالنسبة للإدارة الاستعمارية الفرنسية، وأهميته الكبرى بالنسبة للدارسين. فقد حاول في مقدمة كتابه الإشارة إلى الدراسات التي سبقته والتي اعتمدت كلها على كتاب ابن خلدون "العبر" الذي كان يعتبر المصدر الأهم لدراسة تاريخ بلاد المغرب خلال الفترة الوسيطة مهملين بعض المصادر العربية المتأخرة، ما جعله يستعين في دراسته الجديدة بمصدرين آخرين وهما "معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان" لمحمد بن ناجي القيرواني والثاني "رياض النفـــــوس" لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكي،

1- A. Bernard, N. La Croix, « 'L'évolution du nomadisme", *Annales de géographie*, XV (1906), p .154, 155.
2- *Ibid.*, p. 156.
3- *Ibid.*, p. 153.
4- *Ibid.*, p. 153.

والذين حاول من خلالهما تفسير وتوضيح الفتح الإسلامي بطريقة مختلفة، وتفنيد أراء وتعاليق الدارسين الفرنسيين بأن المصادر العربية كانت تعد أساطير وقصص[1].

بدأ كودل الدراسة الجديدة بمجموعة من التساؤلات، لفهم العوامل التي ساعدت في إنجاح الفتح، فقد تساءل هل لطبيعة المنطقة الجغرافية دور إيجابي أو سلبي في الفتح؟، وهل للتركيبة البشرية المتكونة من البربر والبيزنطيين والعلاقة بينهما ساعدت الفتح، وهل كانت لشخصية القادة الفاتحين دورا فيه؟

كل هذه الأسئلة حاول المؤرخ الفرنسي تسليط الضوء عليها، لأنه كان يرى بأنها عوامل مكملة لبعضها البعض ومتداخلة ساهمت في إنجاح الفتح[2]. فطبيعة المنطقة الجغرافية لم تكن عائقا في وجه الجيوش الفاتحة خاصة من الناحية الشرقية والجنوبية، فقد كانت الهضاب والصحراء مناطق سهلة ساعدت الجيوش الإسلامية في السير نحو الغرب، أما الناحية الشمالية الساحلية فقد كانت تتميز بكثرة السلاسل الجبلية التي كانت حواجز تعيق سير الفتح، ما جعل القادة يركزون على المناطق الجنوبية المفتوحة[3].

أما النقطة الثانية وهي التركيبة البشرية المتكـــونة من البربر والروم قد حاول كودال دراسة طبيعة البربر وتكوينهم القبلي، من خلال تسليط الضوء أكثر على شيوخ القبائل وسلطتهم، وعجزهم في لم شمل البربر عبر التاريخ[4]. وكون المنطقة كانت منطقة عبور، فقد هاجرت إليها العديد من الشعوب بهدف بسط نفوذها وسلطتها على المنطقة ما جعل البربر يدخلون في حروب متواصلة مع الغزاة، خاصة عندما تضعف قوة سلطتهم على البربر، فطبيعة السكان الأصليين كانت تتميز بالترحال وعدم الاستقرار مما جعلهم يرفضون الاندماج مع الغزاة الذين كانوا يريدون تغيير نمط معيشة البربر ومن هنا كانت العلاقة مع الروم البيزنطيين علاقة حرب وثورات التي ورثتها عن الرومان والوندال ضد البربر، مما دفع بالروم إلى ترميم القلاع والمدن الرومانية وتحصينها لرد هجمات الثوار البربر وهذا ما يؤكد بأن البيزنطيين لم يقوموا بتشييد المدن والقرى مثل ما فعلته الحضارة الرومانية[5] في ظل سياسة بيزنطية تقوم على فرض الضرائب الباهظة التي تؤدي إلى الفقر، وبذلك بدأ عصب الدولة "الشعب" يضعف ويتحلل، في فترة كانت المنطقة تعيش صراعا دينيا بين المذاهب، وانفصال جرجير عن السلطة المركزية وإعلان الاستقلال الذاتي. فهذه العوامل ساعدت في إيجاد مجتمع غير منظم ومنطقة غير جاهزة، لصد الحملات العسكرية للمسلمين[6].

أما العامل المهم في نظر كودال فقد حصره في شخصية الرسول -صلى الله عليه وسلم- القائد الروحي للمسلمين، الذي بثّ في أنصاره تعاليم الدين الجديد الذي كان سهلا وبسيطا في التطبيق، مع حرصه على أن يكون المسلم يتمتع بأخلاق سامية تعكـــس سماحة و علو هذا الدين، وجعل من فكرة

1- Maurice Caudel, *Les premières invasions arabes dans l'Afrique du Nord*, Paris, Ernest Le Roux, 1900, p. II.
2- *Ibid.*, p. 2.
3- *Ibid.*, p. 3-4.
4- *Ibid.*, p. 4-8.
5- *Ibid.*, p. 15-20.
6- *Ibid.*, p. 189-190.

الجهاد الوسيلة والأداة لنشر الدين الإسلامي وتحقيق المكاسب المادية، باعتماد الجيوش الفاتحة المحصورة العدد على أسلوب الكر والفر وعنصر المفاجئة، لتجنب ضربات العدو، حيث كانت الغنيمة من العوامل التي تحفز المسلمين ومن الأهداف الأساسية لسلطة الخلفاء[1].

استطاع المسلمون في ظل هذا الصراع من فتح المنطقة بالرغم من قلة عدد الجيش وبعد المسافة، مستعملين سياسة اللين مع أهلها، بفضل تعاليم دينهم السمحاء. بداية فتح المغرب ارتبط بفتح مصر على يد عمرو بن العاص، الذي بفضله بدأت طموحات التوسع نحو الغرب في عهده، ففي سنة 22هـ بدأ جيشه بالتوجه نحو الغرب محاولا فتح المدن والأراضي، واستطاع فتح مدينة برقة المحصنة والتي كانت عامرة بالبيزنطيين واللاتين والبربر[2] وبعدها عقد الصلح والأمان مع أهلها مقابل دفع الجزية، ولكن هدف عمرو بن العاص من الحملة لم يكن بنية الاستقرار بل كان لجمع الغنيمة والاستحواذ على خيرات المنطقة[3]. في ظل هذا التوتر بسبب الهجمات الإسلامية، استطاع جرجير أن يتمرد ويخرج عن طاعة السلطة البيزنطية، معلنا نفسه ملكا على منطقة إفريقية سنة 646 م. ومباشرة بعد أن أوكلت ولاية مصر لعبد الله بن أبي سرح، بدأ بتجهيز مجموعة صغيرة من الجيش للتوجه إلى إفريقية لجمع المعلومات اللازمة[4]، التي كانت خاضعة لجرجير، وبعد رجوع الكشافة إلى مصر قرر عبد الله بن أبي سرح مواجهة جرجير، وقد التقيا في مدينة سبيطلة واستطاع أن يقضي عليه في معركة ضارية رغم قلة جيش المسلمين مقارنة بجيش جرجير. وبعدها تشتت الجيش البيزنطي في كل اتجاه تاركا المجال لجيش الفتح بقيادة عبد الله بن أبي سرح الذي أسر عددا كبيرا من السكان وأخذ غنيمة ضخمة من الذهب والفضة وحتى الماشية[5].

ونجاح الحملة كان مرتبطا بالوازع الديني للجنود المسلمين الذين كانوا على أهمية الاستعداد والاستشهاد في سبيل الله، هذا ما لم يكن في جند جرجير، بالإضافة إلى الغنيمة التي كانت حافزا لجيش المسلمين[6].وبعدها في سنة 34هـ كانت حملة معاوية بن حديج، الذي استطاع دخول مدينة جلولاء بعد أن نهبها وقام بتحطيمها وتخريبها، وبهذا النجاح رجع إلى مصر محملا بالغنيمة و لم تكن له نية الاستقرار أو البقاء في المنطقة[7].

ولكن من الحملات التي تعتبر الأهم في تاريخ بلاد المغرب حملة عقبة بن نافع التي غيرت الكثير في مصير بلاد المغرب، خاصة وأنه يعرف المنطقة جيدا، بسبب مشاركته في حملة عمرو بن العاص، وتميزه

1- *Ibid.*, p. 26-32.
2- *Ibid.*, p. 43-49.
3- *Ibid.*, p. 47-49.
4- *Ibid.*, p. 75.
5- *Ibid.*, p. 71-72.
6- *Ibid.*, p. 66-75.
7- *Ibid.*, p. 89-90.

بشخصية دينية متميزة تطمح لإخضاع المنطقة، الذي لا يكون إلا ببناء مدينة لاستقرار الجيش ما يسهل مراقبة البربر، الذين كانوا يرتدون كلما رجع الجيش الإسلامي الفاتح إلى المشرق. ومن هذا المنطلق أراد عقبة بناء مدينة القيروان من أجل إرساء قواعد الإسلام في المنطقة، وفرض الدين "ولو بحد السيف والقتل"، و لم تكن الغنيمة من أولويات عقبة بن نافع[1]، بل كان يرى بأن الجيش الفاتح كلما تغلب واستحوذ على الغنائم إلا وتراجع إلى الخلف، لهذا لم تكن الغنيمة هدفه الأول، السبب الذي أدى إلى عزله من طرف والي مصر مسلمة الذي كان يرى في حملة عقبة الأقل غنيمة لبيت المال المسلمين[2].

لهذا قام بتعيين أبي المهاجر دينار لقيادة الحملات على بلاد المغرب، الذي استطاع بفطنته وذكائه استمالة البربر وعقد تحالف معهم، بالتقرب أكثر منهم عن طريق تقريب شيوخهم كما فعل مع كسيلة القائد البربري من أوربة[3]، لأنه كان يرى فيهم الوسيلة للقضاء على الروم وغزو باقي المناطق والاستحواذ على الغنائم وخيرات المنطقة التي كانت من أولوياته[4]، وبسبب نقص الثروة والغنيمة في المنطقة الممتدة بين برقة وإفريقية جعل أبي المهاجر يفكر في التوجه إلى المغرب الأوسط، معتمدا في ذلك على القبائل البربرية التي تحالفت معه، ما مكن أبي المهاجر أن يكون أول قائد يصل بالجيش الإسلامي إلى أبعد منطقة حيث وصل إلى مدينة تلمسان. وهكذا استفاد أبي المهاجر من البربر الذين تحالف معهم واعتنقوا الإسلام ما جعلهم يصبحون طرفا في النهب والغنيمة مع المسلمين[5].

أما حملة عقبة الثانية فقد جاءت بهدف القضاء على الروم نهائيا وتوسيع الحملات إلى أبعد المناطق، بانتهاج سياسة الترهيب وفرض العقيدة الإسلامية بفضل شخصيته الدينية المتعصبة[6]. وبعد أن وصل إلى المغرب قام بأسر كل من أبي المهاجر دينار وكسيلة، وبعدها توجه إلى الأوراس للقضاء على القـــــلاع البيزنطية، وأولى محاولاته كانت في مدينة باغاي التي استطاع الاستيلاء عليها مما دفع بالبربر والروم أن يفروا في كل اتجاه وبعدها اتجه إلى لامبيز أين واجهته مقاومة عنيفة بسبب تحصينات المدينة، ما جعله يتوجه إلى تلمسان للقضاء على الروم والبربر، بالرغم من تحالفهم ومقاومتهم إلا أنهم أجبروا على الفرار نحو قلاعهم، وحتى مدينة تيهرت لم تستطع صد مسيرة عقبة نحو الغرب بالرغم من تحالف الروم والبربر، إلا أنه استطاع أن يهزمهم ويكمل سيره نحو إقليم السوس ثم وصوله إلى بحر الظلمات "المحيط"[7].

ثم تطرق كودال إلى حملة حسان الأولى التي انهزم فيها ضد الكاهنة بالقرب من وادي نيني ما جعله ينسحب إلى برقة، وبعد خمس سنوات رجع حسان للمرة الثانية بعد أن أعد العدة لمواجهة الكاهنة التي

1- *Ibid.*, p. 96-101.
2- *Ibid.*, p. 101-122.
3- *Ibid.*, p. 110.
4- *Ibid.*, p. 122.
5- *Ibid.*, p. 117-123.
6- *Ibid.*, p. 124.
7- *Ibid.*, p. 125-126.

استطاع القضاء عليها وعلى المقاومة البربرية نهائيا في غرب إفريقية، وبذلك فتح باب بلاد المغرب لجيوش الفتح لبسط نفوذها والسيطرة نهائيا عليها[1]. وسبب نجاح حسان في القضاء على الكاهنة أرجعه كودال إلى سياسة الكاهنة التخريبية، التي أمرت البربر بتخريب المنطقة عن طريق تحطيم المدن وحرق المحاصيل وقطع الأشجار ظنا منها بأن العرب جاءوا لسلب خيرات البربر، ولكنها بهذا الفعل قد قضت على الروح القتالية للبربر ما جعلهم ينسحبون من صفوف جيشها. وبذلك استطاع حسان تنظيم الأوضاع في إفريقية بوضع الدواوين وتقسيم الغنائم على المسلمين[2].

5- غـــوتييه والقرون المظلمة

إن فكرة انحطاط وتراجع بلاد المغرب خلال الفترة الوسيطة، كانت من المواضيع التي ألهمت العديد من الدارسين الفرنسيين مع مطـــلع القرن 20م، ما جعل دراسات هامة وجادة تظهر كمحاولة لفهم ظاهرة سرعة إسلام المنطقة وتعريبها[3].

ومن هنا جاءت دراسة غوتييه (Gautier) سنة 1928 الذي حاول رسم ماضي المنطقة وفق منظور عنصري يخدم مصلحة فرنسا، التي كانت ترى بأن ماضي الجزائر مرتبط بالعهد الروماني والحكم الفرنسي، أما الحقب الأخرى وخاصة الفترة الإسلامية فكانت فترة هامشية ومرحـــــلة انتقالية غير مهمة يكتنفها الغموض والفوضى[4]. لهذا كان لازما على المدرسة التاريخية الفرنسية الاهتمام بهذا الحقل التاريخي المهم الذي لا يزال خصبا بدافع تحضير المنطقة[5].

وبنظرة عنصرية حاول غوتييه التقليل من شأن بلاد المغرب، عندما حاول التنبيه إلى أنها في الماضي لم يكن لها اسم، بسبب عدم قدرتها على إنشاء كيان سياسي، لعدم وجود قائد وطني قادر على توحيد المنطقة سياسيا، ما جعل المنطقة تكون مرآة عاكسة لصورة الحضارات المتعاقبة عليها.هذا التفسير والنظرة الجديدة في الطرح جاءت من الاستعمار الفرنسي لتبرير وجوده في المنطقة، حيث كان يرى في نفسه الوريث الشرعي للحضارة الرومانية في المنطقة، وحامل مشعل الحضارة[6]. فتاريخ بلاد المغرب قسمه غوتييه إلى مرحلة متنورة، شهدت خلاله المنطقة الرخاء والازدهار في ظل حضارة روما، وأخرى مظلمة ومهملة خلال الفترة الوسيطة تميزت بأحـــداث وتحولات سريعة، وهنا يكمن الإشكال التاريخي عند غوتييه الذي حاول تسليط الضوء أكثر عليها، محاولا فهم الكيفية والطريقة التي جعلت المنطقة تتغير وتبقى

1- *Ibid.*, p. 127.
2- *Ibid.*, p. 173-178.
3- Cité par Géorges Yver, L'invasion hilalienne d'après un livre récent », *Revue Africaine*, 62 (1918), p. 97.
4- Emile Félix Gautier, *L'islamisation de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs du Maghreb*. 1928. Rééd. *Le passé de l'Afrique du Nord, les siècles obscurs*, Paris, Payot, 1942, p. 8.
5- *Ibid.*, p. 7-8.
6- *Ibid, p. 12-31.*

على ما هي عليه حتى دخول فرنسا. بمعالجة ظاهرة التطور السياسي التلقائي في بلاد المغرب، من خلال الإمارات التي كانت تظهر وتتوسع في فترة قصيرة جدا في ظل الإسلام، الذي جعله البربر وسيلة لتحقيق أهدافهم السياسية، خاصة بعد طرد العرب، إلا أن هذا الحلم في تحقيق وحدة وطنية لكامل بلاد البربر لم يتحقق[1] . وهنا تكمن الإشكالية فالفترات المظلمة كانت فترات المجد البربري، إلا أنها الفترة الأقل معرفة، والأكثر صعوبة.

أما الأصول السكانية للمنطقة فقد كانت تتكون من عنصرين رئيسيين، البربر والعرب، فالبربر ينتمون إلى السلالة البيضاء للحوض المتوسط الذي يمتاز بالتخلف والسكون والتقوقع وعدم الاختلاط بالأجناس التي تعاقبت عليه[2]، ويطوق للفوضى مثلما فعل مع الرومان بفضل الحركة الدوناتية، ومع العرب عن طريق فكر الخوارج[3]، أما العرب الذين يمثلون الجزء المهم في تركيبة المنطقة فقد جاءوا بعد الفتح الإسلامي في القرن 7م بأعداد قليلة ومنحصرة في بعض المدن، بالإضافة إلى العرب البدو الذين دخلوا المنطقة خلال القرن 11م بفعل الغزوة الهلالية التي بفضلها استقر العرب في أعداد كبيرة ما جعل المنطقة تتحول إثنوغرافيا.

وفيما يخص الفتح فقد حاول غوتييه الاستعانة ببعض المصادر التي كانت حسب رأيه مهمة جدا لدراسة الفترة الوسيطة، وأهمها على الإطلاق كتاب ابن خلدون "العبر" باعـــــتباره كتابا يحتوي على محاولات تاريخية وفلسفية واقتصادية وسياسية وحتى دينية، لتفسير قوانين التطور التاريخي للحضارات وخاصة الإسلامية التي صورها في شكل إمبراطورية عسكرية سرعان ما تلاشت وتراجعت[4].

وحاول غوتييه الإشارة ولفت انتباه الدارسين إلى الحضارة القرطاجية الشرقية التي حسب رأيه عملت على تخصيب الأرضية وتحضير البربر للفتح الإسلامي خلال القرن 7م، لأنها كانت تمثل الثقافة الشرقية التي بقيت آثارها حتى بعد سقوط الحضارة الرومانية من خلال اللغة البونية، وكأنها حضرت البربر لاعتناق القرآن ككتاب مقدس ومصدر تشريع[5]. فالحملات الأولى للفاتحين على بلاد المغرب كانت في شكل غارات قرصنة، التي كانت في الغالب هجمات متوحشة، ترتب عنها القتل والنهب ما أدى إلى اندثار وموت المدن الرومانية إلى الأبد[6]، خاصة بعد سحق وموت الملك جرجير خلال حملة عبد الله بن أبي سرح. ولكن العرب لم يكن هدفهم فتح المزيد من المناطق فيما وراء سبيطلة ولا حتى الاستقرار، بدليل أنهم لم يتوجهوا نحومدينة قرطاج، ولكنهم اكتفوا بالأموال والغنائم وفرض الضرائب على سكان سبيطلة وما جاورها،

1- *Ibid.*, p. 11.
2- *Ibid.*, p. 9-25.
3- *Ibid.*, p. 64-65.
4- *Ibid.*, p. 81-101.
5- *Ibid.*, p. 125-148.
6- *Ibid.*, p. 154.

وهذا ما يؤكد أن الغنيمة كانت العصب المحرك للجيوش الإسلامية في بلاد المغرب[1]. ثم تطرق إلى حملة عقبة الكبرى ووصوله إلى المحيط، مستعملا العنف والقوة والترهيب كوسيلة لإخضاع المنطقة[2]، وهذا ما تحقق بالفعل في ظل وجود هذه الشخصية التي أهانت البربر، بدليل أن سياسة عقبة مع كسيلة لم تكن إنسانية، فقد سجنه وكبّله وأهانه خلال حملته الكبرى وهو أحد أبرز قادة البربر[3]، ما جعل موت عقبة كنتيجة لسياسة العنف والقهر التي مارسها مع البربر[4].

أما حملة حسان بن النعمان فقد أرجع سبب نجاحها إلى سياسة الكاهنة التخريبية ما ترتب عنها تراجع وتحول البربر عن صفوفها بعد أن قامت بتخريب المنطقة ما جعلهم يقدمون يد المساعدة لحسان للقضاء على القائدة البربرية في حملته الثانية. أما حملة موسى بن نصير فهي الحملة الأخيرة والتي بفضلها تم إخضاع المنطقة لسلطان الخليفة، بعد أن قام بإخضاع القبائل البربرية الثائرة[5].

وبالمقابل فقد حاول غوتييه الإشادة بمقاومة كسيلة والكاهنة اللذين كانا من أبطال الحرية البربرية، اللذين استطاعا هزم الجيش العربي الفاتح وطرد العرب عدة مرات من بلاد البربر[6] بفعل التحالف بين البربر والبيزنطيين، حتى أن مقتل عقبة بالقرب من تهودة كان يرى بأنه انتصار بيزنطي، لأن كسيلة وقبيلته كانت على صلة وخضوع للروم البيزنطيين[7]. وهذا ما جعل الفتح الإسلامي للمنطقة يتميز بالمد والجزر لأسباب متعددة من بينها الأوضاع في المشرق، والمقاومة العنيفة للبربر والبيزنطيين، وبعد المسافة بين المشرق والمغرب، إلا أن الجيوش الإسلامية استطاعت فتح المنطقة وإخضاعها، ومن هنا حاول عقد مقاربة بين الفتح الإسلامي، والاستعمار الفرنسي اللذين استنفذا نفس الفترة الزمنية لإخضاع المنطقة[8].

أما الوجود العربي الثاني في بلاد المغرب فقد ارتبط بالهجرة الهلالية خلال القرن 11م، التي كانت نكرة عند جل الذين حاولوا كتابة التاريخ الوسيط للمنطقة، قبل أن يترجموا كتاب ابن خلدون، ما جعلهم يهتمون "بالغزو العربي" الأول خلال القرن 7م ، الذي اقتصر وجوده على المدن[9]. فالهجرة كانت عبارة عن موجة استيطانية شملت الرجال والنساء والأطفال وحتى الماشية، التي استطاعت تغيير وجه بلاد المغرب الأوسط، وإعطاء المنطقة ثوبا جديدا، بفضل نزعـــتهم المتوحشة التي جعلت منهم جنس النهب واللصوصية[10]. فالأسباب التي أدت إلى دخول الهلاليين كانت بسبب القطيعة المذهبية وسياسة الأمير المعز بن باديس[11] مع الفاطميين، ورجوع مذهب مالك لبلاد المغرب بعد أن ألغاه الشيعة الفاطميين، هذا ما

1- *Ibid.*, p. 253.
2- *Ibid.*, p. 248.
3- *Ibid.*, p. 269.
4- *Ibid.*, p. 50.
5- *Ibid.*, p. 248-275.
6- *Ibid.*, p. 248-250.
7- *Ibid.*, p. 267-274.
8- *Ibid.*, p. 247-249.
9- *Ibid.*, p. 409-410.
10- *Ibid.*, p. 84-112.
11- *Ibid.*, p. 413.

أدى بالسلطة الفاطمية تقوم بإرسال هذه القبائل إلى بلاد المغرب للانتقام والقضاء على سلطة الزيريين بإفريقية، وبالفعل فقد أدى دخول بني هلال وبني سليم المنطقة إلى تحطيم قوة صنهاجة، بعد أن تمكنوا من الدخول إلى القيروان وتحطيمها وتخريبها، وهكذا بدأت تنتشر بذور الموت والتخريب في كامل بلاد المغرب، بسبب النهب والتخريب والتحطيم الذي شمل إفريقية وجزء هام من المغرب الأوسط[1].

"فالمرض الفتاك" الذي أصاب المنطقة بعد دخول الهلاليين[2] كان بمثابة الكارثة العظمى[3]، التي قضت على الازدهار الحضاري الموروث عن الرومان، بسبب عدم قدرتهم على تولي القيادة السياسية لأنهم يفتقدون لمشروع دولة، بل كانوا قبائل أو مجموعات مقاتلة أو مرتزقة في يد السلاطين المجاورين لهم، لأن المصلحة المشتركة تحتم عليهم ذلك فالسلاطين البربر يبحثون عن جند ضد خصومهم، ما جعلهم يستعملون العرب كأداة للقضاء على طموحات الإمارات البربرية الأخرى، ما يعني تقلص العنصر البربري[4].

ومن هنا يمكن رصد أسباب انحطاط وتراجع حضارة المغرب من خلال دراسة غوتييه الذي أرجعها إلى سياسة الكاهنة التخريبية خلال الفتح الإسلامي في القرن 7م، بعد أن أيقنت بأن العرب الفاتحين جاؤوا للمنطقة من أجل ثرائها ما جعلها تقوم بتحطيم وتخريب كل المدن والأرياف وبحرق المزارع وقطع الأشجار لكي تكون المنطقة جرداء خالية أمام العرب الفاتحين[5]، بالإضافة إلى الهـــجرة الهلالية التي قضت وحطمت المدن ما جعل البربر يفرون في كل الاتجاهات إلى الجبال والصحراء، بفعل أعمال اللصوصية في المناطق الداخلية، وبذلك بدأت المنطقة تتراجع وتصاب بشلل بعد أن اندثرت كبريات المدن والحواضر كأشير و قلعة بني حماد. إضافة إلى ثورة ابن غانية، والنزاع بين الأسر البربرية فيما بينها، والهجمات الأوروبية خلال القرون 12-14م[6].

ومن المحطات التاريخية الهامة في تاريخ بلاد المغرب أشار إلى دخول الفكر الخارجي والشيعي إلى المنطقة، ومدى مساهمته في لعب دور هام في تاريخها، كما ربط غوتييه تاريخ المنطقة بالقبائل البربرية، فقبيلة زناتة لعبت دورا هاما في تبني فكر الخوارج وإنجاحه على أرض الواقع[7]، من خلال الثورات ضد سلطة الخليفة وكيف نجحت في إنهاء الوجود العربي في المنطقة، ما نتج عنه ظهور دول بربرية مستقلة بعيدة عن مركز الخلافة[8]، إضافة إلى دور قبيلة كتامة في إنجاح مشروع الفاطميين في تحقيق الهدف السياسي بعد أن

1- *Ibid.*, p. 410-413.
2- *Ibid.*, p. 93.
3- *Ibid.*, p. 412.
4- *Ibid.*, p. 93.
5- *Ibid.*, p. 276.
6- *Ibid.*, p. 413-423.
7- *Ibid.*, p. 295.
8- *Ibid.*, p. 290-293.

أقاموا دولة في بلاد المغرب بفضل سيوفها ورجالها، ولكنها اختفت فيما بعد على الساحة المغربية بسبب خروجها مع الفاطميين نحو القاهرة[1].

6- جورج مارسي والكارثة الهلالية

يعتبر جورج مارسي (Georges Marçais) من أهم الشخصيات الأكاديمية التي تركت بصمات في مجال البحث التاريخي الفرنسي، والمنتمي إلى عائلة مشتهرة بالفن والتاريخ، وقد عرف بعمله الكبير في ميدان الآثار الإسلامية[2]، والبحث التاريخي في الفترة الوسيطة للجزائر الممتدة من الفتح الإسلامي في القرن 7م إلى الهجرة الهلالية في القرن 11م. وما ترتب عنها من نتائج مست المجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري. فالقرن 11م يحمل ثقل كبير على مصير بلاد المغرب بسبب التحولات التي ستعصف به.[3]

من هذا المنطلق والإشكال التاريخي حاول مارسي دراسة هذه المرحلة المهمة والحساسة من خلال تحضير رسالة دكتوراه حول العرب في بلاد البربر من القرن 11م إلى القرن 14م، وهي الدراسة التي حاول من خلالها تسليط الضوء على الهجرة الهلالية لبلاد المغرب. فبلاد البربر شهدت حدثا هاما خلال القرن 7م غير مجريات تاريخها، فبعد أن كانت تنتمي للعالم الغربي المسيحي، هاهي قد أصبحت جزء من الخلافة الإسلامية. بعد أن استقرت الأوضاع في المنطقة وبدأت الثورات تتوالى ضد سلطة الخلافة، خاصة بعد دخول الفكر الخارجي الذي بدأ في إثارة البربر ضد الولاة مما ترتب عنه إنهاء الوجود العربي، كما شهد المغرب دخول الشيعة الفاطميين للمنطقة، وبداية تكوين وتحقيق حلمهم بإقامة دولة شيعية بمساعدة كتامة التي كانت السيف الذي استطاع من خلاله الفاطميين تحقيق هدفهم.

وبعد رحيل الشيعة الفاطميين إلى القاهرة، تركوا المنطقة تحت سلطة الصنهاجيين في كل من إفريقية والمغرب الأوسط ولكن العلاقة تدهورت بعد أن أعلن المعز الزيري القطيعة مع القاهرة على المستوى السياسي بولائه لآل للعباسيين في بغداد، ورجوع المذهب المالكي على حساب المذهب الشيعي. الأمر الذي دفع بالخليفة المستنصر في طريقة الأمراء الصنهاجيين، الأمر الذي جعل وزيره اليازوري يشير عليه بإرسال جحافل القبائل العربية من بني هلال وبني سليم الموجودة في صعيد مصر إلى إفريقية للانتقام وتأديب الخليفة المعز الصنهاجي.

1- *Ibid.*, p. 357.

2- علاوة عمارة، دراسات ، ص. 51.

3- Georges Marçais, *La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen âge*, Paris, Aubier, 1928, p. 5.

ففي سنة 1049م خرج اليازوري بأمر من الخليفة الفاطمي باتجاه شيوخ القبائل العربية[1] المتواجدة في صعيد مصر وإخبارهم بأن الخليفة لن يعارض خروجهم من مصر، لكن بشرط الاتجاه نحو المغرب من أجل تأديب المعز[2]، وبعد أن قام بالصلح بين قبيلة رياح وزغبة، وإعطاء كل فرد دينارا، وإغرائهم بأن تكون لهم المنطقة إن استولوا على مجال الصنهاجيين في إفريقية[3]، وبذلك بدأت القبائل العربية الاستعداد للخروج من مصر، بعد أن استقرت بها لمدة طويلة لأن حاجة الخلافة الفاطمية لهم كانت ضرورية وأداة لتأمين ملكها من الأخطار التي كانت تحدق بها، خاصة من جهة الشرق "الخلافة العباسية"[4].

وهكذا خرجت القبائل العربية كـــ"الذئاب الجائعة" إلى المغرب، وفي طريقها إلى إفريقية استطاعت الدخول إلى مدينة برقة وتخريبها، وكذلك مدينة طرابلس بفضل أعدادها وقوتها، وبهذا بدأت المنطقة تدخل في طور جديد تميّز بالتخريب القادم من جهة الشرق بفعل الهجرة الهلالية، خاصة بعد أن خربت ودمرت ما تبقى من عمران ومنشآت رومانية كانت في برقة وطرابلس، وحتى المزارع والحقول تحولت إلى أراضي صحراء بفعل التخريب والحرق والقطع الأشجار، ما جعل القرى تهجر بسبب ما قامت به القبائل الهلالية[5]. أما بلاد إفريقية فلم تتمكن من الصمود في وجه القبائل الهلالية بفعل الهجمات المتتالية والتخريب الذي طال مدنها وقراها ما جعل سكانها يفرون ويهجرونها، وحتى مدينة القيروان "المقدسة" لم تسلم من النهب والخراب، فكل أحيائها خربت الأمر الذي جعل سكانها يتفرقوا في كل الاتجاهات، خاصة إلى بلاد المغرب الأوسط وتحديدا مدينة القلعة، التي رحبت بالتجار والعلماء والحرفيين والأهالي[6].

بالرغم من المقاومة وسياسة اللين التي انتهجها المعز بن باديس للحد من زحف العرب الهلالية بعقد قران بناته مع القادة الهلاليين، إلا أنه فشل في وقف زحفهم وكان آخرها معركة حيدران أين استطاع العرب البدو سحق الجيش الباديسي وبسط نفوذهم على إفريقية وقسم من بلاد المغرب الأوسط[7]. فمعركة حيدران بالقرب من قابس وانهيار سلطة المعز جعلت المنطقة تسقط في يد العرب ما جعل المنطقة تعيش في فوضى ونهب خاصة بعد أن استولوا على القيروان، وبذلك دخلت المنطقة في طور جديد تميز بالفوضى والانحطاط، بعد أن كانت تنعم بالازدهار فكل المدن التي كانت تمتد بين الجريد في إفريقية ومدينة برقة تراجعت اقتصاديا، فقد أصبحت محدودة على أطراف المدينة لسد حاجيات السكان، والتجارة في المناطق الداخلية توقفت بفعل أعمال اللصوصية، فكل هذه المنطقة أصبحت مخربة[8].

1- Georges Marçais, *Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e* , Constantine, Braham, 1913, p. 78-79.
2- *Ibid.*, p. 83.
3- *Ibid.*, p. 84.
4- *Ibid.*, p. 79.
5- *Ibid.*, p. 150.
6- *Ibid.*, p. 151.
7- *Ibid.*, p. 91.
8- *Ibid.*, p. 154/698.

أما بلاد المغرب الأوسط فهي كذلك لم تسلم من خطر العرب الهلالية فبعد أن سيطروا على المنطقة الممتدة بين برقة وافريقية، بدأت القبائل العربية تتطلع إلى المغربين الأوسط والأقصى وبدأت تحتك بالسلطة الحمادية من الناحية الشرقية عن طريق دخول اقليم الزاب ومحاولة الاستيلاء على باغاي ومدن أخرى، فدخول هذه القبائل ووصولهم بالقرب من القلعة الحمادية جعل المناطق المجاورة لها تنهار وعرضة للتخريب بفعل الهجمات الهلالية على طبنة[1]، مما أدى إلى نهبها وسرقة القـــوافل والمزارع وقطع الأشجار، وتخريب حقول القطن والحبوب، حتى أصبحت المناطق المجاورة للقلعة تعيش في فوضى بفعل التخريب وقطع الطرق على السكان والقوافل وحتى الأشخاص أصبحوا مهددين في أملاكهم ونفوسهم[2].

وأمام هذا الوضع قام الأمير المنصور الحمادي بالتنازل للعرب عن نصف محاصيل الحبوب والتمر للعرب في بعض المناطق التابعة له، للحد من الهجمات على الإمارة الحمادية إلا أنه في سنة 1090م قام بنقل العاصمة إلى بجاية المحصنة طبيعيا لتفادي العرب الهلالية، وبفضل سياسته وفطنته استطاع الصمود في وجه الأخطار الآتية من الشرق والغرب[3]. وفي سنة 1102م توجه إلى تلمسان لضرب معاقل المرابطين ومعه 20 ألف مقاتل من البربر والعرب المتحالفين معه[4]، ولكن هذا لم يمنع العرب من التوغل في أراضي الإمارة الحمادية، فقد استقروا في منطقة الزاب، واستولوا على الأراضي بعد أن طردوا سكانها نحو تلال المغرب الأوسط والصحراء [5] وأصبحت المنطقة خطرة بفعل اللصوصية والنهب حتى أن سكان مدينة بادس لا يستطيعون الخروج بدون حماية العرب[6]، وكذلك هو الشأن بالنسبة للمدن الداخلية الأخرى كقسنطينة التي عقدت تحالفات مع العرب من أجل مصلحة المدينة بمنحهم الأراضي لخدمة الفلاحة والزراعة[7]، أما المناطق الساحلية كمرسى الدجاج والقل وجيجل لم تكن في مأمن بعيد عن أنظار وزحف الهلاليين الذين كانت تهددهم القبائل البربرية المتواجدة بها، بفعل مناطق الرعي التي تجعل من العرب يتنقلون نحوها، فكل المناطق البربرية خلال القرنين 11-12م كانت تعيش في خوف وفوضى بسبب الهلاليين وخطر الأوروبيين على الساحل[8].

ولكن ما يمكن استخلاصه من دراسة مارسي أنه أشار إلى اندثار وموت بعض المدن وظهور مدن أخرى على الساحة، فبجاية أصبحت قطبا علميا واقتصاديا، بعد أن تراجعت وأفل نجم القيروان ومدن إفريقية بفعل الانحطاط الذي آلت إليه بعد دخول الهلاليين ما جعلها تستقطب العلماء والتجار، فقد استطاعت أن تكون منطقة صناعية خاصة بعد أن أصبحت تستخرج الحديد من المناجم لإنعاش صناعتها

1- *Ibid.*, p. 137-160.
2- *Ibid.*, p. 138-140.
3- *Ibid.*, p. 141.
4- *Ibid.*, p. 141.
5- *Ibid.*, p. 160.
6- *Ibid.*, p. 162.
7- *Ibid.*, p. 165.
8- *Ibid.*, p. 164.

وبناء السفن هذا ما جعلها تصبح منطقة تجارية هامة في منطقة المغرب، وتقوم بعقد تبادلات تجارية هامة مع التجار الأوروبيين وحتى مع التجار الصحراويين[1].

أما تراجع الزراعة والتجارة في المناطق الداخلية فيرجعه مارسي إلى لصوصية الهلاليين ، بقطع الطرق على القوافل التجارية وخاصة بإفريقية وشرق المغرب الأوسط، هذا بالإضافة إلى إضعاف القبائل البربرية الرحالة بفعل النزوح وترك مناطقها، وباغتصابهم لبعض الأراضي باقتطاع جزء من الحقول وأخذ الخمس على بعض الفلاحين لحـــماية مزارعهم وحـــقولهم بعد عقد عهود بين الحامي والمحمي[2].

وعن إشكالية تعريب المنطقة فقد أشار مارسي إلى أن اللغة العربية كانت موجودة في المنطقة قبل هجرة القرن 11م[3]، بدليل أن إفريقية التي كانت عاصمة المنطقة الدينية والسياسية والعلمية تستعمل العربية كلغة رسمية، خاصة لتعليم المذهب المالكي، ولكن بقيت بعض الحواضر البعيدة تتكلم البربرية، خاصة في أقصى المغربين الأوسط والأقصى كتلمسان، ولكن كلما كان وجود عربي كبير في الأرياف إلا وتأثر البربر بالعربية وتكلموها[4]، أما أسلمت المنطقة فلم يكن عن طريق الهجرة الهلالية[5]، بل أن الوازع الديني كان موجودا في المنطقة قبل هذا بكثير، ومثال على ذلك حركة الخوارج والمرابطين والموحدين[6].

وفيما يخص الدور السياسي للهلاليين، فقد أكد على أهميته بعد أن استطاعوا السيطرة وعقد التحالفات مع الأمراء والملوك البربر، فـــقد كانوا الأداة والوسيلة لتحقيق حلم الملوك البربر في التوسع والقضاء على خصومهم[7] ولكن بالمقابل فالهلاليين يجنون المال والأراضي مقابل المساعدات، لأنهم كانوا جنودا مرتزقة في يد الأمراء البربر.

كما أصدر مارسي كتابا ثانيا حاول من خلاله التطرق إلى بلاد المغرب في العصر الوسيط، وهذا بالتطرق إلى الفتح والهجرة الهلالية، وقيمة بلاد المغرب في نظر الخلفاء المسلمين، وماذا كان ينتظر الغرب من الشرق[8]. فقد حاول التطرق إلى الفتح بسرد بعض المأثورات المنسوبة للرسول -صلى الله عليه وسلم- عن فضائل بلاد المغرب وخطرها[9]، ففكرة إلحاق المغرب بالإسلام جعلت الخلفاء وخاصة عمر بن الخطاب يتذكر ما قاله الرسول على أنها أراضي غادرة، ولكن في عهد عثمان بن عفان وبعد أن أشار على الصحابة قرر بداية فتح بلاد البربر[10]. فقد حاول مارسي التركيز على شخصية عقبة بن نافع الفهري الذي اعتبره الشخصية المثالية التي استطاعت فتح المنطقة، لأنه جاء بدافع الجهاد والاستشهاد ونشر الدين[11].

1- *Ibid.*, p. 164.
2- *Ibid.*, p. 193-198.
3- *Ibid.*, p. 712.
4- *Ibid.*, p. 712.
5- *Ibid.*, p. 713-716.
6- *Ibid.*, p. 716.
7- *Ibid.*, p. 718.
8- G. Marçais, op; cit,., p. 19.
9- *Ibid.*, p. 20.
10- *Ibid.*, p. 21.
11- *Ibid.*, p. 22.

ولكن واقع الفتح الإسلامي للمنطقة ارتبط بشخصيات عسكرية كثيرة، إلا أن مارسي ركز على شخصية عقبة، الذي اعتبره صانع الفتح، لما يحمله من نظرة مختلفة عن القادة الآخرين، فالحملات الأولى للعرب الفاتحين كانت بدافع الغنيمة والنهب، لما تتوفر عليه من ثروات كبيرة، وهذا ما تجلى خلال حملة عبد الله بن سعد الذي استطاع القضاء على جرجير المنشق عن سلطة بيزنطة، وبعدها قام بنهب مدينة سبيطلة وأخذ الغنيمة والأسرى والرجوع إلى مصر، فبالرغم من استيلائه على مساحة كبيرة إلا أنه لم يفكر في الاستقرار أو إلحاق المنطقة[1]، وكذلك هو الشأن بالنسبة لحملة معاوية بن حديج الذي استطاع "نهب وتخريب" جلولة ثم الرجوع إلى المشرق محملا بالغنائم، تاركا المنطقة خلفه دون التفكير في الاستقرار[2]. فقد كان المغرب مخزن الثروة في نظر الخلفاء ما جعل الحملات تتوالى عن المنطقة بدافع الاستيلاء على الغنيمة لبيت مال المسلمين[3].

ومن الحملات الهامة كانت حملة عقبة التي تختلف عن باقي الحملات الأخرى لما تحمله من أهداف تمثلت في الاستقرار ونشر الدين، فقد أستغل مقتل كونستو الثاني(Constant II) ليدخل المنطقة[4]، وبفعل سرعته الكبيرة استطاع السيطرة على المدن والقلاع البيزنطية، وقتل قسم كبير من السكان البربر وسبي البقية ماعدا من بادر بإعلان إسلامه[5]، ولإنجاح هذه الحملة قام ببناء مدينة القيروان سنة 670م لتكون قاعدة للجند[6].

أما حملة أبي المهاجر فقد كانت مختلفة من حيث السياسة، فقد عقد تحالفا ومصالحة مع البربر، خاصة بعد هزم كسيلة واعتناقه الإسلام[7]، ما جعل أبي المهاجر القائد الأول الذي استطاع السير أكثر نحو الغرب حتى وصل مدينة تلمسان، بفضل القبائل البربرية التي تحالفت معه بعد أن قام بتقريب كسيلة زعيم أوربة . أما حملة عقبة الثانية سنة 681م فقد استطاعت إلى المحيط الأطلسي ناهبا كل المنطقة[8]، ما جعله يرجع وهو محمل بالغنيمة[9]، وفي طريق عودته إلى القيروان قضى عليه كسيلة بالقرب من تهودة وبذلك انتصر حفدة يوغرطة على عقبة مشيرا إلى أنه انتصار بربري وليس بيـــزنطي[10]، وهوبهذا يفند الطرح الذي يشير إلى أن البيزنطيين قد قدموا دعما ومساعدات لكسيلة وقبيلته. وبذلك استطاع كسيلة دخول القيروان ولأول مرة يطرد العرب من إفريقية، ولكن ملك كسيلة لم يدم طويلا، فقد استطاع زهير بن قيس البلوي من القضاء عليه واسترجاع القيروان، ولكن عند عودته استطاع البيزنطيين القضاء عليه في برقة[11]،

1- *Ibid.*, p. 29.
2- *Ibid.*, p. 31.
3- *Ibid.*, p. 195.
4- *Ibid.*, p. 31.
5- *Ibid.*, p. 31.
6- *Ibid.*, p. 31.
7- *Ibid.*, p. 32.
8- *Ibid.*, p. 32
9- *Ibid.*, p. 32.
10- *Ibid.*, p. 32.
11- *Ibid.*, p. 33.

وبسبب الأوضاع في المشرق توقفت الحملات العسكرية نحو بلاد المغرب، ولكن بعد استقرار الأوضاع، بعث الخليفة عبد الملك، حسان بن النعمان ومعه 40 ألف جندي لإخضاع المنطقة، حيث استطاع القضاء على البيزنطيين وإنهاء وجودهم بعد معركة قرطاج، التي لحق بها خراب ودمار[1]، وبعدها توجه إلى الأوراس لمواجهة الكاهنة، التي استطاعت هزمه في معركة وادي نيني، ما أجبره على الانسحاب، وبسبب الثورات في مركز الدولة الإسلامية توقف الفتح. وبعد 5سنوات استطاع الخليفة إمداد حسان بالجند والمال، ليقود بذلك حملته الثانية ضد الكاهنة، التي استطاع أن يقضي عليها بالقرب من الأوراس، خاصة بعد أن أمرت بتخريب المنطقة[2]، الشيء الذي أدى إلى إحباط عزيمة البربر وقتل روح المقاومة وانسحابهم من جيشها. فسقوط قرطاج وموت الكاهنة كانا يمثلان آخر حلقة المقاومة.

وإسلام البربر كان حدثا كبيرا في تاريخ المنطقة حيث حاول مارسي توضيح أهم الأسباب والدوافع التي جعلتهم يعتنقون الإسلام في وقت كانت مدن وقرى بلاد المغرب مسيحية، ولكن واقع المنطقة يثبت بأن الإسلام قد استقر وأزاح المسيحية بعد أن اعتنقه البربر في أقل من قرن[3]، وأمام هذا الوضع بقيت الأقليات المسيحية في المنطقة مقابل دفع الجزية للسلطة الإسلامية لكي تقوم بأداء شعائرها الدينية ومتابعة أعمالها التجارية والحرفية والعلمية[4].

أما تعريب المنطقة في العهود الأولى للإسلام فقد أرتبط أساسا بالدين فقد بين مارسي سبب تراجع اللغة اللاتينية إلى تنامي اللغة العربية التي كانت مرتبطة بالدين، الذي كان ينموا وينتشر بقوة في بلاد المغرب[5]، ولكن اللغة البربرية بقيت موجودة في المناطق البعيدة عن العـــرب الذين كان عددهم قليلا ومحصورا في إفريقية. وبفضل الجند العربي ورجال الدين أصبحت اللغة العربية تهيمن على المدن مثل القيروان[6].

و تميزت الفترة الممتدة بين الفتح والهجرة الهلالية في نظر مارسي بالفوضى وعدم الاستقرار بسبب سياسة الولاة، ودخول فكر الخوارج السياسي والديني الذي تبناه البربر ليثوروا ضد العرب والقضاء على سلطتهم[7]، بالإضافة إلى دخول الشيعة الذين حاولوا استغلال ثروات وخيرات البربر لإنجاح مشروعهم والذي أصطدم برفض البربر ما أدى إلى قيام ثورات عنيفة ضدهم[8].

أما الهجرة الهلالية، فقد كانت نتيجة للقطيعة بين الصنهاجيين الزيريين مع الفاطميين ما ترتب عنه دخول العرب الهلالية لتأديب المعز الصنهاجي ولتخريب المنطقة[9]، بالرغم من محاولة المعز لتقريب هؤلاء

1- *Ibid.*, p. 35
2- *Ibid.*, p. 34.
3- *Ibid.*, p. 36.
4- *Ibid.*, p. 38.
5- *Ibid.*, p. 40-42.
6- *Ibid.*, p. 41.
7- *Ibid.*, p. 43-48.
8- *Ibid.*, p. 48.
9- *Ibid.*, p. 194.

الهلاليين إلى سلطته إلا أنه لم ينجح، ما جعلهم ينهبون التي كانت بالنسبة لهم "أرض الميعاد" لما فيها من خيرات وثروات[1] ، ولكن المعز حاول جمع القوات في محاولة منه لصد تدفق العرب على إفريقية في حيدران بالقرب من قابس سنة 1053م، إلا أنه هُزم ونهب الهلاليين المنطقة [2]، ما أدى إلى تراجعها اقتصاديا بعد أن هاجر سكان المزارع والأراضي وتقلص دور التجارة[3] بفعل الهجمات الهلالية وأعمال اللصوصية. أمام هذا الوضع لم يكن للمعز سوى فكرة تحويل عاصمته إلى المهدية، تاركا ابنه خلفه في القيروان إلا أنه خرج منها ومعه بعض سكانها، قبل أن يدخلها ويستولي عليها الهلاليين وينهبوها[4]، فالهجرة الهلالية كانت بمثابة الإعصار الذي دمر وحطم بلاد المغرب وخاصة إفريقية التي تضررت كثيرا جراء هذه الهجرة التي لم تستطع القوات الصنهاجية ردعها [5]. فالعائلات العربية بقيت تسير نحو الغرب ما جعلها تدخل المغرب الأوسط وتستقر في مناطقه، كقبيلة أثبج التي وصلت إلى مناطق قريبة للحماديين وكذلك قبيلة ثعلبة، ورياح بالقرب من قسنطينة وبفعل هجماتهم وصلت حتى المنطقة الصحراوية [6].

لقد صور مارسي الهجرة الهلالية على أنها إعصار دمر المنطقة وجعلها تتراجع حضاريا واقتصاديا، بفعل طرد القبائل البربرية والاستيلاء على أراضيها، وجعلها مراعي لقطعان ماشيتهم الأمر الذي جعل الزراعة تنحصر في المدن وما حولها[7]. أما تعريب المنطقة فقد كان بفعل الوجـــود العربي الهلالي في المنطـــقة واحتكاكهم بالقبائل البربرية[8]. وحتى طرق المواصلات وقنوات الري الرومانية التي كانت قبل الهجرة الهلالية تلعب دور كبير في استرجاع ازدهار المنطقة زراعيا خربت وهدمت هي كذلك ما جعل الزراعة والتجارة تتراجع، ما أدى بالمدن الداخلية تعيش في فوضى ولصوصية، الأمر الذي جعل الحماديين يغيرون وجهتهم نحو الشمال وجعل مدينة بجاية عاصمة جديدة لملكهم وبذلك عملت الأسرة الحمادية على تغيير نشاطها نحو البحر[9]، بعد أن كانت عاصمة مُلكهم الأولى في المنطقة الداخلية، وحتى تراجع القيروان كان من الأسباب الرئيسية التي جعلت بجـــاية تزدهر وتنمو بسرعة وتصبح عاصمة المغرب[10]، بعد أن استقطبت تجارا وحرفيين من القيروان، ما جعل قوافل العراق والحجاز ومصر وسوريا تحط بها[11].

وفي ظل هذا التغيير بدأت بلاد البربر تتغير ديموغرافيا ودينيا، وبذلك بدأ طور جديد للمنطقة في ظل الإسلام والعربية.

1- *Ibid.*, p. 195.
2- *Ibid.*, p. 195.
3- *Ibid.*, p. 195.
4- *Ibid.*, p. 196.
5- *Ibid.*, p. 203.
6- *Ibid.*, p. 204.
7- *Ibid.*, p. 211.
8- *Ibid.*, p. 205.
9- *Ibid.*, p. 214.
10- *Ibid.*, p. 198.
11- *Ibid.*, p. 199.

الخـــاتمـــة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لقد ساهمت المدرسة التاريخية الفرنسية خلال المائة سنة الأولى لاحتلالها الجزائر في نشر العديد من الدراسات التاريخية التي شملت الإسلام واللغة العربية، واللهجات العربية والبربرية والآثار، بهدف تسيير المنطقة وفق منظورها الاستعماري في محاولة الإثبات التاريخي لعجز "العنصر الأهلي" عن بناء دولة قوية وحضارة مستنيرة. وتزامنت هذه النظرة الأولى مع تطور الدراسات الإثنوغرافية التي قامت بتقطيع بلاد المغرب الأوسط إلى مجموعة من الأقاليم الإثنية واللسانية، مما جعل الإدارة الاستعمارية تشجع الدراسات في اتجاه خلق هوة فاصلة بين البربري المحلي صاحب الحق والتاريخ، والبدوي العربي المغتصب لأرض غيره.

وكانت بداية الكتابات مع المترجمين العسكريين الذين تركوا بصماتهم في الدراسات التاريخية، من خلال أعمالهم كالترجمة وجمع المخطوطات والوثائق العربية ثم نشرهم، وخير دليل على ذلك ما قام به البارون دوسلان الذي استطاع ترجمة ونشر القسم الثالث من كتاب " العبر " لابن خلدون ، الذي كان مصدرا مهما لدراسة الفترة الوسيطة التي كانت عند أغلب الدارسين مرحلة غير واضحة يكتنفها الغموض بسبب نقص المصادر العربية، كما ساهم الجيل الأول للمدرسة التاريخية الفرنسية بفضل تقاريرهم وملاحظاتهم في وضع اللبنة الأولى للدراسات التاريخية فيما بعد.

ويرجع الفضل في توجيه الكتابة التاريخية لمجموعة من الباحثين المختصين اللذين عملوا على توجيه الدراسات التاريخية بفضل المصادر الإخبارية والجغرافية من أجل توضيح المرحلة الوسيطة من تاريخ بلاد المغرب الأوسط.

وعلى العموم وفي ختام هذه الدراسة المتواضعة، يمكن القول بأنه بالرغم من أن الدراسات الأولى للفرنسيين خلال القرن 19م ومطلع القرن 20م تميزت بالطابع الأدبي والقصصي، حيث كانت تتسم بالسطحية في معالجة تاريخ الجـــزائر، إلا أنها كانت الأكثر انتشارا بين الفرنسيين. كما ركزت دراساتها على المرحلة الرومانية، التي كانت ترى فيها الفترة الأكثر تنويرا وازدهارا بعد أن قامت ببناء المدن وتطوير الزراعة في المنطقة، والترويج لنجاحها في دمج البربر في حضارتها.

إن محاولة المدرسة التاريخية الفرنسية إبراز الماضي الروماني للمغرب الأوسط تزامن كذلك مع التركيز على الانتشار الواسع للمسيحية، بعد أن أصبح الديانة الرسمية للأباطرة، في ظل الرخاء والانتشار الواسع للكنائس الشيء الذي أدى إلى ظهور شخصيات هامة تركت بصماتها في مجمل تاريخ المسيحية الكاثوليكية مثل القديس أوغستين والقديس سيبريان.

كما أن اهتمام الدراسات الفرنسية بالعنصر البربري من خلال إبراز أصوله الأوروبية، معتمدة في ذلك على الآثار الجنائزية الشبيهة بتلك التي في أوروبا، بهدف جره إلى أوروبا، يهدف بالأساس إلى إحداث

انكسار اجتماعي شديد يكون عاملا مهما في المشروع الاستعماري. ومن هنا فإن دخول فرنسا للجزائر كان بدافع تحضير المنطقة وتحرير البربر من سطوة العرب المغتصبين، خاصة وأن جل الدارسين والمختصين كانوا يعملون على تبرير هذا التدخل العسكري فيها الذي كان بدافع نشر قيم الحضارة الإنسانية.

إن التركيز على الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، الذي صور في أغلب الدراسات بالعنف والترهيب والتقتيل كما فعل عقبة بن نافع مع كسيلة، هو في النهاية الترويج لعدم تقبل البربر للإسلام وإنما اعتنقوه سطحيا تحت ضغط العنف، وما لجوئهم إلى الجبال إلا دليل على ذلك، وهذا ما جعل العرب يستحوذون على أراضيهم، وما وجود فرنسا في المنطقة إلا بدافع إرجاع حقوقهم المسلوبة. إن الحملات العسكرية في مرحلة الفتح هي التي استنزفت قوى ورخاء بلاد المغرب، ثم الهجرة الهلالية خلال القرن 5هـ/11م التي حطمت وقضت على البنية الاجتماعية بغرس عنصر عربي جديد، بعد أن توافد بأعداد كبيرة ما أدى إلى تراجع المنطقة اقتصاديا بفعل أعمال اللصوصية، التي أصبحت تهدد القوافل التجارية في المناطق الداخلية ما جعل الإمارات تغير وجهتها إلى الساحل، الذي شهد انتعاش تجاري كبير مع المدن الأوروبية.

وأخيرا تجب الإشارة إلى أن النصوص العربية المستعملة من طرف الفرنسيين في الفترة موضوع الدراسة اتسمت بعدم تنوعها وقلتها، إذا ما استثنيت عدد من النصوص الإخبارية والجغرافية، فكان لا بد من انتظار نهاية سنوات الثلاثينات لاستعمال مصادر أوسع وعقلنة الدراسات التاريخية، خصوصا مع روبار بروشنفيك في أول دراسة معمقة حول إفريقية في العهد الحفصي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر و المراجع

أولا: الكتب باللغة الفرنسية

- Bargès (L'Abbé), *Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom*, Paris, 1859.
- Basset (René), *Documents géographique sur l'Afrique septentrionale*, Traduit de l'Arabe, Paris, Ernest Le Roux, 1898.
- id, *Etude sur la Zenata du Mzab, de Ouargla et de l'Ouled-Rir*, Paris, Ernest Leroux, 1893.
- id, *Recherches sur la religion des Berbères*, Paris, Ernest Leroux, 1910.
- Beaulard (Louis), *Un voyage en Afrique ou description d'Alger*, 1837.
- Behaghel (A), *L'Algérie*, Alger, Tissier, 1864.
- Bel (Alfred), *Caractère et développement de l'Islam en Berbérie et plus spécialement en Algérie*, Alger, 1900.
- Bérard (Victor), *Indicateur de l'Algérie. Description géographique, historique et statistique de toutes les localités*, Alger, Bastide, 1858.
- Bernard (Augustin), *L'Algérie*, Paris, Félix Alcan, 1929.
- Bert (Paul), *Lettres kabyles. La politique algérienne*, Paris, 1885.
- Beylié, (Le Général de), *La Kalaa des Beni Hammad, une capitale berbère de l'Afrique du Nord au XI^e siècle*, Paris, Ernest Leroux, 1909.
- Blanchet (Paul), *La porte de Sidi Oqba*, Paris, Ernest Leroux, 1900.
- Bolle (J.A), *Souvenir de l'Algérie ou relation d'un voyage en Afrique pendant 1838*, Paris,1839.
- Bonnafont, *Douze ans en Algérie, 1830-1840*, Paris, Dentu, 1880.
- Bory (Saint Vincent de), *Note sur la commission exploratrice et scientifique de l'Algérie*, Paris, 1838.
- Bourguinat (M), *Souvenir d'une exploration scientifique dans le Nord de l'Afrique. Histoire des monuments mégalithiques de Roknia, près de Hammam Meskhoutin*, Paris, Challamel, (s.d.).
- Bourde (Paul), *A Travers l'Algérie, souvenir de l'excursion parlementaire 1879*, Paris, 1880.
- Boulifa (S. A.), *Le Djurdjura à travers l'histoire depuis l'Antiquité jusqu'à 1830*, Alger, 1925.
- Breteuil (Arsène), *L'Algérie française, histoire, mœurs, coutumes, agriculture*, Paris, Dentu, t. 1, 1856.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- Carette (E.), *Recherche sur l'origine et les migrations des principales tribus de l'Afrique septentrionale, exploration scientifique, et particulièrement de l'Algérie*, Paris, Imprimerie Impériale, 1853.

-id, *Exploration scientifique de l'Algérie. Etudes sur la Kabylie proprement dite*, (extraits du recueil général des lois et des arrêts Avril1849), Paris ,1849.

- Carthy (M. MC), *Dictionnaire géographique et politique de l'Algérie*, Alger, 1858.

- Caudel (Maurice), *Les premières invasions arabes dans l'Afrique du Nord*, Paris, Ernest Le Roux, 1900.

- Cuny, *Tableau historique des découvertes et établissement des Européens dans le Nord et l'Ouest de l'Afrique jusqu'au commencement du 19 siècle*, Paris, Fain, t. 1, 1803-1804.

- Chenier, *Recherche historique sur les Maures et l'histoire de l'empire du Maroc*, Paris, t/ 1, 1787.

- Cadi (Hadj Chérif), *Terre d'Islam*, Paris, 1925.

- Christian (P.), *L'Afrique française, l'empire du Maroc et les déserts du Sahara*, 1846.

- Damiens (Charles), *L'Algérie ou la civilisation conquérante*, Paris, 1855.

- Daumas (Général), *Le Sahara Algérien, études géographiques, statistiques et historiques sur les régions au sud des établissements français*, Paris, 1845.

- id, *La Grande Kabylie, études historiques*, Alger, Hachette, 1847.

- id, *Mœurs et coutumes de l'Algérie*, Paris, Hachette, 1853.

- Dan (Pierre), *histoire de la Barbarie et de ses corsaires*, Paris, 1646.

- Desfontaines et Peysonnel, *Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger*, publiés par Dureau de la Malle, Paris, 1838.

- Depont (Octave), *Confréries religieuses musulmanes*, Alger, Xavier Coppolani, 1897.

- Dopigez.(M), *Souvenir de l'Algérie et de la faune méridionale*, Douai, 1840.

- Doutté (Edmond), *l'Islam algérien en l'an 1900*, Alger, Girlat, 1900.

- Dupart (Pascal), *Essais historiques sur les races ancienne et modernes de l'Afrique septentrionale leurs origine*, Paris, 1845.

- Eugène, *L'Islam et les musulmans dans l'Afrique du Nord*, Paris, 1930.

- Enfontain, *Colonisation de l'Algérie*, Paris, Bertrand, 1843.

- Farine (Charles), *A travers la Kabylie*, Paris, Ducocq, 1865.

- Fournel (Henri), *Etude sur la conquête de l'Afrique par les Arabes*, Paris, Imprimerie Impériale, 1857.

- id, *Les Berbères, étude sur la conquête de l'Afrique, par les Arabes d'après les textes arabes imprimés*, Paris, Imprimerie nationale, t. 1, 1875.

- id, *Les Berbères, étude sur la conquête de l'Afrique, par les Arabes d'après les textes arabes imprimés*, Paris, Imprimerie nationale, t. II, 1881.
- Fontaine (Pauline de Noir), *L'Algérie, un regard écrit*, Le Havre, 1856.
- Freppel Evêque, *Saint Cyprien et l'Eglise d'Afrique au III^e siècle*, Paris, Bray Retaux, 1873.
- Fredon (Bernard), *Histoire de l'Algérie, colonisation, géographie, administration*, Alger, Adolphe, 1906.
- Furnari (S.), *Voyage médical dans l'Afrique septentrionale*, Paris, 1845.
- Gautier (Emile Félix), *Le passé de l'Afrique du Nord, les siècles obscurs*, Paris, Payot, 1942.
- Gérard (Jules), *L'Afrique du Nord*, Paris, 1860.
- Gibbon (Edward), *Histoire de la décadence et de la chute de l'empire romain*, Paris, t. 2, 1828.
- Godard (Abbé Léon), *Soirées algériennes*, Tours, MDCCCLVII.
- Grâce (de), *Introduction à l'histoire moderne générale et politique de l'univers*, Paris, 1753 t.8.
- Habec (Arthur), *Mettons en valeur l'Afrique du Nord*, 1912.
- Hérisson (Conte D'), *Chasse à l'homme, guerres d'Algérie*, Paris, 1891.
- Houdas (O), *Ethnographie de l'Algérie*, Paris, Leclerc, (s.d.).
- Huart (Claude), *Les Arabes*, Paris, Paul Guetner, 1913.
- Lamoricière (Général de), *Oraison funèbre*, 1865.
Lasteyrie (Robert de), *Bibliographie générale des travaux historiques et archéologiques, publiés par la société savante de France*, Burt Franklin, 1972, T IV.
- Latrie (M L De Mas), *Traités de paix et de commerce, et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen Age*, Paris, 1866.
- Lavion, *L'Algérie musulmane dans le Passé, le présent, et l'avenir*, Paris, Challamel, 1914.
- Liorel (Jules), *Races berbères, Kabylie du Djurdjura*, Paris, Ernest Leroux, (s.d.).
- Lorin, *L'Afrique du Nord*, Paris, 1912.
- Marçais (Georges), *Les Arabes en Berbérie du XI^e au XIV^e siècle*, Constantine, Braham, 1913.
- id, *La Berbérie musulmane, et l'Orient au Moyen Age*, Paris, Aubier, 1928.
- Masqueray (Emile), *Chronique d'Abou Zakaria*, traduite et commentée, Alger, 1878.
- id, *La formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie (Kabyles de Djurjura, Chaouïa de l'Aurâs, Beni Mezâb)*, Paris, Ernest Leroux, 1886.
- Malle (Dureau de La), *L'Algérie, histoire des guerres des Romains, des Byzantin et des Vandales*, Paris, 1852.
- Mercier (Ernest), *Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale selon les documents fournis par les auteurs arabes et notamment par l'histoire des Berbères d'Ibn Khaldoun*, Constantine, L. Marle Librairie Edition, 1875.

- id. *Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française 1830*, Paris, Ernest Leroux, 1888.
- id. *La propriété foncière chez les musulmans d'Algérie*, Paris, Ernest Leroux, 1891.
- id. *La question indigène en Algérie au commencement du XX^e siècle*, Paris, 1901.
- id. *Histoire de Constantine*, Constantine, J. Marle, F. Biron, 1903.
- Maury (Bonnet), *L'islam et christianisme en Afrique*, Paris, 1906.
-Mauroy (M.), *Précis de l'histoire et du commerce de l'Afrique septentrionale depuis les temps anciens jusqu'aux temps modernes*, Paris, 1852.
- Narcisse (Faucon), *Livre d'or de l'Algérie*, Paris, Challamel, 1889, TI.
- Nys (Ernest), *Recherche sur l'histoire de l'économie politique*, Paris, 1898.
- Nettement (M. Alfred), *Histoire de la conquête d'Alger*, Paris, Jacques Le Coffre, 1867.
- Passols (Capitaine), *L'Algérie et l'assimilation des indigènes musulmans*, Paris, 1903.
- Pélissier (E.), *Les annales algériennes*, Marseille, 1836, t 1.
- Pélissier (Christian), *L'Afrique française l'empire du Maroc et les déserts du Sahara*, 1846.
- Perier (Jean), *Des races dites berbères et leur ethnographie*, Paris, Hennuyer, 1873.
- Pont (Octave de), *Confréries religieuses musulmanes*, Alger, Xavier Coppolani, 1897.
- Primaudaie (Phillipe Elie de La), *Le commerce et la navigation de l'Algérie*, Paris, 1860.
- Quétin (Emile), *Guide de voyage en Algérie*, Paris, 1848.
- Renard (A.), *Histoire de l'Algérie*, Paris, Hachette, 1910.
- Resbecq (Fontain de), *Alger et les cotes d'Afrique*, Paris, 1837.
- Rozet - Carette, *L'Algérie, l'univers ou histoire et description de tous les peuples, de leurs religions, mœurs, coutumes*, Paris, Firmin Didot, 1850.
- Rinn (Louis), *Marabouts et khouans, étude sur l'islam en Algérie*, Alger, Adolphe Jourdan, 1884.
-Sahli (Mohamed), *Décoloniser l'histoire. Introduction à l'histoire du Maghreb*, Paris, Maspero, 1965.
- Slane (Williams Mac -Guckin de), *Histoire des Berbères et les dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale*, Alger, 1852, t. 1.
- Tardieu (Androise), *De Paris au Sahara*, Batna, 1898.
- Tassy (Laugier de), *Histoire du royaume d'Alger*, Amsterdam, MDCC.XXV.
- Urbain (Ismail), *L'Algérie française, indigènes et immigrants*, Paris, 1862.
- Voisin (Georges), *L'Algérie pour les Algériens*, Paris, 1861.
- Voltaire (François Marie), *Œuvre de Voltaire*. T. 15 : *Essai sur les mœurs*, Lefebvre, Paris (s.d.).

- id, Œuvre de Voltaire. T 18 : *Essai sur les mœurs*, T 18, Lefebvre, Paris, (s.d.).
- Wahl (Maurice), *L'Algérie*, Paris, Félix Alcan. (s.d.).
- Warnier- Carette, *Description et division de l'Algérie*, Alger, Hachette, 1847.
- Zeys (Pare), *Législation mozabite, son origine, ses sources*, Alger, 1886
- *Voyage à Alger. Description de cette ville et de ses environs*, (Anonyme), Paris, 1830.

ثانيا: المقالات باللغة الفرنسية

- Allaoua Amara, « La Qal'a des Banī Hammād, l'histoire d'un déclin », *Archéologie Islamique*, 11 (2001), p. 97-118.
- Basset (René) « Notice sur un manuscrit Carchouni de la Bibliothèque -Musée d'Alger », *Bulletin de correspondance africaine*, Alger, Fontana, TIII, p. 165- 167.
- Basset (René), « Mission de M. Basset dans le Mzab et à Ouargla », *Bulletin de correspondance africaine*, Alger, Fontana, TIII, (1885), p. 13-15.
- Beker(F.), « Essai sur le Medracene », *Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine*, 2 (1854- 1855), p.108-147.
- Bernard (A.), N. La Croix, « L'évolution du nomadisme », *Annales de géographie*, TXV, Paris , Armand Colin, (1906), p. 152-165.
- Bernard (Augustin), « Emile Masqueray », *Revue Africaine*, 38 (1894), p. 350-373.
- Beylié (général de), « Une capitale berbère au XI[e] siècle », *Journal asiatique*, T XII, Paris, Ernest Leroux, (1908), p. 193-212.
- Blanchet (Paul), « Rapport sur les travaux exécutés à la Kalaa des Beni Hammad », *Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 45 (1898), p. 98-115.
- Brunon, « Notice sur les dolmens et les timulus de l'Algérie", *Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 23 (1876-1877), p. 324-343.
- Cahen (AB), "Les Juifs dans l'Afrique", *Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 14 (1867), p.120-146.
- Cahen, « Le Medracene », *Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 20 (1873-1874), p. 1-18.
- Capitaine Jugue, « L'œuvre des sociétés savantes algériennes et tunisiennes », *Revue Africaine*, 49 (1905), p. 363-385.
- Carthy (Mac), « Africa Antica », *Revue Africaine*, 30 (1886), p. 5-38.

- Cherbenneau, « Exploration archéologique à Chettabah », *Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine*, 2 (1854-1855), p. 55-70.

- Cherbenneau, « Inscription arabe à Constantine », *Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine*, 3 (1856-1857), p. 70-140.

- Cherbenneau, «Notices sur des Inscriptions latine découvertes récements dans la province de Constantine », *Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine*, 2 (1854-1855), p. 147-175.

- Doutté (Edmond), « L'œuvre scientifique de l'Ecole des lettres d'Alger », *Revue Africaine*, 49 (1905), p. 438-446.

- Esquer (Gabriel), « La Société historique algérienne, 1856-1956. Histoire et souvenirs », *Revue Africaine*, 100 (1956), p. 193-226.

- Fagnan (E.), « Ibn El- Athir, annales du Maghreb et de l'Espagne », *Revue Africaine*, 40 (1896), p. 352-382.

- Faidherbe (Général), « Collection complète des inscriptions numidiques », *Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 17 (1870), p. 124-136.

- Féraud (Charles), « Ain Beida », *Revue Africaine*, 16 (1872), p. 401-419.

- Féraud (Charles), « Documents pour servir a l'histoire de Bône », *Revue Africaine*, 32 (1888), p. 5-196.

- Féraud (Charles), « Note historique sur les Beni Djellab », *Revue Africaine*, 23 (1879), p. 49-69.

- Féraud (Charles), « Note sur Bougie », *Revue Africaine*, 3 (1859), p. 45-51.

- Féraud (Laurent Charles), « Des monuments dites celtiques de la province de Constantine », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 11 (1864), p. 108-111.

- Féraud (Laurent Charles), « Histoire de la province de Constantine, Bougie", *Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 16 (1869), p.85-409.

- Féraud (Laurent Charles), « Histoire de la province de Constantine, Sétif », *Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine,* 18 (1871-1872), p. 5-179.

- Féraud (Laurent Charles), « Kitab El Adouani ou le Sahara de Constantine et de Tunis », *Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 2 (1868), p. 1-209.

- Flathers, « L'Afrique septentrionale ancienne », *Revue Africaine*, 21 (1877), p. 153- 168, 233-248, 344-360.

- Fontier, « Note sur les objets antiques trouvés à Philippeville », *Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine*, 1 (1853), p. 82-84.
- Foy (O), « Notice archéologique sur Medracene », *Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine*, 5 (1858), p. 58-70.
- Goyt (A.), « Dolmens et sépulture mégalithique des Ouled Hannech», *Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 24 (1886-1887), p. 69-85.
- La Croix (F.), « Afrique ancienne : produits végétaux », *Revue Africaine*, 12 (1868), p. 409-420.
- La Croix (F.), « Afrique ancienne : produits végétaux », *Revue Africaine*, 13 (1869), p. 161-178
- La Croix (F.), « Colonisation et administration romaines », *Revue Africaine*, 7 (1863), p. 363-383.
- La Croix (F.), « L'établissement romain en Afrique », *Revue Africaine*, 15 (1871), p. 300-306.
- Marçais (Georges), « Projet de recherche archéologique relative à la Berbérie du moyen age », *Revue Africaine*, 60 (1919), p. 466-482.
- Marçais (Georges), « La Kalaa des Beni Hammad d'après deux publications récentes », *Receuil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 41 (1908), p. 161-187.
- Marçais (Georges), « Revue de l'art musulman en Berbérie », *Revue Africaine*, 50 (1906), p.403-427.
- Marcilly, « Notice sur les vestiges de l'occupation romaine dans le cercle de Philippeville », *Annuaire de la société archéologique de la province de Constantine*, 1 (1853), p. 20-39.
- Masqueray (Emile), « Document historique sur l'Aurès », *Revue Africaine*, 21 (1877), p. 97-123.
- Masqueray (Emile), « Rapport archéologique sur Bellezma et Ngaous », *Revue Africaine*, 21 (1877), p.33-43.
- Mequesse, « Etude sur la Kalaa des Beni Hammad. Etude tirée des récits français et de Ibn Khaldoun écrivain arabe », *Revue Africaine* 30 (1886), p. 291-311.
- Mercier (Ernest), "Episode sur la conquête de l'Afrique, les héros », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 29 (1882), p. 232-263.
- Mercier (Ernest), "La propriété indigène au Maghreb », *Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine*, 32 (1898), p. 312-340.
- Mercier (Ernest), « Histoire de l'invasion arabe, la Kahina », *Recueil des Notices et mémoires de la société archéologique de la province de Constantine*, 14 (1867), p. 241-256.
- Mercier (Ernest), « Les Arabes d'Afrique jugés par les auteurs arabes », *Revue Africaine*, 17 (1873), p. 43-56.

- سمايلوفيتش (أحمد)، فلسفة الاستشراق، القاهرة، دار الفكر العربي، 1998.

- عمارة (علاوة)، دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر و المغرب الإسلامي، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 2008.

- علاوة عمارة، "الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي" مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، 4 (2004)، ص 31-75.

- فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولى)، دار الأهلية، 1998.

النبراوي (فتحية)، الاستشراق، الدار السعودية للنشر و التوزيع، 2005.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المحتويات

المقدمة 2

الفصل الأوّل: المغرب الأوسط في الكتابات الفرنسية الأولى بين الوصف والإيديولودجيا

1-حضور المغرب الأوسط في الكتابات الأولى 9

أ-في أصول الكتابة التاريخية الفرنسية حول المغرب 9

ب-تعدد أغراض الكتابة في مؤلفات ما قبل الاحتلال 12

2-العسكريون وتطور الكتابة في المرحلة الأولى لاحتلال الجزائر 14

أ-المعرفة التاريخية الوصفية في كتابات الرحالة 15

ب-تقارير البعثات العلمية 17

3-التاريخ كأداة لفهم التركيبة الاجتماعية في مؤلفات أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر 20

الفصل الثاني: المصادر العربية وتوجيه الكتابة التاريخية الفرنسية (1850-1900م)

1-ترجمة النصوص العربية المخطوطة 28

2-الدراسات العامة والمونوغرافية الاجتماعية 32

3-الكتابات المتخصصة 48

4-المؤسسة العلمية وتوجيه الدراسات التاريخية 58

4-1-الجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة 59

4-2-الجمعية التاريخية الجزائرية 63

5-موقع ضئيل للفترة الإسلامية في الدراسات الأثرية 67

5-1-قلعة بني حماد والبحث عن الماضي البربري – البيزنطي 67

الفصل الثالث: التوجه التدريجي إلى الكتابة التاريخية الأكاديمية (1900-1930م)

1-تاريخ أديان المغرب الأوسط: من اليهودية والمسيحية إلى الإسلام 78

2-مواصلة الأحكام المسبقة: العروبة والبربرية والإسلام 80

3-تراجع بلاد المغرب في ظل الوجود العربي 85

4-قراءة جديدة للفتح الإسلامي 87

5-غوتييه والقرون المظلمة 91

6-جورج مارسي والكارثة الهلالية 95

الخاتمة 102

قائمة المصادر والمراجع 105

فهرس الموضوعات 116

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية